

دعوة الحق



الأسلام دعوة الحق

تأليف
د. السيد زرق الطويل

محرم ١٤٠٦ هـ
أكتوبر ١٩٨٥ م

السنة الخامسة
العدد [٤٦]

الأسرار دعوة الحق

تأليف
د. السيد رزق الطويل

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الإسلام ... دعوة الحق

دكتور السيد رزق الطويل

بسم الله الرحمن الرحيم
﴿مَا كَانَ إِبْرَاهِيمُ يَهُودِيًّا وَلَا نَصْرَانِيًّا ، وَلَكِنْ كَانَ حَنِيفًا
مُسْلِمًا ، وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾

(سورة آل عمران الآية ٦٧)

﴿قُولُوا آمَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْنَا وَمَا أُنْزِلَ إِلَىٰ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ
وَأِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطِ وَمَا أُوتِيَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَمَا أُوتِيَ
النَّبِيُّونَ مِنْ رَبِّهِمْ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ﴾

(سورة البقرة الآية ١٣٦)

إهداء

إلى والدى العزيز الذى لحق بجوار ربه ، وأنا فى رحاب أم القرى ، وفى جوار البيت الحرام دون أن أسعد باللقاء الأخير ، لكنه تقدير العزيز العليم وإنا لله وإنا إليه راجعون .

لقد أعطى وبذل عطاء الأبوة بلا حدود ، وعطاؤه بقلبه كان أكثر وأغزر ، إذ كنا فى ريعان الصبا ، وشرح الشباب نطلب العلم فى رحاب الأزهر ، شيخ الجامعات .

إننى بهذا العمل أحى جهاده ، وجهاد الوالدة بارك الله فى عمرها ، وأقول ما وصانا به رب العالمين : ﴿وَقُلْ رَبِّ ارْحِمُهُمَا كَمَا رَبَّيَانِي صَغِيرًا﴾

أسأل الله ربى أن يرحمه ، وأن يجزل مثوبته ، ويرحم كل عزيز فقدته ، وأنا فى جوار هذا البلد الطيب . إن ربى سميع مجيب . وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين ..

بسم الله الرحمن الرحيم

تمهيد

هذا الكتاب

أحمد الله حمداً يليق بجلاله ، وعظيم انعامه ، وواسع فضله ،
ارتضى لنا الاسلام ديناً نهتدى بهديه ، ونسير على شرعه ،
ونسترشد بمواعظه ونصحه ، ونحقق الفلاح الذى نرجوه
بالاستمساك به ، والتشبث بحقائقه الخالدة ، وقيمه السامية ،
ومثله العليا وأصلى وأسلم على نبيه ومصطفاه محمد عليه الصلاة
والسلام ، حمل آخر رسالة تدعو إلى الدين الحق ، وتلقى كتابها
المهيمن من لدن حكيم خبير ، وقدمه للناس سلوكاً حياً راشداً
يتمثل فى عقيدة قويمه ، وعبادة صادقة ، وخلق كريم فكان بحق كما
وصفه الله القدوة الطيبة والأسوة الحسنة . اللهم صل عليه وعلى آله
وصحبه ومن اهتدى بهديه وسار على طريقه واقتدى بسنته إلى يوم
الدين .

وبعد :

فالاسلام دعوة الحق

قضية نطرحها فى حياتنا المعاصرة التى تموج بشتى الأفكار

والنظريات وتضطرب فيها المذاهب ، وتتحارب المبادئ ، وتعترك العقائد التي اتجه إليها الإنسان بمؤثرات البيئة ، أو الوراثة عندما كان بمعزل عن الفطرة الهادية التي فطر الله الناس عليها ، كما جاء في الحديث الشريف «كل مولود يولد على الفطرة حتى يكون أبواه هما اللذين يهودانه ، أو ينصرانه ، أو يمجسانه»^(١)

وعندما نطرح هذه القضية ، أو قل عندما نقدم للوجود هذه الحقيقة لا نقدم جديداً ، إذ هي حقيقة قديمة قدم الوجود الإنساني على الأرض ، وتوافرت الأدلة على صدقها في فترات التاريخ المختلفة ، بيد أن انصراف الإنسان عنها بحياته المادية اللاهية ، وما استتبع هذه الحياة من أفكار ملحدة سواء كانت تسير مع تيار المادة أو تعاكسه كالماركسية من جانب ، والرهبانية من الجانب الآخر . كل هذا يجعلنا نطرح هذه القضية وكأنها جديدة ، ونعيد التدليل والبرهنة عليها وكأن البشر - بحكم ما عصفت بهم من مذاهب - ومنهم أبناء هذه العقيدة في ريب منها .

إنها الغربة التي يعيشها الإسلام بين البشر وفيهم أهله .
فنحن ننظر إلى عقيدة الإسلام إذا ما أُجْلِيَتْ لنا خالصة بعيدة عن الشوائب نظرة عجب ودهشة ، لأن واقعنا يتعد كثيراً عنها !!!

ونحن ننظر إلى أحكام الإسلام وتشريعاته - وفيها عناصر الصلاح إلى يوم القيامة - نظرة شك وتردد وكأنها بقية من أساطير

(١) مسند الإمام أحمد ج ١ ص ٣٤٦ ، ورواه البخاري في كتاب الجنائز . وكذا الموطأ في باب الجنائز أيضاً بلفظ «فأبواه يهودانه أو ينصرانه» .

القرون الأولى !!

والخلق الإسلامى فى العلاقات بين الأفراد والجماعات نفتقده تماماً !!

وقد أشار النبى عليه الصلاة والسلام إلى هذه الغربة التى تتأب الإسلام الحق بين حين وآخر؛ إذ يقول فيما رواه عنه أبوهريرة :
«بدأ الإسلام غربياً وسيعود غربياً ، كما بدأ فطوى للغرباء ، الذين يُضِلُّحُونَ ما أفسد الناس ، وَيُصْلِحُونَ عند فساد الناس»^(١)

وتقديم هذه القضية يحتم علينا تحليلها ، وشرح طرفيها ، وطرفاها هما : الإسلام من ناحية ، والحق من ناحية أخرى .
وعندما نربط بين الإسلام والحق لا يقوم هذا الربط على مجرد عاطفة فرضها علينا الإيمان بهذه العقيدة ، وإنما يقوم على شواهد مهمتنا هنا إبرازها وتذليلها ، ليتأكد الحق من قلوب أهله ، وليؤمن به من هو فى عدااء معه ، أو كما قال رب العالمين فى محكم كتابه ﴿لِيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَنْ بَيِّنَةٍ وَيَحْيَى مَنْ حَيَّ عَنْ بَيِّنَةٍ﴾^(٢)

وعندما نقول الإسلام دعوة الحق إنما نعنى أن الإسلام وهو الدين الذى ارتضاه الله للبشرية منذ خلقها حتى يرث الله الأرض ومن عليها يقوم على حقائق ثابتة ، وأصول راسخة ويعالج قضايا صالحة ومُصْلِحَةً ، مصدرها رب السموات ، ورب الأرض رب العالمين .

فكل دعوة للحق هى منه .

(١) أخرجه مسلم - كتاب الإيمان ، وسنن ابن ماجه كتاب الفتن .

(٢) سورة الأنفال/٤٢ .

وكل دعاء بالحق يجب أن يتجه إليه وحده .

والإنجاه بالدعاء إلى غيره ضرب من العبث ، أو هو نفخ في رماد ، وصراخ في واد ، واجتياز لمفازة شاسعة على راحلة عرجاء ، أو كظامي أضناه العطش ، ولكن حمقه جعله يمد للماء يديه ، يظن أن ذلك يكفيه ليصل الماء إلى فيه ، فيذهب العطش ، وترتوى بالماء العذب عروقه . واسمع هذه القضية يقدمها الحكيم الخبير : ﴿لَهُ دَعْوَةُ الْحَقِّ وَالَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ لَا يَسْتَجِيبُونَ لَهُمْ بِشَيْءٍ إِلَّا كَبَاسِطَ كَفِّهِ إِلَى الْمَاءِ لِيَبْلُغَ فَاهُ وَمَا هُوَ بِبَالِغِهِ وَمَا دُعَاءُ الْكَافِرِينَ إِلَّا فِي ضَلَالٍ﴾^(١)

وسوف نبدأ بتحليل جانبي القضية لغوياً ، ومن خلال الاستعمال القرآني لها وسيتبين لنا أن الإسلام والحق بمفهوميهما اللغويين ، ومؤداهما الدينين يتهيان إلى غاية واحدة ، ويلتقيان على خصائص متوافقة .

وفي ظلال هذه القضية الكبيرة التي تعي حقيقة من أعظم حقائق الوجود ستتناول عدداً من القضايا ندعم الصلة ، أو تكشف عن أبعاد الوثاقة بين طرفي القضية ، أعني الإسلام والحق . وهذه القضايا هي :

إن الدين عند الله الإسلام ، والإسلام منهج وتاريخ
علاقة الإيمان بالإسلام .
الإسلام وعقيدة التوحيد .

(١) سورة الرعد/ ١٤ .

السنة هي المنهج الأمثل لتطبيق القرآن الكريم .
الإسلام والشريعة الهادية .
الإسلام والإيمان بالسنن الكونية .

لعل بهذا التقديم أكون قد جليت خطة هذا الكتاب ، وقدمت
للقارئ ملامح هذا البحث عسى أن يجد في رحابه ضالته التي
ينشدها من التعرف على وجوه القوة والرسوخ في الدين الذي آمن
به ، وأعطاه قلبه ووجدانه ومحياه ومماته ، وسره ونجواه ، وماله
وولده .

وصدق رب العالمين : ﴿ قُلْ إِنِّي هَدَانِي رَبِّي إِلَى صِرَاطٍ
مُسْتَقِيمٍ دِينًا قِيمًا مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴾ * قُلْ إِنْ
صَلَّاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ * لَا شَرِيكَ لَهُ
وَبِذَلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ ^(١)

وبذلك يدرك المسلم حقيقة لا مناص له من إدراكها وهي
عظمة الإسلام في مواجهة الفكر البشري ، أو ما يسمى
(بأيدلوجية) الشرق أو الغرب فستان ما بين الثرى والثريا :

الله أكبر إنَّ دين محمد وكتابه أقوى وأقوم قبلا
لا تذكروا الكتب السوالف عنده طلع الصباح فأطفاً القنديلا
اللهم اهدنا فيمن هديت .

وعافنا فيمن عافيت .

وتقبل منا عملنا ، واجعله خالصا لوجهك الكريم .

(١) سورة الأنعام من ١٦١ - ١٦٣ .

رب أغفر لى ولوالدى وللمؤمنين يوم يقوم الحساب .
والله من وراء القصد وهو حسبنا ونعم الوكيل ..

دكتور السيد رزق الطويل

الأستاذ المشارك بقسم الدراسات
العليا - كلية اللغة العربية
جامعة أم القرى - مكة المكرمة

من جوار بيت الله الحرام
غرة رجب عام ١٤٠٥ هـ
مارس عام ١٩٨٥ م

الإسلام والحق ... وجهان لحقيقة واحدة

- ١ - تحليل لغوى
- ٢ - تتبع للاستعمال القرآنى
- ٣ - مقاييس الحق فى التصور الإسلامى

﴿وَمَنْ يَبْتَغِ غَيْرَ الْإِسْلَامِ دِينًا فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي الْآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾

(سورة آل عمران الآية ٨٥)

﴿تِلْكَ آيَاتُ اللَّهِ نَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِالْحَقِّ فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَ اللَّهِ وَأَيَاتِهِ يُؤْمِنُونَ؟﴾

(سورة الجاثية الآية ٦)

الإسلام ... الطرف الأول من القضية

نعالج في هذا الباب كلمة الإسلام من الناحية اللغوية وفي إطار الاستعمال القرآني لتؤكد بكل ما نملك من حجج علمية ، وبراهين عقلية ، وشواهد واقعية الصلة الوثيقة بين الإسلام الدين الذي اختاره الله للبشر ، والحق الذي هو أمثل قيمة وأثبتها في هذا الوجود .

ولنبداً بالتحليل اللغوي لهذا الجزء من القضية .

لكمة الإسلام : في اللغة :

قال ابن فارس : السين واللام والميم أصل معظم بابه من الصحة والعافية ، قال أهل العلم : الله جل ثناؤه هو السلام لسلامته بما يلحق المخلوقين من العيب والنقص ، والفناء ، ومن بابه أيضاً : الإسلام ، وهو الانقياد ؛ لأنه يسلم من الإيذاء والامتناع والسلم : السلف ، كأنه مال أسلم ولم يمتنع عن إعطائه . ويمكن أن تكون الحجارة سميت سلاماً ؛ لأنها أبعد شيء في الأرض من الفناء لشدها وصلابتها . والسلم معروف ، وهو من السلام ؛ لأن النازل عليه يرجي له السلامة .^(١)

(١) معجم مقاييس اللغة لابن فارس ج ٣ ص ٩ - تحقيق عبد السلام هارون - الخليلي .

ويقول الزمخشري : أسلم وجهه لله أخلص له ، وأسلم السلك الجُمان بمعنى ملازمة حبات اللؤلؤ للسلك انتظمت عليه .. (١)
ويقول الفيروز بادي : أسلم انقاد وصار مسلماً ، وأسلم العذو خذله ، وأسلم أمره إلى الله أى سلمه ، واستسلم : انقاد .
والسلام من أسماء الله تعالى ، والسلامة : من العيوب والآفات .. (٢)

من تتبع المعاني اللغوية للفظ الإسلام ... في المعاجم اللغوية المختلفة ، وفيما ذكرناه مجرد مقال فحسب يتبين لنا أنها باستعمالاتها المختلفة تدور حول معاني : الإخلاص والملازمة والانقياد ، والانصياع التام لمن تسلم له ، مع البعد تماماً عما سواه ؛ ولذا تسمى العرب - كما رأينا - البعد عن الأمراض ، والتناهي عن الأدواء والآفات «سلامة» .

وإذا كان استعمال العرب لهذه الكلمة يعنى أنها تحمل هذه المعاني الكريمة ، والكبيرة فإننا نحس خطورة شأنها ، وسموقدرها ، وتميزها بما تحمله من إichاءات عرفت بها بعض ألفاظ اللسان العربى .

وعلى ضوء هذا نستطيع الإجابة عن هذا السؤال .
كلمة الإسلام علم على الدين الحق .
لماذا اختار الله تعالى كلمة «الإسلام» علماً على دينه الحق ،
الذى ارتضاه للبشرية منذ خلقها وإلى أن تقوم الساعة ؟

(١) أساس البلاغة للزمخشري مادة (سلم) .

(٢) القاموس المحيط جزء مادة «سلم» .

وقبل الإجابة عن السؤال أسوق الآيات التي تفيد اصطفاء رب
العزة لهذه الكلمة علماً على دينه الحق الذي ارتضاه لهداية البشر .

يقول الله تعالى : ﴿إِنَّ الدِّينَ عِنْدَ اللَّهِ الْإِسْلَامُ﴾ ^(١)
ويقول سبحانه : ﴿وَمَنْ يَتَّبِعْ غَيْرَ الْإِسْلَامِ دِيناً فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ
وَهُوَ فِي الْآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ ^(٢)

ويقول جل شأنه : ﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتِمَمْتُ
عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِيناً﴾ ^(٣)

كما يقول : ﴿وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ مِلَّةَ أَبِيكُمْ
إِبْرَاهِيمَ هُوَ سَمَّاكُمُ الْمُسْلِمِينَ مِنْ قَبْلُ وَفِي هَذَا﴾ ^(٤)

ثم نجيب عن التساؤل فنقول : إن هذه الكلمة تعبر في دقه
واحكام عن جوهر العقيدة ، ومناط التدين بأن يخلص المرء
عبوديته ، ويسلم وجهه وقلبه لله رب العالمين .

وفرق كبير بين أن يكون العبد مسلماً لربه ومولاه ، وأن يكون
موزع القلب بين الإله الحق ، وما أوقعه فيه هواه من آله باطلة .
ولا شك أن الإنسان بالإسلام لله يكون أحسن حالا ، وأوسع
مآلاً ، وأبعد عن المآثم والضلالات ، وبالشرك يكون شراً مكاناً
وأضل سبيلاً .

وقد ضرب الله في ذلك المثل لقوم يعلمون ، فقال سبحانه :

(١) سورة آل عمران/ ١٩ .

(٢) سورة آل عمران/ ٨٥ .

(٣) سورة المائدة/ ٣ .

(٤) سورة الحج/ ٧٨ .

﴿ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا ، رَجُلًا فِيهِ شُرَكَاءُ مُتَشَاكِسُونَ وَرَجُلًا سَلَمًا
لِرَجُلٍ هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلًا ، الْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾^(١)
وتأكيداً لما قدمناه من مكانة تعبيرية ولغوية للفظ «الاسلام» ولما
اجتهدنا فيه من محاولة استنباط الحكمة في اختياره علماً على دين الله
نحاول أن نتبع اللفظ بمشتقاته المختلفة في استعمال القرآن الكريم .
وسيمنحنا هذا المنهج - بالاضافة إلى ما سبق - عدداً من
القضايا الهامة نستطيع أن نفصل القول فيها .

لفظ الإسلام في القرآن .

ورد هذا اللفظ بمشتقاته المختلفة بالصورة الفعلية (سَلِمَ -
أَسْلَمَ - يُسَلِّمُ - استسلم) وبالصورة الاسمية (سليمٌ - سَلَمٌ - سَلَّمَ -
مسلم) في أربعين ومائة موضع من كتاب الله تعالى .
وهي في استعمالاتها المتنوعة تؤدي المعاني الآتية :
الصيغة الأولى : سلم - سلاما - سلامة .

والمعاني التي تؤديها تدور حول الخلو من الموانع والبراءة من
الآفات والأمراض ومن أمثلتها في القرآن قوله تعالى : ﴿وَقَدْ كَانُوا
يَدْعُونَ إِلَى السُّجُودِ وَهُمْ سَالِمُونَ﴾^(٢) ومعناها أن هؤلاء الذين
عجزوا عن السجود يوم القيامة ، عقاباً لهم ، دُعُوا إليه من قبل في
دنياهم ، وكانوا أصحاء ، خالين من العوارض والموانع .
وصلة هذا المعنى بالإسلام : تظهر في أن الاسلام يحتم براءة

(١) سورة الزمر/ ٢٩ .

(٢) سورة القلم/ ٤٣ .

المسلم من آفات الشرك ، ومظاهر الوثنية حتى يصح إسلامه لله رب العالمين .

وإذا كانت السلامة صفة لقلب فالمراد بها في القرآن سلامته من الشرك ، ولتعلق بغير خالقه ، ولهذا كانت مناط النجاة في الموقف العظيم كما كانت معلماً لأهل الخير والفضل من عبادة .

أما كونها مناط النجاة ، فيبدو ذلك واضحاً في قوله سبحانه : ﴿يَوْمَ لَا يَنْفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ إِلَّا مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ﴾^(١) ومن قول رسول الله ﷺ : «ألا وإن في الجسد مضغة إذا صلحت صلح الجسد كله وإذا فسدت فسد الجسد كله ، ألا وهي القلب»^(٢) .

والقلب الذي يبوأ هذه المكانة الرفيعة يراد به العقل في البيان القرآني ، كما يؤكد ذلك الشواهد المتعددة في الكتاب العزيز^(٣) وأما أنها صفة لأهل الفضل من عباد الله فقد وصف الله بها أبا الأنبياء ، النبی الأمة والإمام ، إبراهيم عليه السلام فقال : ﴿وَإِنَّ مِنْ شِيعَتِهِ لَإِبْرَاهِيمَ ، إِذْ جَاءَ رَبَّهُ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ﴾^(٤) والسلم أو السلم - بكسر السين وفتحها - يعنى السلامة من الحروب وويلاتها ، والخلود إلى الأمن ، أو المهادنة والصلح . وهذا المعنى تحمله الآيات التالية :

(١) سورة الشعراء/٨٩ .

(٢) جزء من حديث أخرجه البخارى عن المغيرة بن شعبة .

(٣) من هذه الشواهد قوله تعالى في سورة الأعراف ﴿لَهُمْ قُلُوبٌ لَا يَفْقَهُونَ بِهَا﴾ وفي سورة الحج ﴿لَهُمْ قُلُوبٌ لَا يَعْقِلُونَ بِهَا﴾ .

(٤) سورة الصافات/٨٣ - ٨٤ .

﴿وَأَنْ جَنَحُوا لِلسَّلَامِ فَاجْتَنَحْ لَهَا﴾^(١) والمراد إذا اتجهوا لها وآثروها فاتجه إليها معهم ﴿فَلَا تَهِنُوا وَتَدْعُوا إِلَى السَّلَامِ وَأَنْتُمْ الْأَعْلَوْنَ وَاللَّهُ مَعَكُمْ وَلَنْ يَتَرَكَكُمْ أَعْمَالَكُمْ﴾^(٢) والمقصود بالسَّلَام هنا الخضوع والاستسلام ؛ ولذا جاء في هذه الآية منها عنه ، أما في الأولى فكان بصورة الأمر ؛ لأن المسألة تكون عن قوة واعتزاز . ويقول تعالى : ﴿فَإِنْ اعْتَرَلُوكُمْ فَلَمْ يُقَاتِلُوكُمْ وَالْقُوا إِلَيْكُمْ أَسَلِمَ فَمَا جَعَلَ اللَّهُ لَكُمْ عَلَيْهِمْ سَبِيلًا﴾^(٣) أى تركوا القتال ، ورضوا بالصلح .

هذه الآيات التي قدمناها وفيها مشتقات تشابه في البنية اللفظية مع لفظ «الاسلام» تدعم الإيحاءات التي يحملها لفظه من أنه يحمل سلامة القلب والجسد وسلامة المجتمع من البغى والعدوان ، والتحاسد ، والتباغض ، والتقاطع ، ونكبات الحروب الظالمة . ويبدو هذا واضحاً في قوله تعالى : ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ادْخُلُوا فِي السَّلَامِ كَافَّةً وَلَا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ﴾^(٤) والسلم هو الإسلام ، لأنه يحقق الأمان والنجاة ، ولأن الإيمان وحده لا يحقق أماناً ، إنما يحقق ذلك إذا لم يلبس بظلم بأن كان مؤيداً باسلام يحقق إخلاص العقيدة لله .^(٥)

(١) سورة الأنفال/ ٦١ .

(٢) سورة محمد/ ٣٥ .

(٣) سورة النساء/ ٩٠ .

(٤) سورة البقرة/ ٢٠٨ .

(٥) دليل ذلك قوله تعالى في سورة الأنعام ﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ أُولَئِكَ لَهُمُ الْأَمْنُ وَهُمْ مُهْتَدُونَ﴾ الآية ٨٢ راجع تفسير القرطبي وابن كثير للآية .

وهذا نستطيع أن نصل إلى نتيجة حاسمة : السلام مع الإسلام لا يفترقان ، سلام المسلم مع أخيه الذي رفع شعار الإسلام ، وسلامه مع كل إنسان لم يصدر عنه بغى ولا عدوان ، ولكون السلام شعار المسلمين لا ينبغي أن نرتاب فيمن رفع لواءه ، ونطق بكلماته ، يقول تعالى : ﴿وَلَا تَقُولُوا لِمَنْ أَلْقَى إِلَيْكُمُ السَّلَامَ لَسْتَ مُؤْمِنًا﴾ (١)

وهو حق لكل مؤمن ينبغي أن يسمعه تحية من أخيه المؤمن ، تدعم باستمرار ما بين المسلمين من روابط الحب والمودة ، يقول تعالى : ﴿وَإِذَا جَاءَكَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِآيَاتِنَا فَقُلْ سَلَامٌ عَلَيْكُمْ كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَى نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ﴾ (٢) ﴿وَلَقَدْ جَاءَتْ رُسُلُنَا إِبْرَاهِيمَ بِالْبَشْرَى قَالُوا سَلَامًا﴾ (٣)

وبالسلام يواجه المؤمن نزوات الضالين والجاهلين ، وما يدفعهم إليه طيشهم من لغو الكلام وباطله ، يقول تعالى : ﴿وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الْجَاهِلُونَ قَالُوا سَلَامًا﴾ (٤)

وقد منح الله عباده المرسلين سلاماً هم له أهل ، وهم به جديرون ، فقال سبحانه : ﴿وَسَلَامٌ عَلَى الْمُرْسَلِينَ﴾ (٥) وقال تعالى في شأن عيسى عليه السلام ﴿وَالسَّلَامُ عَلَى يَوْمٍ وُلِدْتُ وَيَوْمَ

(١) سورة النساء/ ٩٤ .

(٢) سورة الأنعام/ ٥٤ .

(٣) سورة هود/ ٦٩ .

(٤) سورة الفرقان/ ٦٣ .

(٥) سورة الصافات/ ١٨١ .

أَمُوتُ وَيَوْمَ أُبْعَثُ حَيًّا ﴿١﴾

الصيغة الثانية :

أُسْلِمَ - يُسْلِمُ - إسلام بزيادة الهمزة عن الصيغة الأولى وصور هذه الصيغة ، منها ما هو على صورة الفعل ، ومنها ما هو على صورة الاسم .

(١) والتعبير الفعلي في هذه الصيغة (أسلم - يسلم) يؤدي المعاني التالية .

١ - الإخلاص لله :

ومن شواهد قوله تعالى : ﴿يَلَىٰ مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَلَهُ أَجْرُهُ عِنْدَ رَبِّهِ﴾ (٢) والمعنى اتجه بعبوديته لله وحده . وقوله تعالى : ﴿يَحْكُمُ بِهَا النَّبِيُّونَ الَّذِينَ أَسْلَمُوا لِلَّذِينَ هَادُوا﴾ (٣)

ووصف الأنبياء بالإسلام هنا يراد به التعبير عن سُمُو إخلاصهم والإخلاص جوهر العقيدة ، وللأنبياء المثل الأعلى فيه ، وفي هذا من ناحية أخرى شهادة بفضل الإخلاص ، وتنويه بقدره . وقوله تعالى : ﴿وَأُمِرْتُ أَنْ أُسْلِمَ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ (٤) أى

(١) سورة مريم/ ٣٣ .

(٢) سورة البقرة/ ١١٢ .

(٣) سورة المائدة/ ٤٤ .

(٤) سورة غافر/ ٦٦ .

أخلص العبودية له .

وقوله تعالى : ﴿كَذَلِكَ يَتِمُّ نِعْمَتُهُ عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ تُسْلِمُونَ﴾ (١)
أى تخلصون . ومن هنا ندرك أن الإخلاص غاية كريمة يهتف ربنا
لعباده أسباب الوصول إليها .

وقوله تعالى : ﴿قُلْ إِنْ هَدَىٰ اللَّهُ هُوَ الْهُدَىٰ وَأَمْرًا لِّسُلَيْمٍ لِّرَبِّ
الْعَالَمِينَ﴾ (٢) أى لتتجه إليه وحده فى كل أمورنا ، مخلصين له
عبادتنا .

وقوله تعالى : ﴿وَمَنْ يُسْلِمْ وَجْهَهُ إِلَى اللَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَقَدْ
اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَىٰ وَإِلَى اللَّهِ عَاقِبَةُ الْأُمُورِ﴾ (٣) .
والمراد يتجه بمظاهر العبودية من ذل ، وخوف ، وحب ،
ودعاء ، ورجاء إلى الله تعالى .

ومما يشهد بقدر الاخلاص أعنى إسلام الوجه لله أن الله تعالى
وصف بهذه الصفة أنبياءه ورسله كما أسلفنا - وأمرهم بها ، وبخاصة
هذا الأمر الموجه إلى النبى الأمة إبراهيم عليه السلام ؛ إذ يقول
تعالى : ﴿إِذْ قَالَ لَهُ رَبُّهُ أَسْلِمْ قَالَ أَسْلَمْتُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ (٤)
كما أمر بها عباده المؤمنين فقال : ﴿فَالِهَكُمْ إِلَهُ وَاحِدٌ فَلَهُ أَسْلِمُوا
وَبَشِّرِ الْمُخْبِتِينَ﴾ (٥)

ونلاحظ فى بعض الآيات أن الإسلام يقترب بالوجه ، مع أن

(١) سورة النحل/٨١ .

(٢) سورة الأنعام/٧١ .

(٣) سورة لقمان/٢٢ .

(٤) سورة البقرة/١٣١ .

(٥) سورة الحج/٣٤ .

مناطه القلب ، وذلك لأن الوجه تحدث به المواجهة ، وهو الصفحة التى تنعكس عليها التعبيرات النفسية للإنسان ، فتحس من قسما ت الوجه ما عليه صاحبه من أمن وطمأنينة ، أو خوف وقلق ، وترى عليه ملامح الرضا ، وعلامات الأسى ؛ ولهذا نهى النبى الكريم عن ضرب الوجه ، كما كانت عقوبة الكافر الذى رفض إخلاص العبادة لله أن يهان هذا الهوان عندما يودع الدنيا ، وستقبل الأخرى ، يقول تعالى : ﴿ وَلَوْ تَرَىٰ إِذِ يَتَوَفَّى الَّذِينَ كَفَرُوا الْمَلَائِكَةُ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَارَهُمْ وَذُوقُوا عَذَابَ الْحَرِيقِ ﴾^(١) ونلاحظ مرة أخرى أن الأمر بالاسلام فى هذه الآيات يتجه للأنبياء ، أو للعباد المؤمنين ، وهذا يساعد فى تحديد المراد بها ، وهو أن يتوج إيمان هؤلاء الناس بالإخلاص التام لله ، وتوثيق الصلة به . وملحظ ثالث هو أن الإسلام بمعنى الإخلاص قد يأتى شرطاً ، جوابه الأجر أو التنويه بالفضل .

٢ - يأتى بمعنى الدخول فى الاسلام

ومن شواهدة قوله تعالى : ﴿ وَقُلْ لِلَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ وَالْأُمِّيِّينَ ءَاسَلْتُمْ فَإِنْ أَسْلَمُوا فَقَدِ اهْتَدَوْا وَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلَاغُ ﴾^(٢) ومعنى أسلمتم ؟ أدخلتم فى الاسلام الذى هو الدين الحق ،

(١) سورة الأنفال/٥٠ ومن الآيات التى تحدثت عن إسلام الوجه قوله تعالى : ﴿ فَإِنْ حَاجُّوكَ فَقُلْ أَسْلَمْتُ وَجْهِيَ لِلَّهِ وَمَنِ اتَّبَعَنِ ﴾ آل عمران/٢٠ وفى المعنى نفسه قوله تعالى فى سورة الروم ﴿ فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا ﴾ .

(٢) سورة آل عمران/٢٠ .

والمنهج الكامل لهداية البشر؟ فإن دخلوا في الاسلام الحق الذى جاء به محمد عليه الصلاة والسلام كانوا من المهتدين ، وإن أبوا وأصروا على تحريفهم للإسلام الذى جاء به موسى ، والذى سموه اليهودية وللإسلام الذى جاء به عيسى ، والذى سموه نصرانية ، فهم يريدون العنت والمشاقة وسيحملك الله يا محمد من كيدهم ، ولست مسئولا عن شيء سوى تبليغهم .

وقوله تعالى : ﴿وَأَنَا مِمَّا الْمُسْلِمُونَ وَمِمَّا الْقَاسِطُونَ فَمَنْ أَسْلَمَ فَأُولَئِكَ تَحَرَّوْا رَشَدًا﴾^(١)

فكلمة (أسلم) هنا لا يعنى بها الإخلاص وحده ، كما أشرنا فى المعنى الأول ، وإنما المراد بها الرضا بمنهج الرحمن ، الذى جاء به محمد عليه الصلاة والسلام ، والامتثال له ، بدليل مقابله بالقياسطين ؛ إذ الآية تشير إلى أن الجن منهم المسلم وغيره فالمعنى هنا أكثر عموماً من الأول .

٣- الإذعان والانقياد :

ومن شواهد قوله تعالى : ﴿أَفَغَيْرَ دِينِ اللَّهِ يَبْغُونَ وَلَهُ أَسْلَمَ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا﴾^(٢) فإسلام الوجود لله يعنى خضوعه له ، وانقياده لحكمه ، وسيره تبعاً لقوانينه الثابتة التى وضعها له .

ومنها ما قاله ربنا تبارك وتعالى فى شأن ابتلائه لنبيه إبراهيم بالأمر

(١) سورة الجن/١٤ .

(٢) سورة آل عمران/٨٣ .

بذبح وحيدہ اسماعیل ، وانصباہما للمحنۃ ، وإذعانہما للأمر : ﴿ فَلَمَّا أَسْلَمَا وَلِلَّهِ لِّلْجَبِينِ ﴾ ^(١) أى أنقاد الأمر اللہ واذعنا للابتلاء ، فأسلم الأب فلذۃ کبدہ ، وأسلم الابن نفسه ، وبذل النفس من أعلى مراتب التضحية والفداء .

وهناك فئات من البشر لا تکتمل فیہم عناصر الإسلام الحق ، فہم یعرفونہ خضوعاً وانقياداً ، لكنہم لا یعرفونہ إخلاصاً وثباتاً ، فقال تعالى فی شأنہم : ﴿ قَالَتِ الْأَعْرَابُ أَمَّا قُلٌّ لِّمَ تُوْمِنُوْا وَلٰكِنْ قُوْلُوْا اسْلَمْنَا وَلَمَّا يَدْخُلِ الْإِيْمَانُ فِيْ قُلُوْبِكُمْ ﴾ ^(٢) أى قولوا : انقدنا لہ ورضينا سمتا ومظہرا .

ومنها قوله تعالى فی شأن من تخلفوا عن النبی ﷺ حين خرج إلى مكة معتمراً بعد الرويا فی ذی القعدة من السنة السادسة للهجرة ، ومنعته قريش عند الحديبية : ﴿ قُلْ لِّلْمُخَلَّفِيْنَ مِنَ الْأَعْرَابِ سِتْرُكُمْ إِلَى يَوْمِ الْبَاسِ شَدِيْدٌ تَقَاتِلُوْنَهُمْ أَوْ يُسَلِّمُوْنَ ﴾ ^(٣) .. فی هذه الآية أمر للنبي ﷺ بأن يبلغ من تخلفوا عن الحديبية وعوقبوا بسبب تخلفهم بأن حرموا من الخروج إلى خير ، وأخذ حظ من غنائمها ، وغضبوا بسبب هذا الحرمان ، ومضمون البلاغ وعته هذه الآية الكريمة ، وهو أن هؤلاء الغاضبين مدعوون للدخول فی حرب مقبلة مع قوم أشداء ، الروم أو

(١) سورة الصافات/ ١٠٣ .

(٢) سورة الحجرات/ ١٤ .

(٣) سورة الفتح/ ٢٦ .

الفرس^(١) والختيار فيها بين أمرين : إما القتال وإما خضوع الأعداء وانقيادهم لدولة الإسلام . فإذا استجاب هؤلاء الغاضبون للدعوة وجاهدوا هؤلاء الأعداء الأشداء أجزل الله مثوبتهم ، وإن أعرضوا ضاعف لهم العذاب .

والشاهد استخدام لفظ (يسلمون) في الخضوع والانقياد . وهذه المعاني الثلاثة التي تفهم من الصيغة الفعلية لها صلة وثيقة بالإسلام الحق الذي هو علم دين الله تعالى ؛ إذ لا بد أن يتوافر فيه هذه المعاني كلها .

فلا بد من الدخول فيه بحمل الشعار ، وأكتساب الاسم .

ولا بد من الانقياد والخضوع لأحكامه وتوجيهاته .

ولا بد من إخلاص العبودية لله وحده .

فإن وقفنا عند حد المعنى الأول فهو النفاق الذي اتجه إليه الأعراب الذي تحدثت عنه آية الحجرات .

وإن وقفنا عند حد المعنى الثاني بأن حملنا شعار الإسلام ،

وخضعنا له ، ولم نخلص فهو الشرك الذي يحبط العمل ويفسده .

(١) في تفسير الكشاف : المقصود بالقوم الذين هم أولو بأس شديد بنو حنيفة قوم مسيلمة ، وأهل الردة اللذين حاربهم أبو بكر رضى الله عنه ؛ لأن مشركي العرب والمتردين هم اللذين لا يقبل منهم إلا الإسلام أو السيف عند أبي حنيفة ، ومن عداهم من مشركي العجم ، والمجوس وأهل الكتاب تقبل منهم الجزية ، وعند الشافعي لا تقبل الجزية إلا من أهل الكتاب والمجوس دون مشركي العجم والعرب ؛ ورأى أبي حنيفة أدنى الصواب وأقرب إلى روح الإسلام الذي يؤكد أنه ﴿ لا إكراه في الدين ﴾ وأما مشركو العرب فهم أمة البلاغ ، والقرآن الآية والبيئة الدالة على الرسالة . جاء بلسانهم . فليس لهم مع الكفر حجة « وراجع تفسير القرطبي » .

وإن التزمنا بالثلاث جميعاً فهو الإسلام الحق الذى دعانا ربنا إليه .

(ب) التعبير الاسمى (إسلام - أو مسلم)

وهو يؤدى المعانى التالية :

١ - الاسلام .. علم على الدين الحق

وقد ورد بهذه الصورة ، وبهذا المعنى فى الآيات التالية يقول الله تعالى : ﴿إِنَّ الدِّينَ عِنْدَ اللَّهِ الْإِسْلَامُ﴾^(١)

ويقول تعالى : ﴿وَمَنْ يَبْتَغِ غَيْرَ الْإِسْلَامِ دِينًا فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ﴾^(٢)

والآيتان معاً تؤكدان أن الله تعالى ليس له دين سوى الإسلام ، وأن أى تدين على غير منهجه مرفوض ، وفيه خسارة على صاحبه .

ويقول تعالى : ﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتِمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا﴾^(٣) وهذه الآية تشير إلى اختيار هذا الاسم علماً على دين الله تعالى .

ويقول تعالى : ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَهُوَ يُدْعَى إِلَى الْإِسْلَامِ﴾^(٤)

هذه الآية تبين ضخامة المسؤولية التى يتحملها كل منتسب

(١) سورة آل عمران/ ١٩ .

(٢) سورة آل عمران/ ٨٥ .

(٣) سورة المائدة/ ٣ .

(٤) سورة الصف/ ٧ .

للإسلام ، ومدى الظلم والبغى الذى يتورط فيه عندما ينحرف عن هدايه بافتراء الكذب على الله واختلاق ألوان من العقائد والأخلاق ، والعبادات لم يأذن بها الله .

ويقول تعالى : ﴿فَمَنْ يُرِدِ اللَّهُ أَنْ يَهْدِيَهُ يَشْرَحْ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ﴾^(١)

كما يقول تعالى : ﴿أَفَمَنْ شَرَحَ اللَّهُ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ فَهُوَ عَلَى نُورٍ مِنْ رَبِّهِ﴾^(٢)

فى هاتين الآيتين أسلوبا شرط : أولهما يقرر أن الهداية الحققة فى أن يُشْرَحَ الصدر للإسلام ، وأن يمتلئ القلب أمنا ، وطمأنينة ، وثقة . وثانيها يعطى نتيجة أبعد ، ومدى أكبر ؛ إذ يبين أن الصدر الذى شرح للإسلام يتيسر لصاحبه هداية من الله ، يمنحها إياه ، فيستبين بها معالم الطريق الحق فى هذه الحياة .

والآيات فى مجموعها تؤكد عظمة الإسلام ، اسما ، ومسمى ، أو علما ، ومضموناً كما تؤكد قيمته داخل الإنسان وخارجه .

٢ - «المسلم»

وهو الذى يحمل شعار الإسلام ، ويلتزم منهجه ، ويطلب من الله أن يشته على طريقه ، ويتوفاه عليه .

والذين وصفوا بهذا الوصف فى القرآن ، مفرداً أو مثنى ، أو مجموعاً ، هم من خيار الناس ، وأهل الفضل ، وذوى المنزلة

(١) سورة الأنعام/ ١٢٥ .

(٢) سورة الزمر/ ٢٢ .

الرفيعة في الدين .

ومن شواهد قوله تعالى : ﴿إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَى لَكُمُ الدِّينَ فَلَا تُمَوِّنُوا إِلَّا وَآتَمُّ مُسْلِمُونَ﴾ (١)

وقوله تعالى : ﴿رَبَّنَا وَاجْعَلْنَا مُسْلِمِينَ لَكَ وَمِنْ ذُرِّيَّتِنَا أُمَّةً مُسْلِمَةً لَكَ﴾ (٢)

وقوله تعالى : ﴿رَبَّنَا أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا وَتَوَقَّنَا مُسْلِمِينَ﴾ (٣)
وقوله تعالى : ﴿قُلْ إِنْ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ لَا شَرِيكَ لَهُ وَبِذَلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ﴾ (٤)

وقوله تعالى : ﴿عَسَى رَبُّهُ إِنْ طَلَّقَكُنَّ أَنْ يُبَدِّلَهُ أَزْوَاجًا خَيْرًا مِنْكَ مُسْلِمَاتٍ مُؤْمِنَاتٍ ... الْآيَةَ﴾ (٥)

وآخر المطاف :

وبعد هذه الجولة في رحاب الكتاب العزيز ، باحثين عن معنى

(١) البقرة/١٣٢ . وقد ورد لفظ (مسلمون) بهذا المعنى في هذه المواضع : سورة البقرة/١٣٣ ، ١٣٦ ، وآل عمران/٥٢ ، ٦٤ ، ٨٠ ، ٨٤ ، ١٠٢ ، والمائدة/١١١ ، وهود/١٤ ، والأنبياء/١٠٨ ، والنمل/٨١ ، والعنكبوت/٤٦ ، والروم/٥٣ .

(٢) سورة البقرة/١٢٨ .

(٣) سورة الأعراف/١٢٦ وورد لفظ مسلمين في يونس/٨٤ والحجر/٢ ، والقصاص/٥٣ ، والزخرف/٦٩ .

(٤) سورة الأنعام/١٦٣ وورد لفظ «مسلمين» في يونس/٧٢ ، ٩٠ . والنحل/٨٩ ، ١٠٢ . والحج/٩٨ والنمل/٩١ ، والأحزاب/٣٥ ، والزمر/١٢ ، وفصلت/٣٣ ، والأحقاف/١٥ . والذاريات/٣٦ . والقلم/٣٥ .

(٥) سورة التحريم/٥ .

الإسلام في صورته الانشقاقية المتباينة نستطيع أن نقول : إن هذه المادة تجمع حولها هذه المعاني الكبيرة .

منها معنى السلامة والسلام ، فالمرء في ظلال الإسلام ينعم بهما ؛ إذ هو بعيد عن مساوى الطباع ، ومنكرات الأخلاق ، ومفاسد المجتمعات ، وآثام البغى ، وأضرار الشقاق والحروب . فيها الخضوع لله والانقياد له ، والاستسلام لعظمته وجبروته . وفيها إخلاص الوجه ، والقلب ، والجوارح ، وما وراءها من مظاهر العبودية لله وحده والمسلم الحق يجمع ذلك كله .

كما يتأكد بهذا القضية التي أسلفناها ، وهى :

لماذا اختار الله الإسلام : علماً لدينه الحق ؟

وبقى علينا أن نتنقل لدراسة الطرف الآخر للقضية وهو

«الحق» ..

الطرف الثانى للقضية ... كلمة الحق موقعها اللغوى ، واستعمالها القرآنى

المعانى اللغوية للفظ «الحق»

الحق خلاف الباطل ، والحق من أسماء الله تعالى أو من صفاته ، ويطلق على القرآن والعدل ، والإسلام ، والمال ، نقول : أخذ حقه أى ماله ، والمملك ، والصدق ، مثل : لقد قلت الحق ، والأمر المقضى ، والموت ، والحزم ، ويطلق على الموجود الثابت . وقول العرب عن الإبل : عند حق لقاحها ، ويكسر ، أى حين ثبت ذلك فيها ، وسقط على حاق رأسه أى وسطه .

والحاقة : النازلة الثابتة

وحق الشيء يحق وجب ، وأحققت الشيء أوجبته ، واستحققته : استوجبته ، وتحقق عنده الخبر أى صح ، وحققته قوله تحقيقاً أى صدقت ، وحقق الأمر واحققته أى تحققته ، وصرت منه على يقين .

وهو حقيق به أى جدير ، ومنه قوله تعالى : ﴿حَقِيقٌ عَلَى أَنْ لَا أَقُولَ عَلَى اللَّهِ إِلَّا الْحَقَّ﴾^(١) ، والحقيقة فى الأمر أى الحق فيه ،

(١) سورة الأعراف/جزء من الآية/١٠٥ .

والحقيقة أيضاً ، ما يحق عليك أن تحميه من مال أو عرض ، أو ولد .

والكلام المحقق أى الرصين ، والثياب المحققة أى المحكم نسجها»^(١)

عندما نتدبر هذه المعانى التى ذكرتها المعاجم اللغوية للفظ الحق نجد أنها برغم اختلافها وتباينها متقاربة ومتآخية ، كما نستطيع أن نستخلص منها أموراً تُعدُّ خصائص للفظ الحق بمعناه اللغوى . فالحق يعنى الثبات والاستقرار فلا يتطرق إليه شك أو ارتياب . والحق يعنى الصدق لمطابقته للواقع ، وبتلافيه مع العقل الصحيح .

والحق يعنى الواجب الذى لا يصح التخلي عنه .

والحق يعنى أن له الغلبة والانتصار .

والحق يعنى الأمر الوسط ، فلا غلو فيه ولا تطرف .

والحق يعنى لزوم حمايته والدفاع عنه .

مقاييس الحق

الحق واحد من مبادئ ثلاثة تعشقها البشر منذ وجدوا ، وسعى إليها الإنسان منذ خلقه الله سعياً حثيثاً ، ومن أجلها ضرب فى بيداء الفكر ، وأوغل فى متاهات الفلسفة علّه يصل إليها ، أو يعيش فى ظلالها .

هذه المبادئ التى استهوت الإنسان منذ قديم هى : الحق

(١) راجع الصحاح للجوهرى . والقاموس المحيط للفيروزبَادى (مادة حق) .

والخير ، والجمال .

وبحث الانسان عنها في إطار فكره البشرى . ومن دائرة الحس
الإنسانى ، بعيداً عن هداية الدين الحق الذى اختاره الله للبشرية ،
أو في ظلال دين ابتدعه من هواه ؛ لذا رأينا الإنسانية في تاريخها
الطويل ، وعلى كثرة بحثها ، لم تصل للإدراك الصحيح لهذه القيم ،
ولم تنعم بظلمها ، بل لم تستطع الاتفاق على مقاييس ثابتة لها .
ومن هنا لا نجد في دائرة الفلسفة الانسانية مقاييس محددة أو
ثابتة للحق ، ومن هنا تراه متعدداً ، وذا وجوه .

فالذى يراه جماعة من الناس حقاً يراه آخرون باطلاً ، وذلك
لأن الحق يتطلب درجة عالية من التجرد التام من الأهواء ،
والنوازع الإنسانية ، ونتيجة لهذا نستطيع أن نقول : إن الحق
بشباته ، ورسوخه لا يمكن أن نأخذه من الفكر البشرى وحده ^(١) ،
أى بعيداً عن هداية الدين الحق .. الإسلام .

والمقاييس البشرية للحق مرفوضة تماماً ، إنما هي تدنو من
الحق ، أو تبعد عنه بقدر تمسك الإنسان بأهوائه ، أو تجرده منها .

كلمة الحق في القرآن

فإذا أردنا الحق معنى ثابتاً ، لا نختلف عليه ، وإذا أردنا
التعرف على حقائق الوجود لا بد لنا من تتبع كلمة الحق في

(١) مثال ذلك تصور بنى إسرائيل في مكابرتهم ولجاجتهم وكثرة تساؤلهم أن ذلك هو
الحق ، فعندما ضيقوا على أنفسهم في السؤال عن البقرة التى طلب منهم ذبحها .
ووصل الأمر إلى قمة التضيق قالوا لموسى كما أخبرنا القرآن الكريم : ﴿ قالوا : الآن
جئت بالحق ﴾ .

القرآن الكريم وعلى ضوء هذا نستطيع أن نتبين مقاييسه ، وأن نستوضح معالمه .

وليس هذا منهجاً عاطفياً ، أضعه تحت دافع العقيدة الإسلامية ، والإيمان الصحيح بالله ، واليقين الكامل بكتابه ، والتماس القدوة من سنة نبيه الكريم ، ولكنه يستند مع ذلك إلى قواعد عقلية تكاد تتوون بهية ، أو ضرورية . هي أن الله تعالى ، رب هذا الوجود ، الذى اتفق على ربوبيته جميع البشر ، وإن اختلفوا فى صفاته ، واضطربوا فى ألوهيته ، هو الحق ، وهو مصدر الحق ، ولن نجد للحق مصدراً غيره .

يقول سبحانه : ﴿ذَلِكَ بَأْنِ اللَّهِ هُوَ الْحَقُّ وَأَنْ مَا يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ هُوَ الْبَاطِلُ وَأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ﴾^(١)

بهذه العبارة الحاصرة يؤكد القرآن الكريم أن الله وحده هو الحق ، وكل تأليه ، أو عبودية لغيره باطل وضلال .

وكتاب الله الذى سنقيم دراستنا للحق فى رحابه حق ، ومن أصدق من الله قبلاً ؟ يقول تبارك وتعالى : ﴿وَبِالْحَقِّ أَنْزَلْنَاهُ وَبِالْحَقِّ نَزَلَ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا مُبَشِّرًا وَنَذِيرًا﴾^(٢) ويقول تعالى : ﴿وَأَنَّهُ لَكِتَابٌ عَزِيزٌ لَا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ تَنْزِيلٌ مِنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ﴾^(٣)

هذه قضية سنتناولها بعون الله وحده بمزيد من البحث ، وعليها

(١) سورة الحج/ ٦٢ .

(٢) سورة الإسراء/ ١٠٥ .

(٣) سورة فصلت/ ٤٢ .

الآن أن نقوم بسياحة في رحاب الكتاب العزيز ؛ لتبين مواقع الحق فيه ، وما قدمه للبشرية من حقائق خالدة .

مادة «الحق» في القرآن :

وردت مادة «الحق» في القرآن على الصور اللفظية الآتية :
 حَقٌّ - حَقَّتْ - حَقَّتْ - يَحِقُّ - استحق - استحقا - حَقٌّ -
 الحق - حقاً - حَقَّةً - أَحَقُّ - حَقِيقٌ - الحاقة .

وقد استخدمت هذه الصور اللفظية ، والاشتقاقية لمادة الحق في سبعة وثمانين ومائتي موضع من كتاب رب العالمين .

في صورة الفعل :

تكون بمعنى الوجود ، أو الثبات والإثبات ، أو الإظهار مثل
 قوله تعالى : ﴿فَرِيقًا هَدَىٰ وَفَرِيقًا حَقَّ عَلَيْهِمُ الضَّلَالَةُ﴾ ^(١) أى
 وجبت ، واستحقوها بسوء فعلهم وقوله تعالى : ﴿كَذَلِكَ حَقَّتْ
 كَلِمَتُ رَبِّكَ عَلَى الَّذِينَ فَسَقُوا﴾ ^(٢) بمعنى وجب عليهم العذاب .
 وقوله تعالى : ﴿وَيَحِقُّ الْقَوْلُ عَلَى الْكَافِرِينَ﴾ ^(٣)
 وقوله تعالى : ﴿وَأَذِنْتُ لِرَبِّيَّ وَحَقَّتْ﴾ ^(٤) مأخوذة من حَقَّ

(١) سورة الأعراف/٣٠ ، والإسراء/١٦ ، والحج/١٨ ، والقصاص/٦٣ ، وجاءت كذلك في السجدة/١٣ ، ويس/٧ ، والصافات/٣١ ، وص/١٤ ، والزمر/١٩ ، وفصلت/١٥ ، والأحقاف/١٨ ، وق/١٤ ، وهي في هذه المواضع كلها من «حق» بمعنى ثبت ووجب .

(٢) وردت الآية في سورة يونس/٣٣ . ولفظ «حَقَّتْ» جاء في موضع آخر من سورة يونس ، وفي النحل ، والزمر . وغافر .

(٣) سورة يس/٧٠ .

(٤) سورة الانشقاق/٢ .

الأمري بـ (بضم الحاء والقاف المشددة) أثبتته . ونقول : حَقَّ الأمر (بفتح الحاء) أى ثبت له .

ومعنى الآية : وكان حقاً ثابتاً أن تنقاد الأرض والسماء لأمر الله تعالى يوم القيامة .

وقوله تعالى : ﴿وَيُرِيدُ اللَّهُ أَنْ يُحِقَّ الْحَقَّ بِكَلِمَاتِهِ وَيَقْطَعَ دَابِرَ الْكَافِرِينَ﴾^(١) مأخوذ من أحق الأمر بمعنى أظهره وأيده .

وفى صورة المصدر :

وإذا اتخذت هذه المادة صورة المصدر ، مجرداً من ال ، مثل «حقاً» كانت أيضاً بمعنى الثبات والوجوب .

مثال ذلك قوله تعالى : ﴿الْوَصِيَّةُ لِلْأَدِيبِ وَالْأَقْرَبِينَ بِالْمَعْرُوفِ حَقًّا عَلَى الْمُتَّقِينَ﴾^(٢) وأما قوله تعالى : ﴿وَأَتُوا حَقَّهُ يَوْمَ حَصَادِهِ﴾^(٣) فمعناها ادفعوا ما وجب على الزروع والثمار من زكاة ؛ إذ هى حقها الواجب عليها ، والثابت لها .

وتفيد المعنى نفسه إذا جاءت على وزن «فَعِيل» كقوله تعالى : ﴿حَقِيقٌ عَلَى أَنْ لَا أَقُولَ عَلَى اللَّهِ إِلَّا الْحَقَّ﴾^(٤) أى واجب على . وكذلك إذا جاء على صورة التفضيل (أحق) مثل قوله تعالى :

(١) وردت الآية فى سورة الأنفال/ ٧ . ولفظ (بحق) بضم الباء ورد فى موضع آخر من سورة الأنفال وكذا فى يونس والشورى .

(٢) سورة البقرة/ ١٨٠ . وورد اللفظ فى السور الآتية : يونس والروم . والنساء والتوبة والنحل والكهف ولقيان .

(٣) سورة الأنعام/ ١٤١ .

(٤) سورة الأعراف/ ١٠٥ .

﴿وَيُعَوِّلُهُنَّ أَحَقُّ بِرَدِّهِنَّ فِي ذَلِكَ إِنْ أَرَادُوا إِصْلَاحًا﴾^(١) أى أن الأزواج هم أصحاب هذا الحق الذى وجب لهم وحدهم .
 وإذا جاءت على صورة إسم الفاعل (الحاقة) أفادت معنى الثبات والوجوب كذلك ، مثل قوله تعالى : ﴿الْحَاقَّةُ مَا الْحَاقَّةُ وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْحَاقَّةُ﴾^(٢) والمراد بها يوم القيامة ؛ لأنه ثابت ، وواجب ، وآتٍ لا ريب منه .

لفظ (الحق) فى القرآن :

لفظ الحق كثير الورد فى الكتاب الكريم ، والمراد منه على سبيل التعمين يختلف باختلاف المقام الذى وردت فيه الآيات ، ومعناه العام لا يخلو من معنى الثبوت ، والمطابقة للواقع^(٣)
 وقد استخدم لفظ الحق فى معان كثيرة ، نذكرها فيما يلى ، وسنرى أنها تتناول حقائق الوجود ، وأركان الاعتقاد ، وأصول القيم ، وهى كلها داخلة فى إطار الإسلام عقيدة وشرعة ، مما يحقق الالتقاء القويم بين طرفى القضية ، كما ذكرنا وهذه المعانى هى :
 ١ - الحق هو الله ، لأن وجوده ثابت وواجب ، فهو الأول والآخر .

٢ - الحق هو الكتاب المنزل ، صافيا نقيا بما فيه من حقائق العقيدة والشرعة .

(١) سورة البقرة/ ٢٢٨ .

(٢) سورة الحاقة/ ١ .

(٣) راجع المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم - إصدار مجمع اللغة العربية بالقاهرة .

- ٣ - الحق هو يوم القيامة ، وما يسبقه من موت ، وما يقع فيه من مشاهد مختلفة .
- ٤ - الحق كل أمر واقع لا يتخلف .
- ٥ - الحق ما وجب على الغير .
- ٦ - الحق هو العلم الصحيح .
- ٧ - الحق هو العدل .
- ٨ - الحق هو الصدق .
- ٩ - الحق هو الحكمة .
- ١٠ - الحق هو التمام والاكتمال .

١ - الله هو الحق :

هذه هي القضية الأولى من قضايا «الحق» في القرآن .
وهي الحقيقة الأولى في الوجود ، وهي أثبت الحقائق ،
وأعلاها شأنًا ، بل هي حقيقة الحقيقة ، ومنها وحدها ينبعث كل
حق ، وحقيقة هذه الحقيقة هي الله ، رب الوجود ، وخالق كل
موجود .

أذكر في هذا الصدد كلمات نثرية لأمير الشعراء أحمد شوقي
تحت عنوان «الحقيقة الواحدة» يقول فيها : «يا منابع الملاحظة ،
ومشايع العصبية الجاحدة ، ومنكر الحقيقة الواحدة ، ما للأعمى
والمرأة ؟ وما للمقعّد والمرقاة ؟ ! وما لك والبحث عن الله ؟ !»^(١)
لقد سمى نفسه بالحق ، ووصف نفسه بأنه حق ؛ لأن وجوده

(١) أسواق الذهب - أحمد شوقي - المقالة الأولى .

حق وحكمه حق ، وشريعته حق ، وكتبه حق ، ورسله حق .
 يقول تعالى في كتابه العزيز : ﴿ثُمَّ رَدُّوْا إِلَى اللَّهِ مَوْلَاهُمْ
 الْحَقُّ﴾ ^(١) أى الثابت الذى لا يتغير ، ولا ينبغي أن يرتاب أحد فى
 وجوده .

ويقول تعالى : ﴿وَلَا يَدِينُونَ دِينَ الْحَقِّ﴾ ^(٢) أى لا يتبعون دين
 الله الذى جاء به محمد عليه الصلاة والسلام ، أو يكون من إضافة
 الموصوف إلى الصفة أى لا يتبعون الدين الحق .

ووصف الله تعالى نفسه بالحق فقال : ﴿فَذَلِكُمْ اللَّهُ رَبُّكُمُ
 الْحَقُّ﴾ ^(٣)

وقال : ﴿هُنَالِكَ الْوَلَايَةُ لِلَّهِ الْحَقِّ﴾ ^(٤) بكسر القاف ، صفة
 لله تعالى والمقصود بالوصف بالحق فى الآيتين أن الله تبارك وتعالى
 ثابت الوجود لا يتغير ، وقرئت الآية الثانية ^(٥) برفع الحق ، فيكون
 صفة للولاية ، ويكون المعنى : الولاية الصحيحة الثابتة هى لله دون
 سواه :

ويقول سبحانه : ﴿فَتَعَالَى اللَّهُ الْمَلِكُ الْحَقُّ﴾ ^(٦) ﴿ذَلِكَ بِأَنَّ

(١) سورة الأنعام/٦٢ وسورة يونس/٣٠ .

(٢) سورة التوبة/٢٩ - ٣٣ .

(٣) سورة يونس/٣٢ .

(٤) سورة الكهف/٤٤ .

(٥) قرأها أبو عمرو والكسائى برفع القاف . والباقيون بالكسر - راجع النشر ج ٢
 ص ٣١١ .

(٦) سورة طه/١١٤ .

اللَّهُ هُوَ الْحَقُّ» (١) «وَيَعْلَمُونَ أَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ الْمُبِينُ» (٢)
والوصف بالحق في هذه الآيات لا يكاد يتجاوز المقصود منه في
الآيات السابقة ، غير أن هناك منها ما يحمل معنى الحصر عندما نرى
ضمير الفصل يفصل بين لفظ الجلالة ، وصفة الحق ، فيكون المعنى
أن الثبات والدوام ، واستحالة التغير والتحول مقصور على الله
تعالى ، فهو وحده الحق في هذا الوجود .

وعندما نلتق نظرة على بعض الآيات التي وقع فيها لفظ «الحق»
اسماً لله تعالى أو صفة له نجد أنه يعنى أموراً تكشف عن جوانب
الكمال الإلهي .

- يعنى الوجود الحقيقي الذى لم يسبقه عدم ، ولن يعقبه فناء .
- يعنى العدالة المطلقة عندما يُرد الناس إليه .
- يعنى أنه الملاذ ، والمعاذ ، وبالتالي فاللجوء إلى غيره باطل
وضلال «فَذَلِكُمْ اللَّهُ رَبُّكُمُ الْحَقُّ فَمَاذَا بَعْدَ الْحَقِّ إِلَّا الضَّلَالُ
فَأَنى تُضْرَفُونَ» (٣)

- ووصفه بالحق يعنى أنه واحد لا شريك له ؛ إذ أن التعدد باطل
«لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلَّا اللَّهُ لَفَسَدَتَا فَسُبْحَانَ اللَّهِ رَبِّ الْعَرْشِ عَمَّا
يَصِفُونَ» (٤) «مَا آتَاكَ اللَّهُ مِنْ وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُ مِنْ إِلهٍ إِذَا لَذَهَبَ
كُلُّ إِلهٍ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلَّ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا
يَصِفُونَ» (٥)

(١) سورة الحج/ ٦ . ٦٢ . ولقمان/ ٣٠ . والمؤمنون/ ١١٦ .

(٢) سورة النور/ ٢٥ .

(٣) سورة يونس/ ٣٢ .

(٤) سورة الأنبياء/ ٢٢ . (٥) سورة المؤمنون/ ٩١ .

٢ - كتاب الله حق :

عندما نقول «كتاب الله» نعني ما أنزله على رسله من كتاب عن طريق الوحي الذي اتخذ صوراً مختلفة عند تبليغ أوامر الله ، وأحكامه ، وشرائعه ، ومواعظه ، وتحذيراته لأنبيائه ، جاء ذلك في قوله تعالى : ﴿وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَنْ يُكَلِّمَهُ اللَّهُ إِلَّا وَحْيًا أَوْ مِنْ وَرَائِ حِجَابٍ أَوْ يُرْسِلَ رَسُولًا فَيُوحِيَ بَأْذِنِهِ مَا يَشَاءُ﴾^(١)

وهذه الكتب تشمل صحف إبراهيم ، وتوراة موسى ، وزبور داود ، وإنجيل عيسى والفرقان الآية الكبرى التي جاء بها محمد ﷺ .

وقد تحدث القرآن الكريم في مواطن مختلفة عن الكتب التي أنزلها الله على رسله داعياً إلى الإيمان ، واصفاً إياها بما هي أهل له ساعة أنزلت ، وقبل أن يعث بها الإنسان بهواه .

يقول الله تعالى : ﴿إِنَّا أَنْزَلْنَا التَّوْرَةَ فِيهَا هُدًى وَنُورٌ﴾^(٢) ثم يقول : ﴿وَقَفَّيْنَا عَلَى آثَارِهِم بِعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ التَّوْرَةِ وَآتَيْنَاهُ الْإِنْجِيلَ فِيهِ هُدًى وَنُورٌ﴾^(٣)

كما علّم المسلمين إذا جادلوا أهل الكتاب ألا يسارعوا إلى تكذيب ما يقولونه ، من أحكام ، أو تشريعات ينسبونها للتوراة أو الإنجيل ، فيقول تعالى : ﴿وَلَا تُجَادِلُوا أَهْلَ الْكِتَابِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِلَّا الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ وَقُولُوا آمَنَّا بِالَّذِي أُنْزِلَ إِلَيْنَا وَأُنْزِلَ

(١) سورة الشورى/ ٥١ .

(٢) سورة المائدة/ ٤٤ .

(٣) سورة المائدة/ ٤٦ .

إِلَيْكُمْ»^(١)

وقال تعالى : ﴿وَقُلْ أَمِنْتُ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنْ كِتَابٍ وَأُمِرْتُ لِأَعْدِلَ بَيْنَكُمْ﴾^(٢)

وقد نصح النبي ﷺ صحابته بمثل هذا النصيح ، فقال : «لا تصدقوا أهل الكتاب ، ولا تكذبوهم ، وقولوا آمنا بما أنزل إلينا ، وأنزل إليكم»^(٣)

فهذه العبارة التي وردت في الآية وفي الحديث فيها حفاظ على ما ينبغي أن تكون عليه عقيدة المؤمن من إيمان بهذه الكتب ، كما أن فيها احتياطاً حكيماً حتى لا يورط المؤمن نفسه في الإيمان بمنازيفه القوم ، وأدخلوه على كتاب الله .

موقف القرآن الكريم من الكتب السابقة :

وأما موقف القرآن الكريم من الكتب السابقة فقد بينته هذه الآية ﴿وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقاً لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ الْكِتَابِ وَمُهَيْمِناً عَلَيْهِ﴾^(٤)

فللقرآن الكريم إذن مهمتان :

الأولى : تأييد ما سبقه من كتاب سماوى .

والأخرى : الهيمنة عليها بمعنى أنه ينسخ ما يشاء الله نسخه من أحكامها ، كما أنه يكشف ما عس أن يكون قد أدخل عليها بفعل

(١) سورة العنكبوت/٤٦ .

(٢) سورة الشورى/١٥ .

(٣) رواه الإمام أحمد في مسنده .

(٤) سورة المائدة/٤٨ .

الأهواء الغالبة .

ولأجل هذا أعطى القرآن الكريم حصانة من التزيد ، وعصمة من تسلط أهواء ذوى الأهواء عليه ؛ ولذا لم يجدوا سبيلا إلى الطعن فيه ، لا من منهج نزوله ، ولا فى طريق ثبوته ، ولا فى نظمته وصياغته ، ولا فى مضمونه ، ومؤداه .

وهذا أمر بين لنا رب العالمين أنه تكفل به ؛ إذ قال : ﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ ﴾ ^(١) فاختص القرآن الكريم بهذا الحفظ الإلهي دون غيره .

وبهذه الميزة كان للقرآن الكريم حق الهيمنة ؛ لأنه وعاء شريعة الله ، ودستور دينه الذى ارتضاه حتى يرث الله الأرض ومن عليها .

القرآن حق :

ومن هنا تفرد القرآن الكريم - بخاصة - بصفة الحق ، دون غيره .

يقول الله تعالى فى شأن بنى إسرائيل الذين دفعهم تعصبهم إلى أن يؤمنوا بما أنزل الله ، ﴿ قَالُوا نُؤْمِنُ بِمَا أُنْزِلَ عَلَيْنَا وَيكْفُرُونَ بِمَا وَرَاءَهُ وَهُوَ الْحَقُّ مُصَدِّقًا لِمَا مَعَهُمْ ﴾ ^(٢)

ويقول تعالى لنبىه محمد عليه الصلاة والسلام : ﴿ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ بِالْحَقِّ بَشِيرًا وَنَذِيرًا ﴾ ^(٣) أى أرسلناك بالقرآن الكريم ، وهو حق

(١) سورة الحجر/٩ .

(٢) سورة البقرة/٩١ .

(٣) سورة البقرة/١١٩ .

ثابت لا ريب فيه .

ويقول تعالى ﴿تِلْكَ آيَاتُ اللَّهِ نَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِالْحَقِّ﴾^(١)

والمعنى نتلو عليك آيات القرآن بصورة بعيدة عن الشك ،
والريبة ، مخززة بالصدق ، مؤيدة بالواقع ، داعية إلى الحكمة .

والحق علم على القرآن الكريم ينسحب على كل ما جاء فيه من
خبر ، أو تشريع ، أو علم فيقول تعالى : ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَكُمْ
الرَّسُولُ بِالْحَقِّ مِنْ رَبِّكُمْ﴾^(٢)

وهذه آية أخرى تبصر العرب بالكتاب الذى أنزل على محمد
عليه الصلاة والسلام ليستمسكوا به ، فيهدوا ، ويسعدوا ، يقول
تعالى : ﴿قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَكُمْ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكُمْ فَمَنِ اهْتَدَى
فَأَنَّمَا يَهْتَدِي لِنَفْسِهِ وَمَنْ ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا وَمَا أَنَا عَلَيْكُمْ
بوكيل﴾^(٣)

وتمت آيات تعطى القرآن الكريم اسم الحق ، وتدعو النبي عليه
الصلاة والسلام إلى الثبوت والتحرى ، ليتأكد له أن ما أنزل عليه
هو الحق ، كما تحذره من الارتياب ، لأنه لا مجال فيه لمرتاب .

قال تعالى : ﴿ذَلِكَ الْكِتَابُ لَا رَيْبَ فِيهِ﴾^(٤)

وقال سبحانه : ﴿فَإِنْ كُنْتَ فِي شَكٍّ مِمَّا أَنزَلْنَا إِلَيْكَ فَسْأَلِ
الَّذِينَ يَقْرَأُونَ الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكَ لَقَدْ جَاءَكَ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ

(١) سورة البقرة/٢٥٢ . وآل عمران/١٠٨ . والجمانية/٦ .

(٢) سورة النساء/١٧٠ .

(٣) سورة يونس/١٠٨ .

(٤) سورة البقرة/٢ .

فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُفْتَرِينَ ﴿١﴾

ويقول : ﴿فَلَا تَكُنْ فِي مِرَّةٍ مِنْهُ إِنَّهُ الْحَقُّ مَنْ رَبِّكَ﴾ ﴿٢﴾

ويقول تعالى : ﴿وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ مِنَ الْكِتَابِ هُوَ الْحَقُّ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ إِنَّ اللَّهَ بِعِبَادِهِ لَخَبِيرٌ بَصِيرٌ﴾ ﴿٣﴾

والقصة القرآنية حق :

للقصة القرآنية مجال واسع في الكتاب الكريم ، وقد عززت أحداؤها ووقائعها بصفة الحق في كل ما يتصل بها من عناصر حتى لا يترسب الوهم إلى بعض العقول المريضة أن القصة في القرآن ليس لها واقع ، وأنها نسجت للموعظة والعبرة فيقول تعالى : ﴿إِنَّ هَذَا لَهُوَ الْقَصَصُ الْحَقُّ﴾ ﴿٤﴾ ويقول سبحانه : ﴿وَكَلَّا نَقْصُ عَلَيْكَ مِنْ أَنْبَاءِ الرُّسُلِ مَا نَنْبِتُ بِهِ فُؤَادَكَ وَجَاءَكَ فِي هَذِهِ الْحَقُّ وَمَوْعِظَةٌ وَذِكْرَى لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ ﴿٥﴾

وقال تعالى : ﴿نَحْنُ نَقْصُ عَلَيْكَ نَبَأَهُم بِالْحَقِّ﴾ ﴿٦﴾

كما قال : ﴿تَتْلُوا عَلَيْكَ مِنْ نَبَأِ مُوسَى وَفِرْعَوْنَ بِالْحَقِّ﴾ ﴿٧﴾

والعلم وسيلة هادية ، تتيح للعلماء اليقين بالكتاب الحق ،

(١) سورة يونس/ ٩٤ .

(٢) سورة هود/ ١٧ .

(٣) سورة فاطر/ ٣١ ، والصفافات/ ٣٧ بدون ﴿إِنَّ اللَّهَ بِعِبَادِهِ لَخَبِيرٌ بَصِيرٌ﴾ .

(٤) سورة آل عمران/ ٦٢ .

(٥) سورة هود/ ١٢٠ .

(٦) سورة الكهف/ ١٣ .

(٧) سورة القصص/ ٣ .

وإدراك حقائقه ، يقول تعالى : ﴿وَيَرَى الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ الَّذِي أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ هُوَ الْحَقُّ وَيَهْدِي إِلَى صِرَاطٍ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ﴾ (١)

وهذه آية كريمة تجعل عصمة الأنبياء من أهواء النفوس ، ونزعات الشياطين دليلاً يعرف منه أولو العلم أن القرآن حق ، فتدعن له قلوبهم ، وتطمئن إلى أنه تنزيل العزيز الحميد ، فيقول تعالى : ﴿وَلْيَعْلَمَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ فَيُؤْمِنُوا بِهِ فَتُخْبِتَ لَهُ قُلُوبُهُمْ وَإِنَّ اللَّهَ لَهَادٍ الَّذِينَ آمَنُوا إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ (٢)

ارتباط القرآن بالحق في قضية نزوله :

تثار الشكوك الضالة من أعداء القرآن الكريم حول قضية الوحي ، ملقن بالظنون الكاذبة ، والأوهام الفاسدة حول نزوله ، ولأجل هذا جاءت الآيات مؤكدة نزول القرآن من عند الله ، وأن كيفية النزول حق لا ريبه فيه ، وأن القرآن نزل بالحق واعياً قضايَا الحياة والناس .

يقول تعالى : ﴿ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ نَزَلَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ﴾ (٣)
ويقول سبحانه : ﴿نَزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابُ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ﴾ (٤)

(١) سورة مائدة/ ٦ .

(٢) سورة الحج/ ٥٤ .

(٣) سورة البقرة/ ١٧٦ .

(٤) سورة آل عمران/ ٣ .

والمعنى نزل عليك الكتاب مشتملاً على الصحيح الثابت من الأحكام والأخبار ، مصداقاً لما سبقه من كتب السماء .
ويقول تعالى : ﴿وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقاً لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ﴾^(١)

وتفيد هذه الآية ما تفيدته كل آية تربط النزول بالحق بمعنى دفع الارتباب في عملية النزول ، وتأکید استيعاب القرآن لكل ثابت وصحيح من الأخبار والتشريعات .

ومثلاً قوله تعالى : ﴿إِنَّا أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِتَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ بِمَا أَرَبِكَ اللَّهُ﴾^(٢)

ونزول القرآن الكريم بالحق على المعنيين السابقين ، أعنى هيئة النزول ، واستيعاب الحقائق ، قضية لها أهمية بالغة ، ومن أجل ذلك تكاثرت الآيات التي تناولتها ، وتحدثت عنها ، مؤكدة إياها .
يقول تعالى : ﴿بَلِّغْ آيَاتِ الْكِتَابِ وَالَّذِي أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ الْحَقُّ﴾^(٣)

ويقول سبحانه : ﴿إِنَّا أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ فَاعْبُدِ اللَّهَ مُخْلِصاً لَهُ الدِّينَ﴾^(٤) .

ويقول تعالى : ﴿اللَّهُ الَّذِي أَنْزَلَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ وَالْمِيزَانَ﴾^(٥)
ويقول سبحانه يأمر نبيه محمداً عليه الصلاة والسلام أن يبلغ

(١) سورة المائدة/٤٨ .

(٢) سورة النساء/١٠٥ .

(٣) سورة الرعد/٢ .

(٤) سورة الزمر/٢ .

(٥) سورة الشورى/١٧ .

قومه قضية نزول القرآن الكريم بالحق ، فيقول : ﴿قُلْ نَزَّلَهُ رُوحُ
الْقُدُسِ مِنْ رَبِّكَ بِالْحَقِّ﴾^(١)

والإشارة إلى روح القدس هنا تعطي لمحة سريعة للأسلوب الذى
نزل به القرآن الكريم ، وأن حامله روح القدس جبريل عليه
السلام .

حتى أهل الكتاب مع انحراف الجمهرة الكبيرة منهم عن النهج
القوم ، وإصرارهم على الكفر بالرسالة الخاتمة يعرفون أن القرآن
حق ، فيقول تعالى : ﴿وَالَّذِينَ آمَنَاهُمْ الْكِتَابَ يَعْلَمُونَ أَنَّهُ مُنَزَّلٌ
مِّنْ رَبِّكَ بِالْحَقِّ﴾^(٢) لكن انتهى أمرهم إلى ما حدثنا به ربنا تبارك
وتعالى عنهم ؟ إذ قال : ﴿فَلَمَّا جَاءَهُمْ مَا عَرَفُوا كَفَرُوا بِهِ﴾^(٣)

لكن من أهل الكتاب من عرفوا ، وتأثروا ، واخترقت الموعظة
القرآنية كل الحجب دون قلوبهم فاستجابوا ، وفاضت دموعهم بعد
أن تكشف الحقائق الثابتة والمواعظ الهادية فآمنوا وتابوا ، يقول
تبارك وتعالى فى وصفهم : ﴿وَإِذَا سَمِعُوا مَا أُنزِلَ إِلَى الرَّسُولِ تَرَى
أَعْيُنُهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ مِمَّا عَرَفُوا مِنَ الْحَقِّ يَقُولُونَ رَبَّنَا آمَنَّا
فَاكْتُبْنَا مَعَ الشَّاهِدِينَ . وَمَالَنَا لَأَن نُّؤْمِنَ بِاللَّهِ وَمَا جَاءَنَا مِنَ
الْحَقِّ﴾^(٤)

وهذه آية تشير بوضوح إلى المعنيين اللذين يفهمان من النزول

(١) سورة النحل/١٠٢ .

(٢) سورة الأنعام/١١٤ .

(٣) سورة البقرة/٨٩ .

(٤) سورة المائدة/٨٣ .

بالحق واللذين سبقت الإشارة إليهما .

يقول تعالى : ﴿وَبِالْحَقِّ أَنْزَلْنَاهُ وَبِالْحَقِّ نَزَلَ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا مُبَشِّرًا وَنَذِيرًا﴾^(١)

ففرى هنا التنوع بين (أنزل) و (نزل) في آية واحدة ، وفيه حكمة ذات بال ؛ لأن معنى الحق من «نزوله» أن هناك حكمة عظيمة وراءه ، وأن يد العتب لم تصل إليه . وهذا أمر بسطت جوانبه آيتان من الكتاب العزيز أولا هما : ﴿إِنَّهُ لَقُرْآنٌ كَرِيمٌ . فِي كِتَابٍ مَكْنُونٍ . لَا يَمَسُّهُ إِلَّا الْمُطَهَّرُونَ﴾^(٢)

وفي هذا ضمان واضح لسلامة النزول بدرأ الشبهات .
والأخرى : قوله تعالى : ﴿نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ . عَلَى قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنْذِرِينَ﴾^(٣)

وفي هذه الآية تأكيد آخر أقوى وأشد كما إن فيه إشارة إلى خصيصة قرآنية ، تميز بها في نزوله ، وهى أن الروح الأمين حملة ، ليلقيه مباشرة في عقل النبي ، مسجلاً في ذاكرته ، فلا توجد ثمت فرصة للسهو والنسيان ، أو تدخل عنصر غير أمين في عملية النزول^(٤) .

وأما الحق في (إنزاله) فهو أنه يحمل للناس الشرائع الهادية ، والمواعظ البليغة ، والحكم السديدة ، والأخبار الصادقة .

(١) سورة الإسراء/ ١٠٥ .

(٢) سورة الواقعة/ ٧٧ - ٧٩ .

(٣) سورة الشعراء/ ١٩٣ . ١٩٤ .

(٤) راجع كتابنا في علوم القراءات مدخل ودراسة وتحقيق ص ٦ .

وأما «نزل» بتشديد الزاى فحيثما تأت تعط إشارة إلى تعدد عملية نزول الكتاب حسب الأحداث والوقائع ، ومقتضيات الأحوال .

القرآن الحق ... فى مواجهة المعاندين :

كذب المشركون بالقرآن ، وواجهوا بالجهود الأحق حقائقه التى لا تنكر ، وكان الرد عليهم من مواجهة تكذيبهم يحمل التأكيد بأنه حق ، فقال تعالى : ﴿ أَمْ يَقُولُونَ أَفْتَرِيهِ بَلْ هُوَ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ ﴾ (١) كما قال سبحانه : ﴿ وَكَذَّبَ بِهِ قَوْمُكَ وَهُوَ الْحَقُّ قُلْ لَسْتُ عَلَيْكُمْ بِوَكِيلٍ ﴾ (٢) كما قال : ﴿ فَقَدْ كَذَّبُوا بِالْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُمْ فَسَوْفَ يَأْتِيهِمْ أَنْبَاءُ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ ﴾ (٣) ومن هذه الآية نرى كلمة الحق واقعة على الرسالة بعامة ، ولا شك أن واجهة الرسالة كانت آيات الكتاب العزيز حيث قابلها القوم بالاعراض والنفور ، والاتهام .

وقد يستعين الكافر بالجدل والمراء فى رد حقائق الكتاب ، ساخراً من الآيات والنذر ، فيقول تعالى : ﴿ وَمَا نُرْسِلُ الْمُرْسَلِينَ إِلَّا مُبَشِّرِينَ وَمُنْذِرِينَ وَجَادِلُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِالْبَاطِلِ لِيُدْحِضُوا بِهِ الْحَقَّ وَاتَّخِذُوا آيَاتِي وَمَا أُنذِرُوا هُزُوًا ﴾ (٤)

(١) سورة الأنعام/ ٦٦ .

(٢) سورة السجدة/ ٣ .

(٣) سورة الأنعام/ ٥ .

(٤) سورة الكهف/ ٥٦ .

لقد كان شعور الكراهية يملأ نفوس المشركين نحو ما جاء في الكتاب الكريم من بينات ونذر ، وما سطر فيه من حقائق ناصعة فاندفعوا يفترون : ﴿أَمْ يَقُولُونَ بِهِ جِنَّةٌ بَلْ جَاءَهُمُ بِالْحَقِّ وَآكَثَرُهُمْ لِلْحَقِّ كَارِهُونَ﴾^(١)

واشتطوا في العداء للكتاب الكريم إلى درجة الحمق ، وفقدان الاتزان ، وذهاب الحلم ، شأن العاجز الذي انقطعت به الحيلة ، فلم يجد وسيلة لرد ما يكرهه ، فترى رجلاً من قريش هو النضر بن الحارث ، يقول هو وأمثاله كما حدثنا القرآن ﴿وَإِذْ قَالُوا االلَّهُمَّ إِنْ كَانَ هَذَا هُوَ الْحَقُّ مِنْ عِنْدِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِنَ السَّمَاءِ أَوِاثِينَا بِعَذَابِ أَلِيمٍ﴾^(٢)

وقد ذكرهم القرآن الكريم بهذه المقالة بعد هزيمتهم الساحقة في بدر ، ثم قال سبحانه : ﴿وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنْتَ فِيهِمْ وَمَا كَانَ اللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ﴾^(٣) إذ أن حكمة الله اقتضت أن المكذبين بالرسالة الخاتمة لن يعجل لهم عذابهم على هذا التكذيب . ولهم موعد عند الله لن يجدوا من دونه مؤثلاً .

وفي مواجهة الادعاء بأن القرآن سحر يأتي الرد على هؤلاء المغترين بأنه حق ، فيقول سبحانه : ﴿فَلَمَّا جَاءَهُمُ الْحَقُّ مِنْ عِندِنَا قَالُوا لَوْلَا أُوتِيَ مِثْلَ مَا أُوتِيَ مُوسَى أَوَلَمْ يَكْفُرُوا بِمَا أُوتِيَ مُوسَى مِنْ

(١) سورة المؤمنون/٧٠ . وشعور المعاندين بالكراهية نحو الكتاب جاء في سورة الزخرف/٧٨ ﴿لَقَدْ جِئْنَاكُمْ بِالْحَقِّ . وَلَكِنْ أَكْثَرَكُمْ لِلْحَقِّ كَارِهُونَ﴾ وراجع تفسير ابن كثير ج ٣ ص ٢٥٠ .

(٢) سورة الأنفال/٣٢ .

(٣) سورة الأنفال/٣٣ .

قَبْلُ قَالُوا سِحْرَانِ تَظَاهَرَا وَقَالُوا إِنَّا بِكُلِّ كَافِرُونَ^(١)
 إن هذه الآية تكشف عما يلجأ إليه القوم من علل واهية ،
 تسوغ لهم ردّ الكتاب . وذلك بقولهم : هلا جاء بكتاب مثل
 كتاب موسى !! ولو كان الكتابان متماثلين لقالوا : كتابان في
 السحر . يؤيد أحدهما الآخر ؛ ولذا جاء الرد القاطع عليهم في الآية
 التالية : ﴿ قُلْ فَأْتُوا بِكِتَابٍ مِّنْ عِندِ اللَّهِ هُوَ أَهْدَىٰ مِنْهُمَا أَتَّبِعُهُ إِنَّ
 كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴾^(٢)

وهذا الأمر الوارد في هذه الآية أخزى القوم ، وأبلسهم .
 ووضع حدا لتعللاتهم الساذجة ، واعدارهم الواهية .

إن المكذب للكتاب الحق يقف على درجة سواء مع المفتري على
 الله الكاذب عليه ، يقول تعالى : ﴿ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ
 كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِالْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُ ﴾^(٣) ويقول تعالى : ﴿ وَمَنْ أَظْلَمُ
 مِمَّنْ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِآيَاتِهِ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ
 الظَّالِمُونَ ﴾^(٤) وفي آية أخرى ﴿ لَا يُفْلِحُ الْمُجْرِمُونَ ﴾^(٥)

وإذا كان أعداء الرسالة المحمدية يواجهونها بحجج زائفة ،
 وأدلة متهافئة ، فإن القرآن الكريم يبطل هذا كله بالحقائق الناصعة ؛

(١) سورة القصص/ وفي مواضع أخرى من القرآن جاءت الإشارة إلى قول الكافرين عن
 القرآن : إنه سحر . في سورة سبا/ ٤٣ ﴿ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُمْ هَذَا
 سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴾ وفي سورة الأحقاف/ ٧ ﴿ وَإِذَا تَلَّىٰ عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ قَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا
 لِلْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُمْ هَذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴾ وكذا سورة الزخرف/ ٣٠ .

(٢) سورة القصص/ ٤٩ .

(٣) سورة العنكبوت/ ٦٨ .

(٤) سورة الأنعام/ ٢١ .

(٥) سورة يونس/ ١٧ .

إِذْ يَقُولُ تَعَالَى : ﴿وَلَا يَأْتُونَكَ بِمَثَلٍ إِلَّا جِئْنَاكَ بِالْحَقِّ وَأَحْسَنَ تَفْسِيرًا﴾^(١)

٣- القيامة حق :

في إطار المعنى اللغوي لكلمة «الحق» رأيناها شملت الأمور الثابتة ، والحقائق الواقعة التي لا تتخلف ، ولا تتحول عن سمتها ؛ ولا تتغير .

وفي البيان القرآني رأينا آيات كثيرة تؤكد أن الله حق . كما تناولنا آيات أخرى تقرر أن القرآن حق .

ونحن الآن أمام حقيقة ثالثة أكدها الكتاب العزيز : القيامة حق . القيامة بكل ما فيها من مشاهد ، وما يسبقها من أحداث ، وما يدور فيها من وقائع ، وما يقع في يومها العظيم من بعث وحشر ، وصراط ، وحساب وميزان ، وثواب وعقاب .

ويوم القيامة لا يقاس بمقاييس الزمن التي ألفناها ، أو نحسبه بحساب أيامنا المحدودة ، والتي تنشأ من دوران الأرض حول نفسها أمام الشمس ، ثم نقسمها إلى الساعات الأربع والعشرين ، ولكن يوم القيامة شيء عظيم ، لا يقاس بأيام الدنيا ، وحسبنا في هذا ما أُلح إليه القرآن الكريم في أكثر من موضع ؛ إذ يقول تعالى : ﴿وَإِنَّ يَوْمًا عِنْدَ رَبِّكَ كَأَلْفِ سَنَةٍ مِّمَّا تَعْلُونَ﴾^(٢)

ويقول سبحانه : ﴿تَعْرُجُ الْمَلَائِكَةُ وَالرُّوحُ إِلَيْهِ فِي يَوْمٍ كَانَ

(١) سورة الفرقان/ ٣٣ .

(٢) سورة الحج/ ٤٧ .

مِقْدَارُهُ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ . فَاصْبِرْ صَبْرًا جَمِيلًا . إِنَّهُمْ يَرَوْنَهُ بَعِيدًا .
وَيَذَرُوهُ قَرِيبًا ﴿١﴾

فالموت - وهو من الأحداث التي تسبق القيامة - حق ، وقانون ثابت ، لا يفلت منه بشر ، ولو كان نبيا أو رسولا ؛ إذ يقول تعالى : ﴿وَمَا جَعَلْنَا لِبَشَرٍ مِنْ قَبْلِكَ الْخُلْدَ أَفَإِنْ مِتَّ فَهُمْ الْخَالِدُونَ . كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ﴾ (٢)

وجاءت هذه الآية تعبر عن قانون الموت بهذا الأسلوب المؤكد لحقيقته ، الذي يذكر الغافلين عنه حتى يفيقوا ، فيقول تعالى : ﴿وَجَاءَتْ سَكْرَةُ الْمَوْتِ بِالْحَقِّ ذَلِكَ مَا كُنْتَ مِنْهُ تَحِيدُ﴾ (٣)

ويوم القيامة حق ، يعرفه المؤمنون الصادقون ، وأما غيرهم فيرتابون فيه ، ويتمكون منه عندما يسألون رسول الله ﷺ ، ساخرين ، مستعجلين وقوعه ، فيقول تعالى لنبيه : ﴿وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّ السَّاعَةَ قَرِيبٌ . يَسْتَعْجِلُ بِهَا الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِهَا وَالَّذِينَ آمَنُوا مُشْفِقُونَ مِنْهَا وَيَعْلَمُونَ أَنَّهَا الْحَقُّ إِلَّا الَّذِينَ يُبَارِئُونَ فِي السَّاعَةِ لَنَى ضَلَالٍ بَعِيدٍ﴾ (٤)

ويتحدث القرآن الكريم عن يوم القيامة مدعوما بصفة الحق ، ويتساءل منكروه في دهشة ، وذلك بعد أن خُوفوا من عذابه ، ويأتيهم الجواب القاطع ، يحمل الوعيد الحاسم ، الذي يهز كيانه

(١) سورة المعارج ٤ - ٧ .

(٢) سورة الأنبياء/ ٣٣ . ٣٤ .

(٣) سورة ق/ ١٩ .

(٤) سورة الشورى/ ١٨ . ١٩ .

البغي في نفوسهم ، يقول تعالى : ﴿ثُمَّ قِيلَ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا ذُوقُوا
عَذَابَ الْخُلْدِ هَلْ تُجْزَوْنَ إِلَّا بِمَا كُنتُمْ تَكْسِبُونَ . وَيَسْتَبِينَكَ أَحَقُّ
هُوَ قُلْ إِي وَرَىٰ أَنَّهُ لَحِقٌ بِمَا كُنتُمْ تَكْسِبُونَ﴾ (١) .

ويقول تعالى : ﴿وَاقْتَرِبَ الْوَعْدُ الْحَقُّ فَإِذَا هِيَ شَاخِصَةٌ أَبْصَارُ
الَّذِينَ كَفَرُوا يَا وَيْلَنَا قَدْ كُنَّا فِي غَفْلَةٍ مِنْ هَذَا﴾ (٢)

ومن حقائق هذا اليوم

هذه الصبيحة التي يسمعها الموتى ، فيخرجون من الأجداث
سراعا ، يحشرون إلى ربهم بعد الخروج من قبورهم ، فيقول تعالى :
﴿يَوْمَ يَسْمَعُونَ الصَّيْحَةَ بِالْحَقِّ ذَلِكَ يَوْمُ الْخُرُوجِ . إِنَّا نَحْنُ نُحْيِي
وَنُمِيتُ وَالْيَا مَاصِرُ﴾ (٣)

ومن حقائقه أيضاً .

العدالة المطلقة .

فلا شفاعاة فيه لظالم ، ولا مكان فيه لمفرط ، «ومن بطأ به
عمله لم يسرع به نسبه» (٤)

تنتفي فيه تماماً قضية الأحساب ، ويختفي أصحاب الشفاعات
والوساطات : ﴿وَصَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ﴾ (٥)

يقول تعالى : ﴿فَإِذَا نُفِخَ فِي الصُّورِ فَلَا أَنْسَابَ بَيْنَهُمْ يَوْمَئِذٍ

(١) سورة يونس/٥٢ . ٥٣ .

(٢) سورة الأنبياء/٩٧ .

(٣) سورة ق/٤٣ . ٤٤ .

(٤) جزء من حديث شريف رواه مسلم عن أبي هريرة .

(٥) سورة الأنعام/٢٤ . ٩٤ . والأعراف/٥٣ . ويونس/٣٠ .

وَلَا يَتَسَاءَلُونَ ﴿١﴾ كَمَا قَالَ سُبْحَانَهُ : ﴿يَوْمَ لَا تَمْلِكُ نَفْسٌ لِنَفْسٍ شَيْئًا وَالْأَمْرُ يَوْمَئِذٍ لِلَّهِ﴾ ﴿٢﴾ كَمَا قَالَ : ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَنْفِقُوا مِمَّا رَزَقْنَاكُمْ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَ يَوْمٌ لَا بَيْعَ فِيهِ وَلَا خِلَّةَ وَلَا شَفَاعَةً وَالْكَافِرُونَ هُمْ الظَّالِمُونَ﴾ ﴿٣﴾

ويقول جل شأنه ﴿فَمَا تَتَعَوَّهُمْ شَفَاعَةُ الشَّافِعِينَ﴾ ﴿٤﴾

لقد تقدم نوح عليه السلام . وهو الذي حمل عبء الدعوة إلى الله ألف سنة إلا خمسين عاما بما يفهم منه رجاء الشفاعة لابنه الآثم ، إذ قال : ﴿رَبِّ إِنِّي أَبْنَى مِنْ أَهْلِي وَإِنَّ وَعْدَكَ الْحَقُّ وَأَنْتَ أَحْكَمُ الْحَاكِمِينَ﴾ فقال له رب العزة وهو الملك الحق : ﴿يَا نُوحُ إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ إِنَّهُ عَمَلٌ غَيْرُ صَالِحٍ فَلَا تُسْأَلَنَ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنِّي أَعِظُكَ أَنْ تَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ﴾ ﴿٥﴾

وجاء في صحيح البخارى مقالة النبي ﷺ لقريش بعامة ، وذوى قرابته بخاصة قال : «يامعشر قريش ، اشتروا أنفسكم من الله لا أغنى عنكم من الله شيئا . يا عباس عم محمد اشتر نفسك من الله لا أغنى عنك من الله شيئا . يا صفية عمة محمد أعملى فإنى لا أغنى عنك من الله شيئا . يا فاطمة بنت محمد سلبنى من مالى وأعملى فإنى لا أغنى عنك من الله شيئا»

(١) سورة المؤمنون/ ١٠١ .

(٢) سورة الانشقاق - آخر الآية .

(٣) سورة البقرة/ ٢٥٤ .

(٤) سورة المائدة/ ٤٨ .

(٥) سورة هود/ ٤٥ . ٤٦ .

إنه يوم الحق ، فلا مكان فيه لغبر الحق :

﴿يَوْمَ يَقُومُ الرُّوحُ وَالْمَلَائِكَةُ صَفًّا لَا يَتَكَلَّمُونَ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ
الرَّحْمَنُ وَقَالَ صَوَابًا . ذَلِكَ الْيَوْمَ الْحَقُّ فَمَنْ شَاءَ اتَّخَذَ إِلَىٰ رَبِّهِ
مُأَبًا﴾^(١)

والشفاعة المقبولة في هذا اليوم شفاعة تستند إلى الحق ، فهي
بإذن الله ، ولمن يرضى عنه الله ، إعلاء لشأنه ، ورفعاً لذكره على
رءوس الاشهاد ، على نحو ما أشارت الآية ﴿إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ
الرَّحْمَنُ وَقَالَ صَوَابًا﴾ ، فلا يطلب الشافع باطلا ، ولا يجادل عن
مقصر ، أو مفرط .

يقول تعالى : ﴿وَلَا يَمْلِكُ الَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِهِ الشَّفَاعَةَ
إِلَّا مَن شَهِدَ بِالْحَقِّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾^(٢) ويقول : ﴿وَلَا تَنْفَعُ
الشَّفَاعَةُ عِنْدَهُ إِلَّا لِمَن أَذِنَ لَهُ حَتَّىٰ إِذَا فُزِعَ عَن قُلُوبِهِمْ قَالُوا مَاذَا
قَالَ رَبُّكُمْ قَالُوا الْحَقُّ وَهُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ﴾^(٣)

وفي شأن شفاعة الملائكة يقول سبحانه : ﴿وَكَمْ مِّن مَّلَكٍ فِي
السَّمَوَاتِ لَا تُغْنِي شَفَاعَتُهُمْ شَيْئًا إِلَّا مِّن بَعْدِ أَنْ يَأْذَنَ اللَّهُ لِمَن يَشَاءُ
وَيَرْضَىٰ﴾^(٤) كما قال : ﴿وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَن ارْتَضَىٰ وَهُمْ مِّنْ

(١) سورة النبا/ ٣٨ . ٣٩ وورد لهذا المعنى من اشتراط الاذن في الشفاعة في قوله
تعالى : ﴿مَن ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِنْدَهُ إِلَّا بِإِذْنِهِ﴾ البقرة/ ٢٥٥ كما جاء الشرطان في قوله
تعالى : ﴿وَنُفِثَتِ الْأَصْوَاتُ لِلرَّحْمَنِ فَلَا تَسْمَعُ إِلَّا هَمْسًا . يَوْمَئِذٍ لَا تَنْفَعُ
الشَّفَاعَةُ إِلَّا مَن أَذِنَ لَهُ الرَّحْمَنُ وَرَضِيَ لَهُ قَوْلًا﴾ طه/ ١٠٨ ، ١٠٩ .

(٢) سورة الزخرف/ ٧٦ .

(٣) سورة سبا/ ٢٣ .

(٤) سورة النجم/ ٢٦ .

خَشِيَّتِهِ مُشْفِقُونَ ﴿١﴾

وهذا لا يتنافى مع ما منحه الله لنبيه ﷺ من المقام المحمود يوم القيامة ؛ إذ يشفع للبشرية جميعا ، فيصرفون من موقف الحشر إلى موقف الحساب ؛ إذ أنه موقف لا يخرج عن دائرة الحق ، الذى هو دستور هذا اليوم العظيم ^(٢) .

والجزاء فى ذلك اليوم .. حق :

فبعد حديث رب العالمين عن المقربين ، وعن أصحاب اليمين ، وما أعد للطائفتين من مثوبة وتكريم يحدثنا عن المكذبين الضالين ، وما أعد لهم من عذاب الجحيم يأبى التعقيب على هذا كله بأن هذا الجزاء حق متيقن ، أو يقين محقق ، فيقول تعالى : ﴿ إِنَّ هَذَا لَهُوَ حَقُّ الْيَقِينِ . فَسَبِّحْ بِاسْمِ رَبِّكَ الْعَظِيمِ ﴾ ^(٣)

كما يقول تعالى مشيراً إلى ما ذكره من نعيم المؤمنين أهل اليمين ، وعقاب الكافرين أهل الشمال : ﴿ وَإِنَّهُ لَتَذْكُرَةٌ لِلْمُتَّقِينَ . وَإِنَّا لَنَعْلَمُ أَنَّ مِنْكُمْ مُكَذِّبِينَ . وَإِنَّهُ لَحَسْرَةٌ عَلَى الْكَافِرِينَ . وَإِنَّهُ لَحَقُّ الْيَقِينِ . فَسَبِّحْ بِاسْمِ رَبِّكَ الْعَظِيمِ ﴾ ^(٤)

ويرى الكافرون العذاب الذى ارتابوا فيه ، واستعجلوه

(١) سورة الأنبياء/ ٢٨ .

(٢) فسر المفسرون المقام المحمود فى قوله تعالى : ﴿ عَسَى أَنْ يَبْعَثَ رَبُّكَ مَقَامًا مَحْمُودًا ﴾ بهذه الشفاعة ، وهى التى جاءت فى الحديث الشريف الذى رواه البخارى : أعطيت خمسا لم يعطهن أحد بلى ... الحديث .

(٣) سورة الواقعة/ ٩٥ - ٩٦ .

(٤) سورة الحاقة/ من ٢٨ - ٥٢ .

ساخرين ، يرونه رأى العين ، ويوجه إليهم سؤال يحملهم على الاعتراف بما كذبوا به ، ولا يملكون سوى الإقرار بالحق الواضح ؛ إذ من حقائق هذا اليوم زوال الغشاوة عن البصائر ، واستبانة الحقائق وفي هذا إيلاء شديد وحسرة بالغة لمن كفروا واعرضوا ، ندرك هذا من أقوالهم التي يذكر بها القرآن قبل وقوعها ﴿ رَبَّنَا أَبْصَرْنَا وَسَمِعْنَا فَارْجِعْنَا نَعْمَلْ صَالِحًا إِنَّا مُوقِنُونَ ﴾ ^(١) ﴿ لَقَدْ كُنْتَ فِي غَفْلَةٍ مِنْ هَذَا فَكَشَفْنَا عَنْكَ غِطَاءَكَ فَبَصَرُكَ الْيَوْمَ حَدِيدٌ ﴾ ^(٢) ومن هنا يسألون .. فإذا يقول هؤلاء التعمساء ؟ القرآن الكريم يصف المشهد : ﴿ وَلَوْ تَرَى إِذْ وَقَفُوا عَلَى رَبِّهِمْ قَالَ أَيْسَ هَذَا بِالْحَقِّ قَالُوا بَلَى وَرَبَّنَا قَالَ فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ ﴾ ^(٣) ويقول تعالى : ﴿ وَيَوْمَ يُعْرَضُ الَّذِينَ كَفَرُوا عَلَى النَّارِ أَيْسَ هَذَا بِالْحَقِّ قَالُوا بَلَى وَرَبَّنَا قَالَ فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ ﴾ ^(٤) فمن خلال هذا الحوار القرآني الذي يصف أحد مشاهد القيامة تتكشف حقيقة غفل عنها القوم في الدنيا ، حيث كانوا كما وصفهم الله ﴿ الَّذِينَ كَانَتْ أَعْيُنُهُمْ فِي غِطَاءٍ عَنْ ذِكْرِي وَكَانُوا لَا يَسْتَطِيعُونَ سَمْعًا ﴾ ^(٥) ثم أبصروا يوم القيامة وسمعوا فأروا عذابا ما لهم منه محيص .

وهكذا في مجال حديث القرآن الكريم عن الحق تنضح حقيقة

(١) سورة السجدة/ ١٢ .

(٢) سورة ق/ ٢٢ .

(٣) سورة الأنعام/ ٣٠ .

(٤) سورة الأحقاف/ ٣٤ .

(٥) سورة الكهف/ ١٠١ .

يوم البعث ومشاهدته بكل ما فيها من روعة وإثارة ، وتحذير وتبشير
ليهلك من هلك عن بينة ويحيى من حيّ عن بينة .

٤ - الحق أمر واقع :

وفى إطار التناول القرآنى للفظ «الحق» نراه يقع على كل قضية
ثابتة بأن كان سبب ثبوتها اتيانها من مصدر وثيق ، أو بدهية لا
ترتاب فيها العقول ، أو تنطوى على خير وصلاح ظاهرين .
كما يقع هذا اللفظ على القضايا الواقعة ، والمشاهدة .
ويستخدم «الحق» وهو الشيء الواقع الثابت فى مقابلة الباطل
وهو كل أمر زائل ، ضائع .

فكل وعد أو وعيد من الله حق لا ريب فيه .
﴿وَيَوْمَ يَقُولُ كُنْ فَيَكُونُ قَوْلُهُ الْحَقُّ وَلَهُ الْمُلْكُ﴾^(١)
﴿وَاللَّهُ يَقُولُ الْحَقَّ وَهُوَ يَهْدِي السَّبِيلَ﴾^(٢)

وجاءت هذه الآية الأخيرة ، بعد تشريعات جديدة مؤثرة فى
بناء المجتمع ترسى قima أعلى لدولة الإسلام الناشئة بالمدينة ، ومنها
تحريم الظهار والزام المظاهر بالكفارة ، إذ ما ينبغى له أن يجعل
الزوجة كالأم ، ومنها ابطال عادة التبنى وإلحاق الابن بأبيه . وهذا
يؤكد قيمة ختم الآية بهذه العبارة ﴿والله يقول الحق﴾ .
وقد سبق أن أشرنا بإيجاز إلى شفاعة نوح لابنه ، وكأنه عليه
السلام وهو الرسول الكريم الذى قضى حياته فى سبيل الحق أحسن

(١) سورة الأنعام/٧٣ .

(٢) سورة الأحزاب/٤١ .

فى مطلبه بما يتنافى مع عظمة الحق سبحانه ، فكان منه هذا الاحتراس الواعى الذى أكد فيه إيمانه العظيم بعدالة الله ، فقال : ﴿وَأَنَّ وَعْدَكَ الْحَقُّ وَأَنْتَ أَحْكَمُ الْحَاكِمِينَ﴾

ويقول الله تعالى مؤكداً وعده أو وعيده ، وأنه حق واقع لا ريب فيه ، فيقول سبحانه : ﴿الَا إِنَّ اللَّهَ مَافِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ الْاِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾^(١)

إن سر انحراف الإنسان عن منهج ربه ، وجراته على تجاوز حدوده هذه الغفلة الداهية التى تملك أقطار قلبه ، فتتسيه الملك الحق ، واليوم الحق ، والوعد الحق ، ولا يتذكر خطيئته إلا عندما يتخلى عنه شيطانه الذى اطفاه ، وبالحطية أغواه ، فألبسه ثياب الغفلة ، إذ يأتى اليوم الحق فيستبصر الغافل لكن بعد فوات الأوان . يقول تعالى : ﴿وَقَالَ الشَّيْطَانُ لَمَّا قُضِيَ الْأَمْرُ إِنَّ اللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ الْحَقِّ وَوَعَدْتُكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ وَمَا كَانَ لِي عَلَيْكُمْ مِنْ سُلْطَانٍ إِلَّا أَنْ دَعَوْتُكُمْ فَاسْتَجَبْتُمْ لِي فَلَا تَلُمُونِي وَلَوْلُوا أَنْفُسَكُمْ مَا أَنَا بِمُصْرِخِكُمْ وَمَا أَنْتُمْ بِمُصْرِخِي﴾^(٢)

هذه هى النتيجة . وعد الله حقيقة راسخة ، ووعد الشيطان باطل ، وضلال ، وقد شهد بهذا الحق اعدى أعداء الحق وهو الشيطان فى موقف لا يملك فيه - مع حرصه على الاغواء - الا أن يقول الحق .

وليس فى هذا الموقف وحده ينهزم الباطل أمام الحق ، وتتلاشى

(١) سورة يونس/ ٥٥ .

(٢) سورة إبراهيم/ ٢٢ .

الأوهام أمام الحقائق ، ويتنصر الواقع الثابت أمام الخيال الزائل ...

ولكن هناك صور أخرى

فرعون والسحرة ... أمام موسى

لقد أعد السحرة كل ما يملكون من فنون السحر ، وحيله وأسبابه ، وأجمعوا أمرهم وشركاءهم ، وجاءوا صفاء ، معتزّين بفرعون ، وجبروته ، وتملك موسى الخوف من هذا التجمع الباغى ، وطمأنه ربه ، وقال له : ﴿وَأَلْقِ مَا فِي يَمِينِكَ تَلْقَفْ مَا صَعَوْا إِنَّمَا صَعَوْا كَيْدُ سَاحِرٍ وَلَا يُفْلِحُ السَّاحِرُ حَيْثُ أَتَى﴾^(١) ونفّذ نصيح ربه ، وواجه باطل السحر بالحق الذى علمه الله إياه وكانت الآية الرائعة التى هزت الجميع ، ودفعت أئمة الباطل إلى الإيمان واليقين ، فخرّوا لرب موسى وهارون ساجدين ﴿وَأَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى أَنِ أَلْقِ عَصَاكَ فَإِذَا هِيَ تَلْقَفُ مَا يَأْفِكُونَ فَرَفَعَ الْحَقُّ وَيَبْطَلْ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾^(٢)

وكانت موقعة لقي فيها الباطل مصرعه أمام عزمة الحق وورسوخه .

ومثال آخر

بنو إسرائيل .. والميثاق

أخذ الله الميثاق على بنى إسرائيل بأن يلتزموا كتاب الله ،

(١) سورة طه/ ٦٩ .

(٢) سورة الأعراف/ ١١٨ وفى سورة يونس وصف فرعون وسحرته آية موسى بأنها سحر ورد موسى عليهم بأنها حق : ﴿قَالَ مُوسَى : أَتَقُولُونَ لِلْحَقِّ لَمَّا جَاءَكُمْ أَسْحَرُ هَذَا ؟﴾ ولا يفلح الساحرون ﴿يونس/ ٧٧ .

ويستمسكوا بدينه ، ويقفوا عند حدوده ، فتقضوا الميثاق ،
وضيعوا الدين ، وزيفوا حقائقه ، وكذبوا على ربهم هؤلاء هم بنو
إسرائيل في عصر القضاة حين بدأ انحرافهم يستشري وضلالهم
ينتشر^(١) حكى الله لنا ذلك عنهم عبرة وموعظة ، فقال تعالى :
﴿فَخَلَفَ مِنْ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ وَرِثُوا الْكِتَابَ يَأْخُذُونَ عَرَصَ هَذَا
الْأَذْنَى وَيَقُولُونَ سَيُغْفَرُ لَنَا وَإِنْ يَأْتِهِمْ عَرَصٌ مِثْلُهُ يَأْخُذُوهُ أَلَمْ يُؤْخَذْ
عَلَيْهِمْ مِيثَاقُ الْكِتَابِ أَنْ لَا يَقُولُوا عَلَى اللَّهِ إِلَّا الْحَقَّ وَدَرَسُوا مَا فِيهِ
وَالْدَّارُ الْآخِرَةُ خَيْرٌ لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾^(٢)

وصورة أخرى

انتصار الحق .. في قصة يوسف

وصورة أخرى للحق وهو أمر واقع عندما ينتصر على الباطل ،
ويظهر عليه ، فينحسر مده بعد زحف وانتشار . نرى ذلك في قصة
يوسف ، وقد توالى عليه المحن ، فما كاد يخلص من محنة الحسد ،
حتى تلقته محنة المراودة التي انتهت به إلى السجن الذي لبث فيه
بضع سنين بلا جربة ، ثم أخذت تتضح معالم شخصيته ، وتظهر
دلائل براءته . وفي آخر تحقيق أجراه الملك بنفسه ، لم يجد المذنب
مناصا من الاعتراف بذنبه ، يبدو ذلك في قوله تعالى على لسان
امراة العزيز : ﴿قَالَتِ امْرَأَتُ الْعَزِيزِ النَّنْ حَصَّحَصَ الْحَقُّ أَنَا رَاوَدْتُهُ
عَنْ نَفْسِهِ وَانَّهُ لَمِنَ الصَّادِقِينَ﴾^(٣)

(١) راجع كتابنا : بنو إسرائيل في القرآن .

(٢) سورة الأعراف/ ١٦٩ .

(٣) سورة يوسف/ ٥١ .

وفى غزوة بدر

خرج النبي عليه الصلاة والسلام ، ومعه المهاجرون والأنصار إلى الجهاد ، وفيهم من كره الخروج ، لكن الجهاد حق أوجبه الله عليهم ، ليكونوا أعزاء ، وليتصر على أيديهم دينه ، وجادلوا النبي عليه الصلاة والسلام في هذا الحق المبين وهو الجهاد الذي توافرت بواعثه ، وفرضته ظروف الدعوة ، وأصبح حقاً عليهم فيقول تعالى ، مخاطباً نبيه محمداً عليه الصلاة والسلام : ﴿كَمَا أَخْرَجَكَ رَبُّكَ مِنْ بَيْتِكَ بِالْحَقِّ وَإِنَّ فَرِيقًا مِنَ الْمُؤْمِنِينَ لَكَارِهُونَ . يُجَادِلُونَكَ فِي الْحَقِّ بَعْدَمَا تَبَيَّنَ كَأَنَّمَا يُسَاقُونَ إِلَى الْمَوْتِ وَهُمْ يَنْظُرُونَ﴾^(١)

والمناقفون ... فى غزوة تبوك

وضعوا بذور الفتن وأثاروا القلاقل ، وظنوا أنهم بذلك يصلون إلى ما يريدون ثم ماذا كان ؟ ! يخبرنا رب العالمين بالنتيجة ، وهى أمر حتمى ، وواقع لا محالة إذ انتصر الحق ، وهو واقع ، على الباطل وهو زائل ، فيقول سبحانه : ﴿لَقَدْ ابْتِغَوْا الْفِتْنَةَ مِنْ قَبْلُ وَقَلَّبُوا لَكَ الْأُمُورَ حَتَّى جَاءَ الْحَقُّ وَظَهَرَ أَمْرُ اللَّهِ وَهُمْ كَارِهُونَ﴾^(٢)

ورسل الله إلى إبراهيم

وقد جاءوا لإبراز قضية الحق فى موقفين ، وفى مناسبة واحدة ،

(١) سورة الأنفال/ ٥ : ٦ .

(٢) سورة التوبة/ ٤٨ .

أولها : حق القدرة الإلهية في تجاوز الأسباب ، وثانيها حق الانتقام من الظالمين .

ففي الموقف الأول قدموا البشرى لإبراهيم بأن الله سيرزقه بغلام عليم هو اسحاق ، وهذا حق أرادته الله له ، مهما عارضت الأسباب ، مكافأة لإبراهيم على صبره فيما ابتلاه به ربه من الأمر بذبح وحيدته . وتملك الدهشة زوج إبراهيم ؟ إذ قالت : ﴿ قَالَتْ يَأْوِيَتُنِيَ الْإِذْ وَآنَا عَجُوزٌ وَهَذَا بَعْلٌ شَيْخٌ ﴾ ^(١) !! وفي آية أخرى يصف الله لنا وقع الأمر عليها ؛ إذ ضربت وجهها بيدها ﴿ فَصَكَتُ وَجْهَهَا وَقَالَتْ عَجُوزٌ عَقِيمٌ ﴾ ^(٢) بل إن الدهشة لم تترك إبراهيم نفسه ؛ إذ قال : ﴿ أَبَشِّرْهُنَّ عَلَىٰ أَن مَّسَىٰ الْكِبَرُ فِيمَ تَبَشِّرُونَ ﴾ ؟ ويأتى الرد على ألسنة الرسل بأنه حق إرادته الله ، ولا بد أن يكون : ﴿ قَالُوا بَشِّرْنَاكَ بِالْحَقِّ فَلَا تَكُنْ مِنَ الْقَانِطِينَ ﴾ ^(٣)

وفي الموقف الآخر

عندما عرف إبراهيم مهمة الرسل الذين بشروه ، وأنهم ملائكة الله جاءوا لعذاب قوم لوط ، وذهبوا إلى لوط فلم يعرفهم ، وسىء بهم وضاق بهم ذرعا ؛ لأنه لا يستطيع حمايتهم من بغى قومه الذين جاءوا يهرعون إليه ، فأعلموه مهمتهم ، وقالوا كما حدثنا الله : ﴿ إِنَّا رُسُلُ رَبِّكَ لَنَاصِلُوكَ الْيَكْ ﴾ ^(٤) وإننا جنناك من أجل حق جادلناك

(١) سورة هود/٧٢ .

(٢) سورة الذاريات/جزء من الآية ٢٩ .

(٣) سورة الحجر/٥٥ .

(٤) سورة هود/جزء من الآية ٨١ .

فيه قومك كثيراً ، بل إنهم سخروا منك وأنت تحذرهم بطش الله بهم . هذا الحق هو انتقام الله منهم ، وأن الظالم مهما طال الأمد به لن يفلت من العقوبة ، يقول تعالى : ﴿ قَالُوا بَلْ جِئْنَاكَ بِمَا كَانُوا فِيهِ يَمْتَرُونَ . وَآتَيْنَاكَ بِالْحَقِّ وَأَنَا لَصَادِقُونَ ﴾ ^(١)

ودعوة الحق ...

... من الحقائق الراسخة في هذا الوجود ، وهي واقع صحيح من حيث بواعثها وثمرتها ، وبحركتها عقل صحيح ودين قويم ، ودعوة الباطل لا أساس لها ولا استقرار . فكل ضراعة صادقة ، وابتهال خالص يتجه إلى الله وحده هو دعوة حق ، تؤتي ثمارها ، وتحقق إجابتها . والضراعة لغير الله باطل وضلال ، ولن توصل صاحبها إلى الشيء الذي يريده ، ولن ينال منها إلا العناء والبلاء . وكل دعوة تدعو الناس إلى خير وفلاح ، وتهديهم إلى دين الله الحق هي دعوة حق لأنها بملاحمها وسماتها لن تكون كذلك إلا إذا كانت صادرة من الواحد الحق .

يقول تعالى : ﴿ لَهُ دَعْوَةُ الْحَقِّ وَالَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ لَا يَسْتَجِيبُونَ لَهُمْ بِشَيْءٍ إِلَّا كِبَاسٌ كَقَبِهِ إِلَى الْمَاءِ لِيَبْلُغَ فَاهُ وَمَا هُوَ بِيَالِغِهِ وَمَا دُعَاءُ الْكَافِرِينَ إِلَّا فِي ضَلَالٍ ﴾ ^(٢)

ومادام الحق هو الواقع الصحيح الصادق ، الموائم للدين

(١) سورة الحجر/٦٣ . ٦٤ .

(٢) سورة الرعد/١٤ .

السماء ، والمسائر لسنن الله في الكون ، فهو لا يقبل المهادنة ولا
المفاوضة ، ولا أنصاف الحلول ، وليس من الحق أن نقف بالحق
عند منتصف الطريق ، ونوقف ظناً منا أنه القصد أو الاعتدال ،
وما هو باعتدال ؛ إذ أن الأمر كما يقول سبحانه : ﴿فَإِذَا بَعَدَ الْحَقُّ
إِلَّا الضَّلَالُ﴾ ؟ فإما حق وإما باطل ، ولا ثالث لهما .

ومن الحقائق التي يشهد بها الواقع : أن الحق في صراع دائم مع
الباطل

وهو صراع حتمي ينتهي بغلبة الحق ، إذ هو واقع ثابت ،
وقانون احتوى عناصر البقاء ، وأسباب الحياة والاستمرار ،
والباطل أمامه هراء ، شكل بلا معنى ومظهر بلا مضمون .

وقدم القرآن الحديث عن غلبة الحق في أكثر من موطن .
منها ما قدمناه في هذا الباب : الحق .. الأمر الواقع .
ومنهما ما يقدمه القرآن الكريم بمثابة قوانين قائمة في الكون العظيم
تشير إلى حتمية انتصار الحق في نهاية الأمر .

من ذلك قوله تعالى تعقياً على انتصار موسى ، والقلّة المؤمنة
على فرعون وملأه ﴿وَيُحَقِّقُ اللَّهُ الْحَقَّ بِكَلِمَاتِهِ وَلَوْ كَرِهَ
الْمُجْرِمُونَ﴾^(١)

وفي سياق الحديث عن تأييد الله تعالى لرسله وأتباعه يأتي هذا
التعقيب الذي يشير إلى ما منحه الله للحق من أسباب الغلبة حتى
تكون له العاقبة ، فيقول تعالى : ﴿بَلْ نَقْذِفُ بِالْحَقِّ عَلَى الْبَاطِلِ

(١) سورة يونس/ ٨٢ .

فَيَدْمَعُهُ فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ ﴿١﴾

وإذا كان انتصار الحق سنة ثابتة وقانوناً لا يتخلف فلأجل هذا نجد رب العالمين يأمر نبيه عليه الصلاة والسلام بتبليغ هذا القانون للناس كغيره من قوانين الدين والحياة ، فيقول تعالى : ﴿وَقُلْ جَاءَ الْحَقُّ وَزَهَقَ الْبَاطِلُ إِنَّ الْبَاطِلَ كَانَ زَهُوقًا﴾ (٢)

ويأتى هذا المثل القرآنى الحكيم ليعطى تجسيداً معبراً لهذا الصراع ، مستمداً من مشاهد هذا الكون الذى نعيش فى رحابه حيث نرى الحق والباطل كالماء والزبد ، أو المعدن الكريم وما يداخله من خبائث ، والمعركة هى ذات المعركة ، والنتيجة هى ذات النتيجة ، الماء يقهر الزبد ، والنار تستخلص المعدن النفيس من الدخيل الخسيس .

يقول تعالى : ﴿أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَسَالَتْ أَوْدِيَةٌ بِقَدَرِهَا فَاحْتَمَلَ السَّيْلُ زَبَدًا رَابِيًا وَمِمَّا يُوقِدُونَ عَلَيْهِ فِي النَّارِ ابْتِغَاءَ حِلْيَةٍ أَوْ مَتَاعٍ زَبَدٌ مِثْلُ مَثَلٍ كَذَلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ الْحَقَّ وَالْبَاطِلَ فَأَمَّا الزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَاءً وَأَمَّا مَا يَنْفَعُ النَّاسَ فَيَمْكُثُ فِي الْأَرْضِ كَذَلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ﴾ (٣)

٥ - الحقوق المتبادلة :

فله على عباده حقوق ، وحق الله على عباده أن يعبدوه ولا

(١) سورة الأنبياء/ ١٨ .

(٢) سورة الإسراء/ ٨١ .

(٣) سورة الرعد/ ١٧ .

يشركوا به شيئا .

وللعباد فيما بينهم حقوق متبادلة ، على أساسها تنتظم معاملتهم ، ويستقيم مجتمعهم ، وقد تكفل الدين الحق والكتاب العزيز ببيان هذه الحقوق جميعاً ، والتي تمثل جانباً من الحق .. القيمة ، الثابتة ، الخالدة .

لقد عنى الاسلام ، وكتابه الكريم بقضية الحق التي تحكم العلاقات .

والشريعة الإسلامية بما فيها من حكمة واحكام ، وعدالة وإحسان تنظم هذه الحقوق جميعاً فلا يطغى بعضها على بعض ، فتدعم علاقة المرء بربه ، وعلاقته بأسرته ، ومجتمعه وحكامه ، وولادة أمره ، على نحو ما جاء في الحديث الشريف : «إن لربك عليك حقاً ولبدنك عليك حقاً ، ولزوجك عليك حقاً ، ولولدك عليك حقاً فاعط كل ذي حق حقه»^(١)

وقد ذكر القرآن الكريم عدداً من الحقوق المتبادلة . وأشار إلى جانب من حقوق الله تبارك وتعالى هو أولى بها مما عداه ، ومن سواه .

الله أحق بالخشية :

وذلك لأنها من مظاهر العبادة ، والعبودية يجب أن نخلص لله وحده .

وقد عاتب الله نبيه في موقف خشى فيه ملام الناس ، وشائعات

(١) جزء من حديث رواه البخارى عن سلمان الفارسي .

الناس جميعاً . وقد حدثنا القرآن الكريم عن المنافقين الذين كانوا يبدلون الايمان الكاذبة ليرضى المسلمون عنهم ، ويستروا نفاقهم ، غافلين عنهم هو أحق بالرضا ، فيقول تعالى : ﴿يَخْلِفُونَ بِاللَّهِ لَكُمْ لِيُرْضَوْكُمْ وَاللَّهُ وَرَسُولُهُ أَحَقُّ أَنْ يُرْضَوْهُ إِنْ كَانُوا مُؤْمِنِينَ﴾^(١)

والحقوق المتبادلة بين الناس :

جاء القرآن الكريم بدعمها والذيادة عنها ، والتحذير من العدوان عليها ، سواء أكانت الحقوق تتصل بالمال ، أم الدم ، أم العرض ، أم نحوها من الحقوق الممنوحة للإنسان بأى صورة من الصور . ولا أدل على ذلك من موقف له شأنه فى رعاية حقوق الناس تصدى له الكتاب العزيز ، ونزلت فيه آية كريمة ، عظيمة الشأن تعد دستوراً للحياة الاجتماعية ولما لها من حقوق ، لا ينبغي اهدارها .

«لما تزوج الرسول ﷺ زينب بنت جحش دعا القوم فطعموا ، ثم جلسوا يتحدثون ، فإذا هو يتهيا للقيام ، فلم يقوموا ، فلما رأى ذلك قام ، فلما قام قام من قام ، وقعد ثلاثة نفر ، فجاء النبي ﷺ ليدخل ، فإذا القوم جلوس ، ثم إنهم قاموا فانطلقوا ، فجئت - المتحدث هنا أنس بن مالك رضى الله عنه - فأخبرت النبي ﷺ أنهم قد انطلقوا ، فجاء حتى دخل ، فذهبت أدخل فألقى الحجاب بينى وبينه ، فأنزل الله تعالى : ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَدْخُلُوا بُيُوتَ

(١) سورة التوبة/ ٦٢ .

الَّتِي إِلَّا أَنْ يُؤْذَنَ لَكُمْ إِلَى طَعَامٍ غَيْرَ نَاطِرِينَ إِنَاهُ وَلَكِنْ إِذَا دُعِيتُمْ فَادْخُلُوا فَإِذَا طَعِمْتُمْ فَانْتَشِرُوا وَلَا مُسْتَأْنِسِينَ لِحَدِيثٍ ، إِنَّ ذَلِكَ كَانَ يُؤْذَى الَّتِي فَيَسْتَحْيِي مِنْكُمْ وَاللَّهُ لَا يَسْتَحْيِي مِنَ الْحَقِّ ، وَإِذَا سَأَلْتُمُوهُنَّ مَتَاعًا فَسْأَلُوهُنَّ مِنْ وَرَاءِ حِجَابٍ ، ذَلِكَمْ أَطْهَرُ لِقُلُوبِكُمْ وَقُلُوبِهِنَّ ، وَمَا كَانَ لَكُمْ أَنْ تُؤْذُوا رَسُولَ اللَّهِ وَلَا أَنْ تُنْكِحُوا زَوَاجَهُ مِنْ بَعْدِهِ أَبَدًا إِنَّ ذَلِكَ كَانَ عِنْدَ اللَّهِ عَظِيمًا^(١)

في هذه الآية مجموعة من الحقوق ، منها ما يخص النبي الكريم ، ومنها ما هو عام لكل البيوت فما يخص النبي ﷺ حرمة أزواجه على الناس بعده .

وأما الحجاب ، وآداب الطعام ، وألا يجلس الضيف لانتظاره ، وألا تثقل على المضيف بالإكثار من الحديث بعد الأكل فتلك حقوق عامة .

لكن الذي يلفت النظر هو هذا الجزء من الآية ﴿وَاللَّهُ لَا يَسْتَحْيِي مِنَ الْحَقِّ﴾ هذه هي منزلة الحق بقررها رب العالمين ، وأن الحياء لا ينبغي أن يحول دون إعلان الحق ، لقد استحيا النبي الكريم من ضيوفه الثقلاء ، وعانى كثيراً ، وتحمل ، لكن رب العالمين لا يستحى من الحق ، ليكون ذلك درساً للثقلاء الذين يهدرون حقوق الناس .

ولقد كان للسيدة عائشة رضي الله عنها تعليق على الموقف ، وقد أحست بألم النبي ﷺ في تلك الليلة : «كفى بالثقلاء ذماً إن

(١) الحديث رواه البخاري عن أنس رضي الله عنه . وللحديث روايات عدة ذكرها ابن كثير عند تفسيره للآية والآية رقم ٥٣ من سورة الأحزاب .

أنزل فيهم قرآنا ،

وتمت آية أخرى تحمل كل أسباب الحفاظ على الحقوق
هى أكبر آية فى القرآن الكريم ، وتعد أقوى لبنة يضعها الكتاب
العزیز من أجل الحفاظ على الحق ، وصيانتة لصاحبه ، تلکم هى
آية الدين ، يقول تعالى : ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا تَدَايَيْتُمْ بِدِينٍ إِلَى
أَجَلٍ مُّسَمًّى فَاكْتُبُوهُ وَلْيَكْتُبَ بَيْنَكُمْ كَاتِبٌ بِالْعَدْلِ وَلَا يَأْبَ كَاتِبٌ
أَنْ يَكْتُبَ كَمَا عَلَّمَهُ اللَّهُ فَلْيَكْتُبْ وَلْيُمْلِلِ الَّذِي عَلَيْهِ الْحَقُّ وَلْيَتَّقِ اللَّهَ
رَبَّهُ وَلَا يَخْشَ مِنْهُ شَيْئًا ، فَإِنْ كَانَ الَّذِي عَلَيْهِ الْحَقُّ سَفِيهًا أَوْ ضَعِيفًا
أَوْ لَا يَسْتَطِيعُ أَنْ يُمِلَّ هُوَ فَلْيُمْلِلْ وَلِيُّهُ بِالْعَدْلِ...﴾ (١) الآية
لقد تكررت كلمة «الحق» فى الآية ، وذكرت مرتين ،
والمقصود بها فيها حقوق الناس فيما بينهم .

وهذا شاهد آخر يدعو إلى رد الحق لصاحبه ويعالج بإيجاز رائع
الحقوق فى العلاقات الزوجية .

فمن المعلوم شرعا أن من حق الزوج أن يعيد زوجته المطلقة إلى
عصمته أثناء عدتها فيقول تعالى : ﴿وَالْمُطَلَّقَاتُ يَتَرَبَّصْنَ بِأَنْفُسِهِنَّ
ثَلَاثَةَ قُرُوءٍ وَلَا يَحِلُّ لَهُنَّ أَنْ يَكْتُمْنَ مَا خَلَقَ اللَّهُ فِي أَرْحَامِهِنَّ إِنْ كُنَّ
يُؤْمِنَنَّ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَيُعْلِنَنَّ أَحَقُّ بِرَدِّهِنَّ فِي ذَلِكَ إِنْ أَرَادُوا
إِصْلَاحًا وَلَهُنَّ مِثْلُ الَّذِي عَلَيْهِنَّ بِالْمَعْرُوفِ وَلِلرِّجَالِ عَلَيْهِنَّ دَرَجَةٌ
وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ (٢)

(١) سورة البقرة/ ٢٨٤ .

(٢) سورة البقرة/ ٢٢٨ .

لقد أشارت الآية إلى هذا الحق من حقوق الزوج ، وأنه أحق بأن يردّها لعصمته ما دامت نية الإصلاح قائمة ، ثم نلاحظ أن الآية توزع كل حقوق الزوجية للطرفين على السواء ﴿وَلَهُنَّ مِثْلُ الَّذِي عَلَيْهِنَّ بِالْمَعْرُوفِ﴾ أى لمن من الحقوق مثل ما عليهن من الواجبات ، ثم تعطى رئاسة الأسرة ، والقوامة عليها للرجل بماله من إمكانيات ، وما يتحملة من مسئوليات لم تلزم بها المرأة ، ومن هنا ختمت الآية بقوله تعالى : ﴿وَاللِّرِّجَالِ عَلَيْهِنَّ دَرَجَةٌ﴾ ومن أعجب الأمور فى قضايا الحقوق موقف المنافقين من شريعة الله .

إن كان عليهم حق أعرضوا عن شرع الله ؛ لأنهم يعرفون حق المعرفة أنه سيؤخذ منهم حقوق الغير عليهم مهما كانوا ذوى جاه أو وجاهة ، وإذا كان الحق لهم أذعنوا لحكم الله وشرعه ، يقول تعالى : ﴿وَإِذَا دُعُوا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ إِذَا فَرِيقٌ مِنْهُمْ مُعْرِضُونَ . وَإِنْ يَكُنْ لَهُمُ الْحَقُّ يَأْتُوا إِلَيْهِ مُذْعِنِينَ﴾ ^(١) وهذا الموقف من المنافقين أكدته هذه الآية أيضاً : ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا إِلَى مَا أَنْزَلَ اللَّهُ وَإِلَى الرَّسُولِ رَأَيْتَ الْمُنَافِقِينَ يَصُدُّونَ عَنْكَ صُدُودًا﴾ ^(٢)

من صاحب الحق فى الولاية ؟

هى قضية من قضايا الحقوق بين الناس ، فمن الأحق بالولاية ؟

(١) سورة النور/ ٤٩ .

(٢) سورة النساء/ ٦١ .

أهو صاحب المال واسع الثراء ، أم صاحب الحسب والنسب ؟ أم أن الولاية لها شروط لا بد أن تتوافر فيمن يولى ليستطيع أن يقوم في الناس بالقسط ، وينهض بأعباء الولاية ؟

بنو اسرائيل بأهوائهم وضلالهم كانوا يرون المال - وهو معبودهم - أساسا ، ورب العالمين اختار لهم من يستطيع أن يسوسهم سياسة عادلة فلم يعجبهم برغم كفاءته .

إنها قصة طالوت مع قومه بني اسرائيل ، وستترك الآيات الكريمة تحدثنا بإيجاز عن القصة ثم تشير إلى الأحق بالولاية : ﴿وَقَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ إِنَّ اللَّهَ قَدْ بَعَثَ لَكُمْ طَالُوتَ مَلِكًا قَالُوا أَنَّى يَكُونُ لَهُ الْمُلْكُ عَلَيْنَا وَنَحْنُ أَحَقُّ بِالْمُلْكِ مِنْهُ وَلَمْ يُؤْتَ سَعَةً مِنَ الْمَالِ قَالَ إِنَّ اللَّهَ ابْتَلَاكُمْ بِنَهَرٍ فَمَنْ شَرِبَ فَلَيْسَ مِنِّي وَمَنْ لَمْ يَطْعَمْهُ فَإِنَّهُ مِنِّي إِلَّا مَنِ اغْتَرَفَ غُرْفَةً يَخُوضُ فَاطْرَأَهُ اللَّهُ طَرَفًا لِمَنِ النُّفُوسُ يَوْمَئِذٍ عَالِمٌ خَلِيمٌ﴾ (١)

وإذا أردنا أن نواصل الحديث في مجال الحقوق ، باحثين عن الأحق ، أو من الأولى بهذا الحق دون غيره ؟ نجد القرآن الكريم قدم لنا في حكمة صادقة ، وقول حكيم مجموعة من الأولويات يضعها المسلم منهاجاً له فلا يتجاوزها حتى لا يقع في الظلم عندما يصرف الحق لغير صاحبه .

وستتناولها - بجانب ما سبق - فيما يلي .

المؤمنون أولى بالتقوى :

وإذا كان في قلب الكافر حمية تدفعه إلى الحرص على تقاليد

(١) سورة البقرة/ ٢٤٧ .

الجاهلية ، وأعرافها فإن المؤمنين في قلوبهم التقوى ، وهم أحق الناس بها ، لتلزمهم شريعة الله ، وحكمه وقد جاءت المقارنة بين تقوى المؤمن ، وجاهلية الكافر في هذه الآية التي نزلت في سياق عدد من الآيات بعد صلح الحديبية . يقول تعالى : ﴿ إِذْ جَعَلَ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي قُلُوبِهِمُ الْحَمِيَّةَ الْحَمِيَّةَ الْجَاهِلِيَّةَ فَأَنْزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَى رَسُولِهِ وَعَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَأَلْزَمَهُمْ كَلِمَةَ التَّقْوَى وَكَانُوا أَحَقَّ بِهَا وَأَهْلَهَا وَكَانَ اللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا ۝ ﴾ (١)

فالتقوى مراقبة لله في القول والعمل ، وتذكر دائم لجلاله ، وأن يراك حيث دعاك وأن يفتقدك حيث نهاك ، ومن أولى بهذا المستوى في ميدان العقيدة والتفكير ، والسلوك من أهل الإيمان واليقين .

الداعي إلى الحق أحق بالاتباع

وهذا قضية قرآنية أخرى تسير على منهج المفاضلة أيضاً ، أعنى من الأحق وهي أولوية قرآنية لا إخال أحدا ممن استقامت عقولهم وفطرهم يختلف عليها .

من الأحق بالاتباع ؟ صاحب الهوى الذى يصوغ دعوته من هواه . ووسوسة شياطينه أم من يدعو إلى الحق بالمقاييس الإسلامية للحق ، ملتزماً بكتاب الله وسنة رسوله ، متبعاً الدعاة الهداة من قبله في مناهجهم ؟ !!

أنتع الذى يتخذ من الدعوة - وإن كانت حقاً - مغنى وربحاً وتجارة ووجهة بين الناس ؟ أم من يسلك سبيلها يتبغى وجه الله ،

(١) سورة الفتح/٢٦ .

ويرجو رضاه . ؟

لقد عرض الكتاب العزيز هذا التساؤل .

وترك الإجابة عنه لفطرة المؤمن بما تحمل من سلامة ورشد ،
وصدق في التصور فقال تعالى : ﴿ قُلْ هَلْ مِنْ شُرَكَائِكُمْ مَنْ يَهْدِي
إِلَى الْحَقِّ قُلْ اللَّهُ يَهْدِي لِلْحَقِّ أَفَمَنْ يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ أَحَقُّ أَنْ يُتَّبَعَ
أَمْ مَنْ لَا يَهْدِي إِلَّا أَنْ يَهْدَىٰ فَمَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ ﴾^(١)

ولا شك أن الإجابة الحصيفة الصادقة : أن من يهدي إلى الحق
أولى بالاتباع من هذا الذي لا يهدي إلى شيء إلا إذا هداه إليه غيره
لعماء وبكمه ؟

هذا فرق دقيق يتحدد به حقيقة الداعية الجدير بالاتباع .
على أن القرآن الكريم في موضع آخر قدم إجابة عن هذا
السؤال ؛ إذ يقول رب العزة سبحانه : ﴿ اتَّبِعُوا مَنْ لَا يَسْئَلُكُمْ
إِجْرًا وَهُمْ مُهْتَدُونَ ﴾^(٢)

المسجد الذي بنى لله وحده أحق المساجد بالصلاة فيه
وهذه قضية ثالثة تسير على المنهج ذاته .

المساجد كثيرة ، ومتعددة ، منها ما يقوم لله مطهرا من كل
شرك ، ووثنية ؛ ليعبد فيه الله وحده ، يرجى ثوابه ، ويخشى
عذابه ، ويلتقي فيه المؤمنون الصادقون على العبادة الخالصة ،
والحبة ، والمودة ، وتدير أسباب الخير لمجتمع المسلمين ، وهناك
أماكن تحمل هذا الاسم الكريم لكن لوثتها الأهواء ، واتخذت خطة

(١) سورة بونس/ ٣٥ .

(٢) سورة يس/ ٢١ .

ماكرة لتدبير الكيد والبلاء .

عرف المجتمع المسلم من النوع الأول مسجد قباء ، أول مسجد أسس في الاسلام ومسجد الرسول عليه الصلاة والسلام في المدينة ثالث ثلاثة من المساجد التي تشد الرحال إليها ، ومساجد أخرى كثيرة ، وعظيمة ارتفعت مناراتها في أنحاء المعمورة .

كما عرف المجتمع المسلم منذ نشأ من النوع الثاني مسجد الضرار الذي أنشأه المنافقون ليدخلوا فيه إلى مكائدهم وأحقادهم ضد الإسلام ورسوله عليه الصلاة والسلام ولم تكن أهدافهم واضحة أول الأمر ، وكان لا بد من بيان سماوى ، يوجه النبي عليه الصلاة والسلام ، وينبهه إلى ما يراد ، ثم لتأتى الاجابة عن هذا التساؤل أى المساجد أحق أن يقوم فيه رسول الله ﷺ ؟

وتنزل الآية الكريمة التالية ، وفيها الجواب : ﴿وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مَسْجِدًا ضِرَارًا وَكُفْرًا وَتَفْرِيقًا بَيْنَ الْمُؤْمِنِينَ وَإِرْصَادًا لِمَنْ حَارَبَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ مِنْ قَبْلُ وَلَيَحْلِفُنَّ إِنْ أَرَدْنَا إِلَّا الْحُسْنَىٰ وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ . لَا تَقُمْ فِيهِ أَبَدًا لَمَسْجِدَ أُسِّسَ عَلَىٰ التَّقْوَىٰ مِنْ أَوَّلِ يَوْمٍ أَحَقُّ أَنْ تَقُومَ فِيهِ ، فِيهِ رِجَالٌ يُحِبُّونَ أَنْ يَتَطَهَّرُوا وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُطَهَّرِينَ﴾ (١)

المؤمنون أحق بالأمن

قضية رابعة على الطريق ذاته

الأمن مطلب إنسانى ، يشعر فيه المرء بنعمة الحياة ، ويسعد

(١) سورة التوبة/ ١٠٨ .

بها ، وفي ظلاله يعمر الإنسان ، ويبنى ، ويتقدم ، وإذا فقدته الإنسان فقد ملذات الحياة كلها . ويتحقق الأمن في ظلال الإيمان الصادق ، الخالص لله ؛ إذ أن المرء يدرك مع الإيمان عناية القوى القادر ، ورعايته ، وحفظه ، فلا يبالي بأس غيره .

ومن الحكم الراشدة في هذا المجال قول الشاعر :

إذا الإيمان ضاع فلا أمان ولا دنيا لمن لم يحيى ديناً
ومن طلب الحياة بغير دين فقد جعل الفناء لها قريناً
لقد حاور إبراهيم عليه السلام قومه في هذه القضية . إنهم أشركوا بالله ، واتخذوا له أندادا ، ومن حمقهم أن خوفوه من آلهتهم ، في الوقت الذي لم يخافوا هم فيه من رب الأرض والسماء . وهذا أسوأ مستوى يهوى إليه العقل الإنساني .

وقد قدم لنا القرآن الكريم حوار إبراهيم عليه السلام عبرة وموعظة ودرسا ، وفيه الإجابة عن السؤال : من الأحق بالأمن ؟ يقول تعالى : ﴿ وَكَيْفَ أَخَافُ مَا أَشْرَكْتُمْ وَلَا تَخَافُونَ أَنَّكُمْ أَشْرَكْتُمْ بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزَّلْ بِهِ عَلَيْكُمْ سُلْطَانًا فَأَيُّ الْفَرِيقَيْنِ أَحَقُّ بِالْأَمْنِ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ . الَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ أُولَئِكَ لَهُمُ الْأَمْنُ وَهُمْ مُهْتَدُونَ ﴾ ^(١)

وهذا الرد الذي يحمل أسباب الإفحام والإبلاس آتى الله نبيه إبراهيم الحجة على قومه .

ومن الأحق بالشهادة ؟

قضية قرآنية خامسة على طريق إعطاء الحق لصاحبه

(١) سورة الأنعام/ ٨١ : ٨٢ .

الأحق بالشهادة المسلم العدل ، وإذا كانت الشهادة على وصية لرجل حضرته الوفاة فالأحق بالشهادة اثنان من عدول المسلمين^(١) فإن حضرته الوفاة وهو على سفر ، ولم يتيسر له شاهدان من المسلمين ، فليشهد اثنان غير عند المسلمين ، ويسلمهما المختصر ماله ليوصلاه إلى أهله ، ويأتى بهما ولى الأمر بعد الصلاة إذا تشكك أهل المتوفى فى السفر فى ذمتها ، فيحلفان بالله على أن هذا الذى وصى به الرجل ، وأشهدنا عليه ، وأنتا لا نبيع أمانتنا وذمتنا بئمن ، ولا نكتم شهادة . فإن تبين بعد هذا أنها كاذبان ، فيتقدم اثنان من أقارب المتوفى يقسمان بالله أنها أحق بالشهادة لقرابتهما وإسلامهما ، وأنها لن يعتديا ، وأن مال صاحبها هو كذا وكذا ، ثم يقضى بشهادتهما .

هذا الحكم وإن كان من الأحكام النادرة والقليلة لكن نزلت فيه آية عظيمة من كتاب الله تبين من الأحق بالشهادة ، والذى يحسم بقوله الخلاف ، سندكرها بعد .

لكن هذه الواقعة النادرة كان لها شهرة فى عهد السلف ، واختلفت فيها وجهات النظر كما أن لها قصة تعد سببا لنزول الآية

(١) حكى ابن جرير عن عكرمة بن عبيدة أنها اثنان من أقارب المتوفى ، أو من غيرهم أى من غير الأقارب إذا لم يوجد الأقارب . ويرى جمهور التابعين أن المراد بقوله تعالى : ﴿ذُوا عَدْلٍ مِنْكُمْ﴾ من المسلمين . ويقولون ﴿أَوْ آخَرَانِ مِنْ غَيْرِكُمْ﴾ من غير المسلمين . والأئمة الثلاثة لا يعيزون شهادة الذمى على المسلم ، وأجاز أبو حنيفة شهادة الذمى على الذمى . وتفرّد الإمام أحمد بجواز شهادة الذمى على المسلم . وفى الآية دلالة على هذا لكن بشرط السفر . وحضور الوفاة أى فى هذه الحالة بخاصة .

التي نزلت فيها .

موجزة هذه القصة ^(١) أن بديل بن أبى مریم ، مولى عمرو بن العاص ، وهو مهاجرى خرج فى سفر إلى الشام مع عدى بن زيد ، وتميم بن أوس ، وكانا نصرانيين ، وكان هدفهم التجارة ، ومرض بديل ، وحضرته الوفاة ، وكتب وصية أودعها فى متاعه ، وأمر صاحبيه أن يسلمها المتاع لأهله .

ويبدو أن صاحبيه ^(٢) أخذوا شيئا من المتاع ، عرفه أهله عندما كشفوا عن الوصية ، وعرفوا محتواها ، ورفعوا الأمر لرسول الله ﷺ ، فاستحلف الرجلين بعد الصلاة أنها ماخانا شهادة الله ، ثم أتى اثنان من أقارب «بديل» فحلفا أنها أحق بالشهادة ، وما اعتديا ، وأن لصاحبهما متاعا مفقودا عند هذين الشاهدين ^(٣) فى ظروف هذه القصة ذات المغزى الكبير ، والتي تبين إلى أى

(١) هذه القصة رواها البخارى وأبو داود وذكر ابن كثير عدة روايات بعضها غريب وبعضها مرسل ، وفيها الصحيح . راجع القرطبي وابن كثير . وتفسير المنار .
(٢) تذكر الروايات أن الرجلين هما : تميم الدارى ، وعدى بن بديل ، أسلم تميم سنة ٩ هـ وشعر بالإثم ورد المال إلى أقارب بديل - راجع ابن كثير ج ٢ ص ١١٢ وما بعدها .

(٣) هذه القصة تكررت مرة أخرى بعد عهد النبي ﷺ . روى الشعبي أن رجلا من المسلمين حضرته الوفاة ، ولم يجد شهودا من المسلمين فأشهد رجلين من أهل الكتاب ، فقدموا الكوفة . وأتيا أبا موسى الأشعري فأخبراه بتركته ووصيته ، فقال الأشعري : هذا أمر لم يكن بعد الذى كان على عهد الرسول ﷺ ، ثم أحلفها بالله ما خانا ولا كذبا ولا بدلا . ولا كتبنا ، ولا غيرا ، وإنما لوصية الرجل وتركته . ثم أمضى شهادتهما . ويروى ابن جرير أن ابن عباس قال لأبى موسى . استحلفها بعد صلاتها فى دينها فإنها لا يباليان بالحلف بعد صلاة العصر عندنا « راجع تفسير ابن جرير الطبري . وابن كثير للآية » .

مدى يهتم الاسلام بقضية الحق ، والحفاظ عليها ، وتحرى أهله
 نزلت هذه الآية الكريمة التى بينت : من الأحق بأن يقوم بالشهادة
 مقام الشاهدين الآمين اللذين استبان ضلالهما . يقول تعالى :
 ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا شَهَادَةُ بَيْنَكُمْ إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ حِينَ
 الْوَصِيَّةِ اثْنَانِ ذَوَا عَدْلٍ مِنْكُمْ أَوْ آخَرَانِ مِنْ غَيْرِكُمْ إِنْ أَنْتُمْ صَرَيْتُمْ فِي
 الْأَرْضِ فَأَصَابَتْكُمْ مُصِيبَةُ الْمَوْتِ تَحْسِنُوهُمَا مِنْ بَعْدِ الصَّلَاةِ
 فَيقْسِمَانِ بِاللَّهِ إِنْ اَرْتَبْتُمْ لَا نُشْرِي بِهِ ثَمَنًا وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَى وَلَا نَكْتُمُ
 شَهَادَةَ اللَّهِ إِنَّا إِذَا لَمِنَ الْإِثْمِينَ . فَإِنْ عُرِيَ عَلَىٰ أَنَّهُمَا اسْتَحَقَّا إِثْمًا
 فَأَخْرَانِ يَقُومَانِ مَقَامَهُمَا مِنَ الَّذِينَ اسْتَحَقَّ عَلَيْهِمُ الْأُولَيَانِ ^(١)
 فَيقْسِمَانِ بِاللَّهِ لَشَهَادَتُنَا أَحَقُّ مِنْ شَهَادَتِهِمَا وَمَا اعْتَدَيْنَا إِنَّا إِذَا لَمِنَ
 الظَّالِمِينَ ^(٢)

للزرع حق على صاحبه

إن لما تخرجه الأرض من زروع وثمار حقا يجب أن يؤدي ،
 وحققها فى المبادرة بإيتاء ما يستحق عليها من زكاة للفقراء
 والمساكين ، وغيرهم من مصارف الزكاة قال تعالى : ﴿وَهُوَ الَّذِي
 أَنْشَأَ جَنَّاتٍ مَعْرُوشَاتٍ وَغَيْرَ مَعْرُوشَاتٍ وَالنَّخْلَ وَالزَّرْعَ مُخْتَلِفًا أَكْلُهُ
 وَالزَّيْتُونَ وَالرُّمَانَ مُتَشَابِهًا وَغَيْرَ مُتَشَابِهٍ كُلُوا مِنْ ثَمَرِهِ إِذَا أَثْمَرَ وَآتُوا

(١) هما اثنان من أقارب المتوفى . يقول ابن كثير : وهذا التحليف للورثة والرجوع إلى
 قوتها والحالة هذه . كما يخلف أولياء المقتول إذا ظهر لوث فى جانب القاتل فيقسم
 المستحقون على القاتل ، فيندفع برمته إليهم . كما هو مقرر فى باب القسامة من
 الأحكام .

(٢) سورة المائدة/ ١٠٧ .

حَقُّهُ يَوْمَ حَصَادِهِ وَلَا تُسْرِفُوا إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ ﴿١﴾
 ومما يلفت النظر النهى عن الإسراف في سياق الأمر بالزكاة
 ليستبين لأولى الألباب أن الإسلام يرفض الإفراط والتفريط .

وللقرب حق على قريبه

بأن يوليه برّه ووده ، ويشمله بعطفه ، ويشاركه آلامه
 وسروره ، ويسارع إلى قضاء حاجاته ، وإن كان فقيرا أثره
 بالصدقة ، قال تبارك وتعالى : ﴿وَاتِذَا الْقُرْىُ حَقَّهُ وَالْمَسْكِينُ
 وَابْنُ السَّبِيلِ وَلَا تَبْذِرْ تَبْذِيرًا﴾ (٢)

وتجدر الملاحظة ذاتها عندما نرى التحذير من التبذير ملازما
 للأمر برعاية حقوق القرابة . وإنها وسطية الاسلام التي تؤكد أنه
 دعوة الحق . وكفى .

٦ - العلم الصحيح ... حق :

العلم قواعد ثابتة ، وأصول راسخة انتهى الأمر فيها إلى أنها
 قضايا مسلمة . ومن هذه القواعد ما يصل إليه الإنسان عن طريق
 الدين الذى جاء به رسول من عند الله ، مزوداً بآية تثبت رسالته ،
 وتؤيد نبوته ، وهذا يكون ما يخبر به الرسول عن ربه حقائق علمية
 لا تقبل المجادلة ، إذ توافرت لها أسباب الصحة والاستقامة من
 حيث مصدرها ، وأسلوب توصيلها ، وصيانة الإنسان الموصل

(١) سورة الأنعام/ ١٤١ .

(٢) سورة الاسراء/ ٢٦ . وانظر سورة الروم/ ٣٨ .

(الرسول) من تأثير أهواء الآخرين عليه وهو المعروف في علم العقيدة بعصمة الأنبياء .

وقد أسلفنا أن القرآن حق ، وهو مجموعة من المعارف ، والعلوم الصحيحة ، جاءتنا من لدن حكيم خبير ، وقد نزل بها الروح الأمين على قلب رسول الله ﷺ ليكون من المنذرين .

وصحة المعارف والأخبار والعلوم القرآنية ، لم يكن مجرد حكم أصدرته عاطفة الإنسان المسلم ، وإنما هو حكم الواقع ، ونتيجة المعاشة والمصارعة مع النظم والمعارف التي ظهرت في فترات التاريخ المختلفة ، والذي نقطع به ، ويقطع به معنا كل منصف أنه قد مضى على نزول القرآن الكريم أربعة عشر قرناً ، ولم ينجح أعداؤه في النيل منه ، أو إثبات فساد حكم من أحكامه ، أو تكذيب خبر من أخباره ، أو التهوين من أمر شرعة من شرائعه ، بل العكس من هذا يمر الزمن فيضيف جديداً يثبت عظمة هذا الكتاب ، وأنه حق من لدن حكيم خبير ، وليس للباطل قدرة على التسلط عليه .

وهناك علوم يصل إليها الإنسان عن طريق العقل الصحيح ، المجرد من الأهواء ، البعيد عن التأثير بأعراف البيئة وتقاليدها الموروثة ، أو بأفكار الآخرين .

وهناك علوم يصل إليها الإنسان عن طريق الحسن والتجربة . ويقابل العلم الصحيح الظن ، والحدس ، والوهم وهي أمور قد يصدر الإنسان أحكامه بناء عليها فتكون أحكاماً غير علمية ، وبعيدة عن الحق .

لقد جاء في القرآن الكريم التحذير من أكثر الظنون فقال تعالى : ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اجْتَنِبُوا كَثِيرًا مِّنَ الظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ الظَّنِّ إِثْمٌ﴾ (١)

وهذا التوجيه من العليم الخبير له شأنه ؟ لأنه الظنون تصدر غالباً مصبوغة بالأهواء متأثرة بألوان من الهواجس والانفعالات التي تبعد بها عن الحق وعن الواقع .

ولذا جاء في نصيح النبي ﷺ : «إياكم والظن فإن الظن أكذب الحديث» (٢)

وقد دعا النبي عليه الصلاة والسلام أمته إلى عبادة الله وحده ، وحذرهم من اتخاذ الأنداء ، والوسطاء ، والشفعاء ، وقال عن اللات والعزى ومناه ، كما تحدث الكتاب العزيز : ﴿إِنَّ هِيَ إِلَّا أَسْمَاءُ سَمَّيْتُمُوهَا أَنْتُمْ وَأَبَاؤُكُمْ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ بِهَا مِنْ سُلْطَانٍ إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَمَا تَهْوَى الْأَنْفُسُ وَلَقَدْ جَاءَهُمْ مِنْ رَبِّهِمْ الْهُدَى﴾ (٣)

فبين لهم أن اتخاذ الأصنام وسيلة ليس قائماً على علم صحيح ، وإنما هو قائم على ظن وهوى ، ولا يعتمد بعلم يقوم على أساس باطل ؛ إذ هو بهذا أدنى من أن يسمى علماً .

وهكذا يحكم القرآن الكريم على المعلومات التي واجه بها أكثر العرب رسالة النبي محمد عليه الصلاة والسلام في الجانب الإلهي وغيره بأنها معلومات ظنية ، لا تسمى علماً ، ولا تعد حقاً ، لأن

-
- (١) جزء من الآية رقم/١٢ من سورة الحجرات .
 (٢) جزء من الحديث الشريف الذي رواه البخاري عن أبي هريرة .
 (٣) جزء من الآية/٢٣ من سورة النجم .

العلم الصحيح - وحده - هو الحق فيقول تعالى : ﴿وَمَا يَتَّبِعْ أَكْثَرُهُمْ إِلَّا ظَنًّا إِنَّ الظَّنَّ لَا يُغْنِي مِنَ الْحَقِّ شَيْئًا إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِمَا يَفْعَلُونَ﴾ (١)

والمفهوم من الآية أن معارفهم .. فيما يتصل بالله - وهم ، لا تفيد علما صحيحا ، وبالتالي لا توصل إلى حق .

٧ - العدل حق :

العدل وجه من وجوه الحق ، وصورة من صوره . وهو يلتقي مع المعنى الشامل للحق ، بأنه قيمة ثابتة ، وحقيقة راسخة ، وصف الله نفسه بالعدالة ، وسمى نفسه .. بالعدل .. وحرّم الظلم على نفسه ، وجعله محرما بين الناس . وعلى قدر ما في الظلم من اعتداء على الحقوق بقدر ما في العدل من رعاية لها .

والعدل بالنسبة لله : أنه أعطى كل شيء خلقه ، وهداه إلى أسباب تحصيل رزقه ، وزوده بما يستعين به على ظروف حياته . وإذا كلف زود المكلف بكل ما يعينه على تنفيذ ما كلف به . ويعفو عما يصدر عن المكلف خارجا عن حدود طاقته ، أو بدون إرادته ، ووضع سبحانه أسمى وأثبت قواعد العدل في علاقته بخلقته مثل قوله سبحانه : ﴿كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ﴾ (٢) ﴿مَنْ أَهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهْتَدِي لِنَفْسِهِ وَمَنْ ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا ،

(١) سورة يونس/ ٣٦ .

(٢) سورة المدثر/ ٣٨ .

وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى ﴿١﴾ ﴿كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَى نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ أَنَّهُ
مَنْ عَمِلَ مِنْكُمْ سُوءًا بِجَهَالَةٍ ثُمَّ تَابَ مِنْ بَعْدِهِ وَأَصْلَحَ فَأَنَّهُ غُفُورٌ
رَحِيمٌ﴾ (٢)

والعدل في علاقات الناس بعضهم ببعض يعني بالنسبة للفرد :
الموازنة بين الروح والجسد ، أو مطالب الدين ، ومطالب الدنيا ،
كما يعني أيضاً إعطاء الحق لصاحبه ، ولذا وجدنا القرآن الكريم يعد
الشرك ظلماً ، والمشركين ظالمين ؛ لأنهم صرفوا حق الله في العبودية
الخالصة إلى غيره ، قال تعالى : ﴿إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾ (٣) ،
وقال تعالى : ﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ أُولَئِكَ لَهُمُ
الْأَمْنُ وَهُمْ مُهْتَدُونَ﴾ (٤) والظلم هنا هو الشرك (٥) وقال :
﴿وَالْكَافِرُونَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾ (٦)

والعدل في العلاقات بين الناس يعني أيضاً المساواة بين الناس
صغيراً ، أو كبيراً ، وقد دعا الله تبارك ، وتعالى الناس جميعاً إليه ؛
إذ قال : ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ بِالْقِسْطِ شُهَدَاءَ لِلَّهِ وَلَوْ
عَلَىٰ أَنْفُسِكُمْ أَوِ الْوَالِدِينَ وَالْأَقْرَبِينَ إِنْ يَكُنْ غَنِيًّا أَوْ فَقِيرًا فَاللَّهُ أَوْلَىٰ
بِهِمَا فَلَا تَتَّبِعُوا الْهَوَىٰ أَنْ تَعْدِلُوا﴾ (٧)

(١) سورة الإسراء/١٥ .

(٢) سورة الأنعام/٥٤ .

(٣) جزء من الآية/١٣ من سورة لقمان .

(٤) سورة الأنعام/٨٢ .

(٥) راجع تفسير القرطبي للآية السابقة .

(٦) جزء من الآية/٢٥٤ من سورة البقرة .

(٧) سورة النساء/١٣٥ .

وقال تعالى : ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ لِلَّهِ شُهَدَاءَ بِالْقِسْطِ﴾ (١)

والذى يعيننا أن نشبهه هنا أن العدل حق ، وأن القرآن الكريم فى تناوله للمعنى الحق ولفظه ذكره فى عدة مواطن بمعنى العدل . والعلاقة بينهما - فى الواقع - وثيقة كل الوثيقة ، لا تغيب عن العقل الصحيح ، والمنطق السليم .

ونظرة إلى الآيات التى عبرت عن العدل بلفظ الحق نجدها تتصل بالله ، وتؤكد عدالته التى لا ريب فيها ، يوم يقوم الناس لرب العالمين ، فكلها تتصل بيوم القيامة ومشاهده لا نستثنى منها الا آية واحدة تتصل بالعدل بين الناس .

كما أن هناك موقفا قرآنيا يمثل أعلى مستويات العدالة والانصاف .

وسنبدا بالآيات التى تتحدث عن الحق أى العدل يوم الحساب .

يقول الله تعالى : ﴿وَاللَّهُ يَقْضِي بِالْحَقِّ وَالَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ لَا يَقْضُونَ بِشَيْءٍ﴾ (٢) والمقصود «بالحق» هنا فى قضاء الله عدالته فى محاسبته لخلقه ، وفصله بينهم ، وهى حق أى أمر ثابت لا مرأى فيه .

ويتأكد هذا المعنى فى هذه الآية : ﴿يَوْمَئِذٍ يُوقِفُهُمُ اللَّهُ دِينَهُمُ

(١) سورة المائدة/٨ .

(٢) سورة غافر/٢٠ .

الْحَقُّ وَيَعْلَمُونَ أَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ الْمُبِينُ» (١) والمعنى يوفهم ما يستحقونه من الجزاء العادل .

ويقول سبحانه : ﴿وَالْوَزْنُ يَوْمَئِذٍ الْحَقُّ﴾ (٢) أى عند الله موازين عادلة تعطى كل إنسان حقه ، وهى التى جاء فى قوله تعالى : ﴿وَنَضَعُ الْمَوَازِينَ الْقِسْطَ لِيَوْمِ الْقِيَمَةِ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئًا﴾ (٣)

وفى موضع آخر تتحدث الآيات عن القضاء بالحق ، فى موقف عظيم ، يشهده الأنبياء والشهداء ، يقول تعالى : ﴿وَأَشْرَقَتِ الْأَرْضُ بِنُورِ رَبِّهَا وَوُضِعَ الْكِتَابُ وَجِيءَ بِالنَّبِيِّينَ وَالشُّهَدَاءِ وَقُضِيَ بَيْنَهُم بِالْحَقِّ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾ (٤) وشهود النبيين والشهداء تأكيد لقضية العدالة الحقة ، أو الحق العادل ، على أن القاضى الأعظم ، وهو خير الفاصلين يعلم السر وأخفى ؟ ولذا قال بعد الآية السابقة : ﴿وَوُفِّيَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَا عَمِلَتْ وَهُوَ أَعْلَمُ بِمَا يَفْعَلُونَ﴾ (٥)

وبعد أن ينتهى الموقف العظيم بثواب من يثاب ، وعقاب من يعاقب ، وسوق الكافرين إلى النار زمرا ، وسوق المتقين إلى الجنة زمرا ، يمثل الملائكة حول عرش الرحمن يسبحون بحمده ، بعد الفصل بين الخلائق ؟ إذ يقول سبحانه : ﴿وَتَرَى الْمَلَائِكَةَ حَافِينَ مِنْ حَوْلِ الْعَرْشِ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَقُضِيَ بَيْنَهُم بِالْحَقِّ وَقِيلَ

(١) سورة النور/ ٢٥ .

(٢) سورة الأعراف/ ٨ .

(٣) سورة الأنبياء/ ٤٧ .

(٤) سورة الزمر/ ٦٩ .

(٥) سورة الزمر/ ٧٠ .

الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١﴾

وأمر الله نبيه محمدا عليه الصلاة والسلام بأن يبصر المستكبرين بهذا الموقف الذي لا مكان فيه إلا للعدل ، وكلمة الحق ، فيقول : ﴿قُلْ يَجْمَعُ بَيْنَنَا رَبُّنَا ثُمَّ يَفْتَحُ بَيْنَنَا بِالْحَقِّ وَهُوَ الْفَتَّاحُ الْعَلِيمُ﴾ (٢) وطلب شعيب من الله أن يفصل بالحق بينه وبين قومه عندما اشتد عليه أذاهم ، وهددوه ومن آمن به بالخروج من قريتهم ، فقال : ﴿رَبَّنَا افْتَحْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ قَوْمِنَا بِالْحَقِّ وَأَنْتَ خَيْرُ الْفَاتِحِينَ﴾ (٣)

ويحدثنا القرآن الكريم عن ضراعة النبي ﷺ لربه ، إذ يدعو آملا في عدله ، مؤكدا رحمته ، وقدرته التي يستعين بها على ما يقوله قومه ، ويفترونه من ألوان الكذب والضلال : ﴿قَالَ رَبِّ احْكُم بِالْحَقِّ وَرَبُّنَا الرَّحْمَنُ الْمُسْتَعَانُ عَلَى مَا تَصِفُونَ﴾ (٤) وعن مالك عن زيد بن أسلم كان رسول الله ﷺ إذا شهد غزاة قال «رب احكم بالحق» (٥)

وفي عقاب الظالمين البغاة الذين وقفوا في وجه الرسالات ، وسخروا من الرسل ، وأنكروا حقائق الدين . عندما يعاقبهم يعاقبهم بالحق ، ويقضى فيهم بالعدل ، يقول تعالى في شأن ثمود ﴿فَأَخَذْنَاهُمْ

(١) سورة الزمر/ ٧٥ .

(٢) سورة سبأ/ ٢٦ .

(٣) سورة الأعراف/ ٩٩ .

(٤) سورة الأنبياء/ ١١٢ .

(٥) ذكر ابن كثير هذا الحديث في تفسيره لسورة الأنبياء .

الصَّيْحَةُ بِالْحَقِّ فَجَعَلْنَاهُمْ غُثَاءً فَبَعْدًا لِلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ^(١)
 بهذا نرى أن لفظ «الحق» جاء بمعنى العدل في آيات تتحدث
 عن يوم القيامة ، وما فيه من ميزان وجزاء ، وارتباطه بالعدل في
 كل مشاهدته ، ومواقفه ، كما تحدث ربنا عن الانتقام بالحق والعدل
 من الأمم التي كذبت رسلها ، وكفرت بآيات ربها .

وبقيت آية أخيرة

جاءت في مجال الدعوة إلى الحكم بالحق فيما بين الناس
 دخل خصمان على داود عليه السلام في المحراب ، ففرغ منهم ،
 لأنها اقتحما السور ، إذ وجدا الباب مغلقا دون داود عليه السلام
 الذي تعود أن يعتزل الناس يوما للعبادة ، ويخرج يوما للفصل بينهم ،
 وكان هذا شأنه ، فقال الخصمان ، كما أخبرنا القرآن الكريم :
 ﴿لَا تَحْفُ خَصْمَانِ بَغَى بَعْضُنَا عَلَى بَعْضٍ فَأَحْكُم بَيْنَنَا بِالْحَقِّ
 وَلَا تُشْطِطْ وَاهِدِنَا إِلَى سَوَاءِ الصِّرَاطِ﴾^(١)

فالخصمان هنا طلبا منه الفصل في قضيتهما ، محذرين إياه من
 الشطط ، ملتجئين منه وهو رسول قبل أن يكون ملكا أن يهديهما
 السبيل الأقوم فيما اختلفا فيه .

وتستمر الآيات في عرض القضية بين الرجلين : صاحب التسع
 والتسعين نعجة وزميله صاحب النعجة الواحدة ، وأراد أن يضمها
 لتعاجه لتكتمل له المائة . ويفهم من سياق القصة أنه ما كان لداود

(١) سورة المؤمنون/٤١ .

(٢) سورة ص/٢٢ .

عليه السلام أن يعزل نفسه عن الناس بالعبادة فترة من الزمن بل لا بد من مزج أوقات العبادة بأوقات قضاء المصالح ، أو أنه ما كان ينبغي له أن يصدر حكماً بمجرد سماع الدعوى ، وإن كان البغى يظهر فيها من أول وهلة ؛ إذ من قواعد العدالة أن تسمع حجة المدعى عليه . وسواء أكان المأخذ هذا أم ذاك فالشيء الذى يؤكد أن داود عليه السلام برىء كل البراءة مما نسبته إليه القصص ورواة الاسرائيليات من حديث النساء التسع والتسعين اللاتي أراد أن يكملهن مائة بالسطو على زوجة وزيره «أوريا» الذى أرسله للحرب ليموت ، ويخلو له وجه زوجته ؛ إذ أن هذه القصة الباطلة نسجها خيال بنى إسرائيل الذين درجوا أن ينسبوا لأنبيائهم ما لا ينبغي أن ينسب لعامة الناس ، وجاء الكتاب الحق ، فبرأ ساحتهم ، ووضعهم الموضع الكريم الذى يستحقونه بجهادهم ونضالهم . وبناء على هذا فإن الأمر بالحكم بالحق الذى صدر لداود من ربه ، والذى تحمله الآية التالية ، أساسه الأمران الأولان - فيما نعلم - لا القرية الأخيرة التى يرددها القصص ، يقول تعالى : ﴿يَا دَاوُدُ إِنَّا جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً فِي الْأَرْضِ فَاحْكُم بَيْنَ النَّاسِ بِالْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعِ الْهَوَىٰ فَيُضِلَّكَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ إِنَّ الَّذِينَ يَضِلُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ مَّا نَسُوا الْحِسَابَ﴾ (١)

وهذا الموقف القرآنى :

قمة الانتصار لقضية الحق والعدل .. وتلكم التفاصيل بإيجاز :

(١) سورة ص/ ٢٦ .

سرق طعنة بن أبيرق درعاً لرجل من الأنصار ، ووضعها في وعاء دقيق ، ولما بدا له أن ذرات الدقيق التي تنتهي إلى بيته قد فضحته ، وأن أمره رفع إلى رسول الله ﷺ ، أخذ الدرع ، وألقى بها في بيت اليهودي زيد بن السمين . وانطلق نفر من عشيرته ليلاً إلى رسول الله ﷺ فقالوا : يا نبي الله ، إن صاحبنا برىء ، وإن صاحب الدرع فلان ، وقد أحطنا بذلك علماً ، فاعذر صاحبنا على رءوس الناس ، وجادل عنه ، فإنه إن لم يعصمه الله بك يهلك ، فقام رسول الله ﷺ ، فبرأه وعذره على رءوس الناس ، وهم بإقامة الحد على اليهودي البريء^(١) ، وتنزل في هذه المناسبة عشر آيات من الكتاب العزيز تبرز الحرص البالغ على أن يقوم في أمة الإسلام الحق والعدل للناس جميعاً سواء أكانوا مسلمين أم غير مسلمين ؛ إذ هذه الآيات جاءت لإنقاذ يهودى مظلوم ، فأى تشريع على وجه البسيطة يرعى القيم ، ويستصر للحق والعدل كهذا التشريع الحكيم .

ولننظر للآيات التي نزلت في هذا الصدد ففيها عبر بالغة ومواعظ حكيمة ، وتشريعات سديدة . يقول تعالى : ﴿ إِنَّا أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِتَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ بِمَا أَرَاكَ اللَّهُ وَلَا تَكُنْ لِلْخَائِثِينَ خَصِيماً * وَأَسْتَغْفِرُ اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ غَفُوراً رَحِيماً * وَلَا تُجَادِلْ عَنِ الَّذِينَ يَخْتَانُونَ أَنْفُسَهُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ مَنْ كَانَ خَوَّاناً أَثِيماً * يَسْتَخْفُونَ مِنَ النَّاسِ وَلَا يَسْتَخْفُونَ مِنَ اللَّهِ وَهُوَ

(١) راجع في هذه القصة تفسير الكشاف . والفرضي . وابن كثير .

مَعَهُمْ إِذْ يَبْتَغُونَ مَالًا يَرْضَوْنَ مِنَ الْقَوْلِ وَكَانَ اللَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطًا * هَآأَنْتُمْ هَؤُلَاءِ جَادَلْتُمْ عَنْهُمْ فِي الْحَيَوةِ الدُّنْيَا فَمَنْ يُجَادِلُ اللَّهَ عَنْهُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ أَمْ مَنْ يَكُونُ عَلَيْهِمْ وَكِيلًا * وَمَنْ يَعْمَلْ سُوءًا أَوْ يَظْلِمْ نَفْسَهُ ثُمَّ يَسْتَغْفِرِ اللَّهَ يَجِدِ اللَّهَ غَفُورًا رَحِيمًا * وَمَنْ يَكْسِبْ إِثْمًا فَإِنَّمَا يَكْسِبْهُ عَلَى نَفْسِهِ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا * وَمَنْ يَكْسِبْ خَطِيئَةً أَوْ إِثْمًا ثُمَّ يَرْمِ بِهِ بَرِيئًا فَقَدِ احْتَمَلَ بُهْتَانًا وَإِثْمًا مُبِينًا * وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكَ وَرَحْمَتُهُ لَهَمَّتْ طَائِفَةٌ مِنْهُمْ أَنْ يُضْلَوْكَ وَمَا يُضْلَوْنَ إِلَّا أَنْفُسُهُمْ وَمَا يَضُرُّونَكَ مِنْ شَيْءٍ وَأَنْزَلَ اللَّهُ عَلَيْكَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُنْ تَعْلَمُ وَكَانَ فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكَ عَظِيمًا * لَا خَيْرَ فِي كَثِيرٍ مِنْ نَجْوَاهُمْ إِلَّا مَنْ أَمَرَ بِصَدَقَةٍ أَوْ مَعْرُوفٍ أَوْ إِصْلَاحٍ بَيْنَ النَّاسِ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللَّهِ فَسَوْفَ نؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿١١﴾

هذه عشر آيات إن لم تكن نزلت في هذه الواقعة فإن سياق هذه الآيات وتتابعها على هذه الصورة يعالج الأحداث المحيطة بها . وبالبقاء نظرة على هذه الآيات نخرج بالنتائج التالية .

١ - تذكير الرسول عليه الصلاة والسلام بالكتاب الحق الذي أنزل عليه ، وأنه بناء على ذلك لا بد أن يحرص على الاستمسك بمنهجه ، والاجتهاد في ضوء ما قرره في مجال التقاضي والفصل بين الخصوم .

٢ - دعوة إلى الاستغفار مما فكر وشرع فيه .

٣ - تحذير من الدفاع عن الخونة الذين يراقبون الناس ، ولا

(١) سورة النساء - الآيات من ١٠٥ - ١١٤ .

يخافون الله ، فإنهم إن وجدوا من يدافع عنهم في الدنيا سيفتقدون
تماما من يفعل ذلك لهم يوم القيامة .

٤ - نزلت بهذه المناسبة ثلاثة تشريعات : أولها : من حق
المخطيء أن يستغفر فيتوب الله عليه ، وثانيها : كل إنسان يتحمل
ذنوب نفسه فلا تزر وازرة وزر أخرى ، ثالثها : من يفعل الذنب
ويلقه على برىء فقد تضاعف إثمه وعظم ضلاله .

٥ - تشير الآيات إلى أن تذكير النبي عليه الصلاة والسلام
بحقيقة الواقعة وأن اليهودى برىء هو نوع من العصمة التي أرادها
الله لأنبيائه ، ولولاها لأثرت فيه أهواء آخرين .

٦ - تحتتم الآيات بالتحذير من كل شيء يدبر سرا ، وأن أكثر
النجوى لا خير فيه ما لم يكن من أجل أمر بمعروف ، أو صدقة
سر ، أو من أجل الإصلاح بين الناس .

٨ - القول الصادق حق :

يلتقى الصدق مع الحق ، فالإنسان يصدق إذا تحدث بما يطابق
الواقع ، إذا كان يحكى ما حدث بالصورة التي يحدث بها ، وإذا
كان يعد في المستقبل بأمور هو حريص على الحرص على الوفاء بها
وإنجازها .

ويصدق الإنسان إذا كان لسانه ترجمانا أميناً لقلبه ، يكشف
بحق أحاسيسه ، ومشاعره في غير التواء ، أو غموض .
والحق يستمد قيمته من ثبوته ، وأنه واقع لا ريب فيه ،
والصدق يستمد قيمته من مطابقته للحق .
ومن أجل هذا كل قول صادق طابق الواقع قال عنه القرآن

الكريم : إنه حق وكل قول كاذب وصفه بأنه غير حق .
وللسبب نفسه أطلق لفظ الحق على القرآن ، وعلى العدل ،
وعلى العلم الصحيح ، وعلى ما يجب للإنسان على أخيه الإنسان .
فالله تعالى لا يقول إلا الحق ، أى الصادق من القول ، المطابق
مطابقة تامة لأحداث الحياة ، ووقائعها ، والملائم لملاءمة تامة
لظروف الإنسان ومطالبه ، وحاجاته ﴿أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ
الْلَطِيفُ الْخَبِيرُ﴾ (١)

وقد أكد الله ذلك بحلمه وكرمه - ليطمئن عباده إلى ما يأتيهم
من شرعه .

يقول تعالى : ﴿قَوْلُهُ الْحَقُّ وَلَهُ الْمُلْكُ يَوْمَ يَنْفَخُ فِي الصُّورِ﴾ (٢)
ويقول تعالى : ﴿وَاللَّهُ يَقُولُ الْحَقَّ وَهُوَ يَهْدِي السَّبِيلَ﴾ (٣)
ويقول تعالى : ﴿قَالَ فَالْحَقُّ وَالْحَقَّ أَقُولُ﴾ (٤)

فكلمة «الحق» فى هذه الآيات يراد بها الصدق ، ومن تكرير
لفظ الحق فى الآية الأخيرة تأكيد من رب العزة لمنهج الحق
والصدق الذى اتسم به قوله وحكمه حتى قال السدى (٥) إنه قسم
أقسم الله به بدليل الآية التالية التى تعد بمنزلة الجواب لردع الشيطان
فى بغيه وعناده ، وكذبه وضلاله ﴿لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنْكَ وَمِمَّنْ تَبِعَكَ

(١) سورة الملك/ ١٤ .

(٢) جزء من الآية/ ٧٣ الأنعام .

(٣) جزء من الآية/ ٤ الأحزاب .

(٤) سورة ص/ ٨٣ .

(٥) راجع تفسير ابن كثير ج ٤ سورة ص .

مِنْهُمْ أَجْمَعِينَ^(١)
 كما قال تعالى : ﴿إِنَّ الْحُكْمَ إِلَّا لِلَّهِ يَقْصُ الْحَقُّ وَهُوَ خَيْرُ
 الْفَاصِلِينَ^(٢)﴾

وصدق القول الإلهي قضية لا تختمل الجدل ، يتبين هذا من
 الاستفهام المتضمن للنفي في الآيتين الكريمتين : ﴿وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ
 اللَّهِ قِيلًا^(٣)﴾ ^(٤) ﴿وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ اللَّهِ حَدِيثًا^(٥)﴾
 وأخبار القرآن وقصصه من حيث ذاتها صادقة ؛ لأنها مطابقة
 للواقع الثابت .

يقول تعالى عن القصص القرآني : ﴿إِنَّ هَذَا لَهُوَ الْقَصَصُ
 الْحَقُّ^(٦)﴾ ويقول تعالى : ﴿وَأَتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ابْنِ آدَمَ بِالْحَقِّ^(٧)﴾
 ﴿تِلْكَ آيَاتُ اللَّهِ نَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِالْحَقِّ^(٨)﴾ .

ولما كثرت الجدل حول عيسى عليه السلام عرض القرآن الكريم
 قصته عرضاً صادقاً ، يكشف كل الزيف ، ويضع حداً للمراء
 حوله ، ثم يقول تعالى في نهاية الحديث عنه : ﴿ذَلِكَ عِيسَى ابْنُ
 مَرْيَمَ قَوْلَ الْحَقِّ الَّذِي فِيهِ يَمْتَرُونَ^(٩)﴾

(١) سورة ص/ ٨٤ .

(٢) سورة الأنعام/ ٥٧ .

(٣) سورة النساء جزء من الآية/ ١٢٢ .

(٤) سورة النساء جزء من الآية/ ٨٧ .

(٥) جزء من الآية/ ٦٢ آل عمران ، وراجع الكهف/ ١٣ بلفظ (نحن نقص عليك نبأهم
 بالحق) .

(٦) جزء من الآية/ ٢٧ من سورة المائدة .

(٧) سورة البقرة/ ٦٢ آل عمران/ ١٠٨ . والجاثي/ ٦ .

(٨) سورة مريم/ ٣٤ .

وقد نعى القرآن الكريم على العرب تكذيبهم به مع أنه الصدق بعينه فيما يحكيه من أحداث الماضي ، وما يشير إليه من أحداث المستقبل ، ويمر الزمان فيكشف عما فيه من قيم ، ومعارف وحكم صادقة ، فقال تعالى : ﴿وَكَذَّبَ بِهٖ قَوْمَكَ وَهُوَ الْحَقُّ قُلْ لَسْتُ عَلَيْكُمْ بِوَكِيلٍ . لِكُلِّ نَبِيٍّ مُّسْتَقَرٌّ وَسَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾^(١) . والقرآن الكريم هنا يبين لهم أن المستقبل كفيل بكشف حقائق الكتاب ، وتأكيد صدقه .

والكذب على الله ضلال وحماقة ، والكاذب في هذه الحالة بعيد كل البعد عن الحق وهو أهل للهوان والعذاب يوم الحساب ، فيقول تعالى : ﴿الْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ الْهُونِ بِمَا كُنتُمْ تَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ غَيْرَ الْحَقِّ﴾^(٢)

والقول الصادق أمانة ، ولا ينبغي أن يتحول عنه الانسان لأى سبب من الأسباب كأن يكون فيه خدش للحياء ، ونحوه من المعانى والصفات المستحسنة فى غير هذا المجال . غير أن المسلم مطالب بالتجمل فى صدقه .

وقد علمنا رب العالمين منهجاً تتخذه لنا قدوة ، وهو قوله سبحانه - الذى أشرنا إليه فيما مضى - لبعض أصحاب النبى عليه الصلاة والسلام وقد أطالوا الجلوس عنده ليلة عرسه بزینب ؓ : ﴿إِنَّ ذَٰلِكُمْ كَانَ يُؤْذَى النَّبَى فَيَسْتَحْيى مِنْكُمْ وَاللَّهُ لَا يَسْتَحْيى مِنْ

(١) سورة الأنعام/٦٦ . ٦٧ .

(٢) سورة الأنعام/٩٣ .

الْحَقِّ»^(١)

أى لا حياء فى مواجهة الأمور بصدق .

وليس معنى هذا أن ربنا يطالبنا بالتخلّى عن صفة الحياء ، كلا فالحياء من صفات المؤمنين ، كما جاء فى الحديث الشريف : «إنّ ما أدرك الناس من كلام النبوة الأولى ، إذا لم تستح فاصنع ما شئت»^(٢) وإنما المراد أن رب العالمين وهو الملك الحق فوق نوازع البشر وأهوائهم فتفضل على نبيه الذى استحى من مواجهة من أظالموا الجلوس وآلموه بأن واجههم بأقرار هذا المبدأ العظيم قرآنا يتلى ، فكفى نبيه ، وكفى الصادقين من عباده مثونة مواجهة الثقلاء بالقول الصادق ، الذى يكلفهم أحيانا الخروج عن خلق الحياء الذى عرفوه باسلامهم .

وستظل هذه الآية درساً لكل ثقیل ، وحفاظاً على حياء المؤمن وتجمله .

والصدق من الصفات التى عرف بها الرسل .

فقد قال تعالى فى وصف اسماعيل عليه السلام : ﴿وَأَذْكُرْ فِى الْكِتَابِ إِسْمَاعِيلَ إِنَّهُ كَانَ صَادِقَ الْوَعْدِ وَكَانَ رَسُولاً نَبِيّاً﴾^(٣) وفى حديث القرآن الكريم عن موسى عليه السلام ، وهو يواجه فرعون ، يقول تعالى : ﴿حَقِّقْ عَلَى أَنْ لَا أَقُولَ عَلَى اللَّهِ إِلَّا الْحَقَّ﴾^(٤)

(١) سورة الأحزاب/٥٣ .

(٢) رواه البخارى عن أبى مسعود عقبة بن عمرو الأنصارى البدرى .

(٣) سورة مريم/٥٤ .

(٤) جزء من الآية/١٠٥ من سورة الأعراف .

وهذا شأن الرسل جميعاً ، صدق في البلاغ عن الله دون تجاوز أو تقصير يوضح هذا تماماً ذلك الحوار الذي سجله القرآن الكريم بين النبي محمد عليه الصلاة والسلام وقومه ، وقد كانت ترعجهم آيات القرآن الكريم بالحق الذي يخالف ما ألفوه فيطلبون من الرسول عليه الصلاة والسلام أن يغيره .

يقول تعالى : ﴿وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ قَالَ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا آتِ بِقرآنٍ غَيْرِ هَذَا أَوْ بَدِّلْهُ قُلْ يَكُونُ لِي إِنْ أُبَدِّلْهُ مِنْ تِلْقَائِي نَفْسِي إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰ إِلَيَّ إِنِّي أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابٌ يَوْمٍ عَظِيمٍ ۝﴾ (١)

فالصدق ، والبلاغ الحق الذي التزم به رسول الله ﷺ ، شأن الأنبياء قبله نجد هنا أن الله تعالى يأمره أن يخبر الناس بها ، حتى لا يطمع طامع في تغيير أو تبديل على هواه .

وقد بين الله تبارك وتعالى أن نبيه الكريم لا يكذب ، ولو كذب فإن الله تبارك وتعالى لن يتركه ، فيقول تعالى : ﴿وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضُ الْأَقَاوِيلِ . لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِالْيَمِينِ . ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ الْوَتِينَ . فَمَا مِنْكُمْ مِنْ أَحَدٍ عَنْهُ حَاجِزِينَ ۝﴾ (٢)

ولأجل هذا كان الاتهام بالكذب يؤلم النبي عليه الصلاة والسلام أشد الألم حتى إن الله تبارك وتعالى سرى عنه ، وقال له : ﴿وَلَقَدْ كَذَّبْتَ رَسُولٌ مِنْ قَبْلِكَ فَصَبَرُوا عَلَىٰ مَا كُذِّبُوا وَأَوْدُوا حَتَّىٰ أَتَاهُمْ نَصْرُنَا وَلَا مَبْدَلَ لِكَلِمَاتِ اللَّهِ وَلَقَدْ جَاءَكَ مِنْ نَبَائِ

(١) سورة يونس/ ١٥ .

(٢) سورة الحاقة من ٤٤ - ٤٧ .

٩- الحكمة حق :

إذا كان الصدق حقاً ، والعدل حقاً ، وما وجب للإنسان على أخيه حقاً فإن الحكمة تعد من أسمى صور الحق ، وأروع مظاهره .
والحكمة تعني القول المحكم السديد ، الذي لا يرى فيه خلل أو اضطراب ، والذي يصيب موضعه بلا زيادة ولا نقصان ، فهو بمثابة الدواء الموصوف بدقة للداء ، يصيب الحقيقة ، ولا يجاوزها ، ولا يعطى فرصة لمتشكك أو مرتاب .

والذي يُعطى الحكمة إنسان ذو حظ عظيم ؛ إذ تفتح له أبواب الخير وأسبابه ، ولن يؤتاها إلا إذا آمن بالله أيماناً صادقاً ، وخالصاً ، والتزم منهجه التزاماً كاملاً ، فهي ثمرة تربوية للاستمسك بالقوى بدين الله وشرعته .

ومن هنا كانت الحكمة هدفاً من أهداف دين الله ، ومهمة من المهام الكبيرة التي كلف بها رسله ، يقول تعالى على لسان إبراهيم وابنه اسماعيل عليهما السلام : ﴿ رَبَّنَا وَابْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِنْهُمْ يَتْلُوا عَلَيْهِمْ آيَاتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴾ (٢) ، كما قال تعالى : ﴿ لَقَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِنْ أَنْفُسِهِمْ يَتْلُوا عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ

(١) سورة الأنعام/ ٣٤ .

(٢) سورة البقرة/ ١٢٩ .

الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلُ لِي ضَلَالٍ مُبِينٍ ﴿١﴾
 وإذا قرأنا القرآن الكريم نجد أنه عبر عن الحكمة بلفظ الحق ،
 تأكيداً لكونها إحدى الحقائق الدينية والكونية .
 فعبر بلفظ الحق عن حكمة الله تعالى فيما يخلق ، وفيما يعمل ،
 ويدبر

فمن أعظم مخلوقات الله خلق السموات والأرض ﴿لَخَلْقُ
 السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ النَّاسِ﴾ (٢) وقد خلقها الله بالحق
 أى بالحكمة . ومن أجل حكمة بالغة .

يقول تعالى : ﴿خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ﴾ (٣) ﴿وَهُوَ
 الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ﴾ (٤) ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ خَلَقَ
 السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ﴾ (٥)

وفى آيات أخرى جاءت العبارة بصورة حاصرة تؤكد أن الحكمة
 السديدة وراء الخلق المحكم ، والابداع العظيم لهذه المخلوقات
 الكبيرة ، وما بينها من ملايين المخلوقات تزحف وتسعى ، وتسبح ،
 وتقفر وتطير .

يقول الله تعالى : ﴿وَمَا خَلَقْنَا السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا

(١) سورة آل عمران/ ٦٤ كما ورد في السورة نفسها في شأن عيسى عليه السلام
 ﴿وَيُعَلِّمُهُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَالتَّوْرَةَ وَالْإِنْجِيلَ﴾ الآية/ ٤٨ .

(٢) جزء من الآية/ ٥٧ من سورة غافر .

(٣) جزء من الآية/ ٣ من النحل . ٤٤ من العنكبوت ، ٥ من الزمر ، ٣ من التغابن ،
 ٢٢ من الحاثية بزيادة واو (وخلق) .

(٤) جزء من الآية/ ٧٣ الأنعام .

(٥) سورة إبراهيم/ ١٩ .

إِلَّا بِالْحَقِّ^(١)

ويقول سبحانه : ﴿وَمَا خَلَقْنَا السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَاعِينَ . مَا خَلَقْنَاهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾^(٢) كما يقول جل شأنه : ﴿وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاءَ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَاطِلًا﴾^(٣)

والمراد بالحق في هذه الآيات كلها ، وفي المواضع التي كررت فيها هو الحكمة ، ودليل ذلك مقابلتها باللعب ، أو بالعبث ، أو بالباطل ، كما رأينا في سياق الآيات السابقة .

والحق وراء خلق الشمس والقمر ، ومالها من منافع كثيرة للناس ، توضحها هذه الآية : ﴿هُوَ الَّذِي جَعَلَ الشَّمْسُ ضِيَاءً وَالْقَمَرَ نُورًا وَقَدَرَهُ مَنَازِلَ لِتَعْلَمُوا عَدَدَ السِّنِينَ وَالْحِسَابَ مَا خَلَقَ اللَّهُ ذَلِكَ إِلَّا بِالْحَقِّ﴾^(٤)

والحق هنا ليس سوى الحكمة السديدة ، والتقدير المحكم الدقيق الذي ينأى بهذه المخلوقات عن العشوائية والعبث . ونزول الملائكة على البشر قدر مقدور ، فليس هو بالأمر المتروك للأهواء الضالة ، ولأجل هذا عندما اتهمت قريش رسولها الذي جاءها بالذكر من عند ربهم ، ووصفوه بالجنون ، وطلبوا منه أن يأتيهم بملائكة تنزل من السماء ، تشهد له كان الجواب من عند

(١) سورة الحجر/٨٥ ، والروم/٨ ، والدخان/٣٩ ، والأحقاف/٢ مع اختلاف يسير في اللفظ (ما خلقنا - ما خلق الله) .

(٢) سورة الدخان/٣٨ ، ٣٩ .

(٣) سورة ص/٣٧ .

(٤) جزء من الآية/٥ من سورة يونس .

الله : ﴿ مَا نُنَزِّلُ الْمَلَائِكَةَ إِلَّا بِالْحَقِّ وَمَا كَانُوا إِذَا مُنْظَرِينَ ﴾ ^(١) أى لو أن الله أجابهم إلى ما أرادوا . وأنزل ملائكة ما أمهلهم لحظة بعد تكذيبهم .

وقد أسلفنا حديثاً عن ارتباط القرآن بالحق فى قضية نزوله ، وقد أوضحنا هذا الارتباط بأنه دفع للشبه الذى طرحها المتشككون فى قضية نزول القرآن من عند الله ، سواء أكان هؤلاء المتشككون من القدماء ، وكان منهم كثيرون أم من المحدثين ، ولا يزالون يرمون بكل جديد من إفكهم ومفترياتهم .

ويمكن تفسير الحق المرتبط بنزول القرآن الكريم بأنه الحكمة المصاحبة والملازمة لكل ما ورد فيه من خبر أو موعظة ، أو تحذير ، أو تبشير . أو تشريع . وهذا التفسير يتبادر إلى الذهن عندما نقرأ هذه الآية : ﴿ أَفَغَيْرَ اللَّهِ أَبْغَى حَكَمًا وَهُوَ الَّذِي أَنْزَلَ إِلَيْكُمُ الْكِتَابَ مُفَصَّلًا وَالَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْلَمُونَ أَنَّهُ مُنَزَّلٌ مِنْ رَبِّكَ بِالْحَقِّ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُمْتَرِينَ ﴾ ^(٢)

فالآية هنا تبين أنه لا ينبغي التماس حكم غير رب العالمين ، أحكم الحاكمين ، الذى أنزل كتاباً فصل فيه العلاج لكل داء يلزم بالمجتمع البشرى . والذى نزل عليهم الكتاب أول من يعرف ما فيه من بلاغة وحكمة وإحكام .

بقى أن نشير إلى تفسير «الحكمة» التى جاءت معطوفة على الكتاب فى رسالات الرسل التى أشارت إليها الآيات التى ذكرناها

(١) سورة الحجر/ ٨٠ .

(٢) سورة الأنعام/ ١١٤ .

آنفاً ، قال بعض المفسرين والفقهاء : إن الحكمة ^(١) هي السنة النبوية ، وهذا فهم له ما يسوغه بالنسبة للآيات التي تتحدث عن رسالة النبي محمد عليه الصلاة والسلام ؛ لأن سنته وهي التطبيق الرشيد والسديد للقرآن الكريم تعقد قمة الحكمة . والذي يحسن التطبيق ، ويقدم بعمله القدوة والأسوة حكيم أى حكيم . وعلى هذا النحو أيضاً يمكن أن نفسير الحكمة التي جاءت في الحديث عن رسالة عيسى عليه السلام . وأنها تعنى التطبيق الحكيم لما شرعه الله له .

وإذا كانت الحكمة هي السنة النبوية فهاذاك إلا لأن السنة حق لا ريب فيه .

وإذا بحثنا عن الحكمة وراء خلق البشر ، أو عن الحق وراء خلق البشر - وكل ما خلقه الله وراءه حق أو حكمة . وجدنا أن العبودية لله تعالى التي ينتظم في إطارها كل علاقة قويمه تربط الإنسان بالحياة والأحياء . قال تعالى : ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِعِبَادُونَ مَا أُرِيدُ مِنْهُمْ مِنْ رِزْقٍ وَمَا أُرِيدُ أَنْ يُطْعَمُونَ﴾ ^(٢)

ولأن الحكمة من أبرز مظاهر الحق كانت وراء كل ما خلق الله ، وما حكم به ، وما قدر فإنه ينبغي من ناحية أخرى أن تكون وراء سلوك المؤمن بحكم اهتدائه بمنهج الحكيم الخبير ، وافتقاده في سلوكه يعنى انحرافا بينا في عقيدته . وفي ارتباطه بربه .

فترتكبو الذنوب الكبيرة ، ومقترفوا الجرائم العظيمة بعدوا عن

(١) راجع تفسير الكشاف . والقرطبي وابن كثير .

(٢) سورة الذاريات/٥٦ . ٥٧ .

الحق ، وضلوا طريق الحكمة ، وليس وراء تصرفهم هذا حجة مقبولة ، أو سبب مستساغ ، ولو تتبعنا ما جاء في القرآن الكريم عن مثل هؤلاء الناس لأدركنا من أول الأمر أنهم قوم بلا حق ولا حكمة .

وهذه صور قدمها لنا الكتاب العزيز .

(١) بنو إسرائيل وقتل الأنبياء :

الأنبياء اختارهم الله واصطفاهم ليكونوا أئمة يهدون الناس بأمر الله ، ويقودونهم إلى كل خير في هذه الحياة ، فلهم في النفوس مهابة ، وفي القلوب مكانة ، فعندما يفكر انسان من الناس في قتل النبي ، فمعنى هذا أن قلبه أجذب من الإيمان ، وتقلص منه نور الهداية وأصبح كالحجارة بل أشد قسوة ، وسار بينه وبين الحق بون شاسع ، تغلب على طبعه الخفاقة أكثر من الحكمة ، وهو للكفر والعصيان أدنى منه إلى الطاعة والإحسان .

ولقد تورط بنو إسرائيل في هذا الجرم ، وتحدث القرآن الكريم عنهم بهذا في أكثر من موضع ، يقول تعالى : ﴿ ذَلِكْ بِأَنَّهُمْ كَانُوا يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَيَقْتُلُونَ النَّبِيَّ بِغَيْرِ الْحَقِّ ذَلِكَ بِمَا عَصَوْا وَكَانُوا يَعْتَدُونَ ﴾ (١)

ويقول تعالى : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَيَقْتُلُونَ النَّبِيَّ بِغَيْرِ حَقٍّ وَيَقْتُلُونَ الَّذِينَ يَأْمُرُونَ بِالْقِسْطِ مِنَ النَّاسِ فَبَشِّرْهُمْ بِعَذَابٍ

(١) سورة البقرة/ ٦١ .

اليم ﴿١﴾

ويقول تعالى : ﴿ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُوا يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَيَقْتُلُونَ
الْأَنْبِيَاءَ بِغَيْرِ حَقٍّ ذَلِكَ بِمَا عَصَوْا وَكَانُوا يَعْتَدُونَ﴾ (٢)
ونلاحظ في الحديث عنهم أن جرمهم هذا قد اقترن بالكفر
بآيات الله .

(ب) الاستكبار :

من الآفات الخلقية التي يضل صاحبها طريق الحق . ومنهج
الحكمة . ويقدم على تصرفات طائشة . وأعمال حمقاء لا تجد لها
سببا يميزها . ونحس هذا من حديث القرآن الكريم عن
المستكبرين . وأعمالهم الضالة .

يحدثنا القرآن الكريم عن قبيلة « عاد » التي كانت تسكن
الأحقاف جنوب شرقى الجزيرة العربية . وقد مكن الله لهم في
الأرض . فردوا على النعمة بالاستكبار . فكانوا إلى الحماق أدنى
منهم إلى الحكمة والرشد . فيقول تعالى : ﴿فَأَمَّا عَادُ فَاسْتَكْبَرُوا فِي
الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَقَالُوا مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي
خَلَقَهُمْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يَجْحَدُونَ﴾ (٣)

وسار على منهج الاستكبار فرعون معتزاً بجنده وملكه . وقال
لقومه : ﴿مَا عَلِمْتُ لَكُم مِّنْ إِلَهِ غَيْرِي﴾ (٤) وطلب من كبير أعوانه

(١) سورة آل عمران/ ٢١ .

(٢) سورة آل عمران/ ١١٢ .

(٣) سورة فصلت/ ١٥ .

(٤) جزء من الآية/ ٣٨ من سورة القصص .

أن يصنع له صرحا يطلع منه إلى إله موسى . هذا التصور الفرعوني الذى تحس منه الرعونة أكثر من الاتزان صدر بسببه الحكم على فرعون بالبعد عن الحق والحكمة ، فيقول تعالى : ﴿وَأَسْتَكْبِرُ هُوَ وَجُنُودُهُ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَظَنُوا أَنَّهُمُ الْبَاقُونَ﴾ (١)

وآفة الاستكبار ، تكلف صاحبها شططا ؛ إذ هي نشأت عن حماقة ضالة ، وعقوبتها لصاحبها تتمثل في تحبطه ، فهو بعيد عن الرشد ، قريب من الغي ، قليل الاعتبار بما يمر به من آيات ومواعظ ، يقول تعالى : ﴿سَأَصْرِفُ عَنْ آيَاتِ الَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَإِنْ يَرَوْا كَلَّ آيَةٍ لَا يُؤْمِنُوا بِهَا وَإِنْ يَرَوْا سَبِيلَ الرُّشْدِ لَا يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا وَإِنْ يَرَوْا سَبِيلَ الْغَيِّ يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَكَانُوا عَنْهَا غَافِلِينَ﴾ (٢)

وأما يوم القيامة فلهؤلاء المستكبرين عذاب مهين ؛ إذ يقول تعالى : ﴿فَالْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ الْهُونِ بِمَا كُنتُمْ تَسْتَكْبِرُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَبِمَا كُنتُمْ تَفْسُقُونَ﴾ (٣)

وكل من يستخفهم الطرب ، ويدفعهم الفرح إلى الكبرياء والبطر يلقون هذا المصير يوم القيامة ، ويقال لهم : ﴿ذَلِكُمْ بِمَا كُنتُمْ تَفْرَحُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَبِمَا كُنتُمْ تَمْرَحُونَ﴾ (٤) ولا شك أنهم بتصرفهم الأحمق ، ومصيرهم الأسوأ كانوا

(١) سورة القصص/٣٩ .

(٢) سورة الأعراف/١٤٦ .

(٣) سورة الأحقاف/٢٠ .

(٤) سورة غافر/٧٥ .

بعيدين عن نهج الحق ، وخطة الحكمة والرشد .

(ح) البغى :

والبغى نزعة آتمة ، ونزوة ضالة ، ينحرف الإنسان معها عن الحق ، ويتجاوز حد العرف ، فلا يرعى حرمة ، ولا يحترم شرعة ، ومن هنا كان البغى من بين الصور التي يبعد معها صاحبها عن الحق والحكمة . وحديث القرآن الكريم عمن ييغون يكشف عن هذه الأمور .

ففي سورة الأعراف نرى البغى بغير الحق - وكل بغى بعيد عن الحق - من بين المحرمات التي حذر الله تعالى منها ، قال تعالى : ﴿ قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّي الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَّنَ وَالْإِثْمَ وَالْبَغْيَ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَأَنْ تُشْرِكُوا بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزَّلْ بِهِ سُلْطَانًا وَأَنْ تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴾ (١)

لقد عُدَّ البغى هنا بين كبار المحرمات ، وهذا كاف في الكشف عن شطط الباغي ، وسفاهة تصرفه .

ويحدثنا القرآن الكريم عمن عرفوا ربهم في الضراء ، فلما كشفها الله عنهم ، عادوا إلى البغى ، وتجاوزوا الحق ، وركبوا متن الشطط ، وعادوا إلى سذاجة حمقهم يقول تعالى : ﴿ فَلَمَّا أَنْجَاهُمْ إِذَا هُمْ يَبْغُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ يَأْتِيهَا النَّاسُ إِنَّمَا بِغْيِكُمْ عَلَى أَنْفُسِكُمْ ﴾ (٢)

(١) سورة الأعراف/ ٣٣ .

(٢) جزء من الآية/ ٢٣ سورة يونس .

والبغاة كالظالمين يتحملون مسئولية بغيهم ، ويلقون نفس مصيرهم لأن كليهما جاوز الحق ، وجانبه السداد ، يقول تعالى :
﴿ إِنَّمَا السَّبِيلُ عَلَى الَّذِينَ يَظْلِمُونَ النَّاسَ وَيَبْغُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ أُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾^(١)

(د) قتل النفس :

جريمة منكرة ، وشر ما ارتكب على وجه الأرض ، لقد صور القرآن الكريم فظاعتها ونكرها إذا وقعت بغيا وظلما في غيبة الحق والحكمة ، يقول تعالى : ﴿ مِنْ أَجْلِ ذَلِكَ كَتَبْنَا عَلَى بَنِي إِسْرَآئِيلَ أَنَّهُ مَنْ قَتَلَ نَفْسًا بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِي الْأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ النَّاسَ جَمِيعًا وَمَنْ أَحْيَاهَا فَكَأَنَّمَا أَحْيَا النَّاسَ جَمِيعًا ﴾^(٢) فالفرد إذن تجاوز ببغيه الفرد الذى قتله إلى المجتمع الذى أظله .

ويقول تعالى : ﴿ وَمَنْ يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُتَعَمِّدًا فَجَزَاؤُهُ جَهَنَّمُ خَالِدًا فِيهَا وَغَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِ وَلَعَنَهُ وَأَعَدَّ لَهُ عَذَابًا عَظِيمًا ﴾^(٣) .

وبناء على هذا فالإقدام على القتل من جانب المؤمن لا بد أن يكون له مسوغ كبير ، وسبب عظيم ، ولا يوجد في الدنيا كلها سبب يسوغ القتل إلا قصاصا ، أو من أجل الخروج على الجماعة ، وما عدا ذلك فللدم حرمة بالغة في الإسلام .
ودليل هذه الحرمة أنه في القصاص يعطى ولى الدم سلطانا ،

(١) سورة الشورى/٤٢ .

(٢) جزء من الآية/٣٢ من سورة المائدة .

(٣) سورة النساء/٩٣ .

يطالب بموجبه ولى أمر المسلمين بقتل القاتل ، وعندما يقتص منه يكون القتل حينذاك بالحق ، يقول تعالى : ﴿وَلَا تَقْتُلُوا أَنْفُسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ﴾^(١) كما قال تعالى فى وصف عباد الرحمن ﴿وَلَا يَقْتُلُونَ أَنْفُسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ﴾^(٢) .

١٠ - الحق ... التام الكامل :

ومن الصور التى استخدم فيها لفظ « الحق » استخداما حكما لغويا ، وقرآنيا أن يطلق على كل شىء أوفى على الغاية ، واستوفى عناصر التمام والاكتمال .

وكان الشىء الموسوم بالحق فى هذه الحالة بلغ غايته ، وأخذ حقه ، ولم ينقصه صاحبه شيئا ، ويرد هذا المعنى فى كل استعمال يضاف فيه لفظ « حق » إلى مصدر الفعل قبله .

وجاء هذا الاستخدام فى القرآن الكريم فى عدة مواضع ، تتصل بالله ، أو بدعوته الحق ، أو بكتابه ، أو بالجهاد فى سبيله ، أو بالعبودية الخالصة لوجهه .

وحقها فى أن تؤدى تامة كاملة خالصة

وسنشير بإيجاز إلى هذه المواضع :

١ - الملك الحق :

نرى الناس فى الدنيا يمنحهم الله شيئا من الملك فيملكون .

(١) جزء من الآية/١٥١ الأنعام . ٣٣ من الإسراء .

(٢) جزء من الآية/٦٨ من سورة الفرقان .

ويترع من آخرين الملك فإذا هم منه مجردون ، معنى هذا أن ملك الإنسان في الدنيا عرض زائل والملك الحق لله وحده ؛ لأنه الذي يمنح ويمنع .

حتى إذا كان يوم القيامة يأتي الناس فرادى ، كما خلقهم الله أول مرة ، وقد تركوا وراء ظهورهم ما خولهم من مال أو جاه ، ويبقى الملك تاما كاملا لرب الوجود ﴿لَمَنِ الْمُلْكُ الْيَوْمَ اللَّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ﴾^(١) ولأجل هذا وصف الله تعالى ملكه في هذا اليوم بلفظ « الحق » الذي يعنى الكمال والتمام ، بعيدا عن شبهة الملكية لخلق ، مها كان قدره ولذا قال تعالى : ﴿الْمُلْكُ يَوْمَئِذٍ الْحَقُّ لِلرَّحْمَنِ وَكَانَ يَوْمًا عَلَى الْكَافِرِينَ عَسِيرًا﴾^(٢) .

٢ - دعوة الحق :

يقول الله تعالى : ﴿لَهُ دَعْوَةُ الْحَقِّ﴾ وقد أسلفنا الوجهين اللذين قيل فيها وهما : الدعاء الصحيح يجب أن يتجه لله ، والدعوة إلى الحقائق الثابتة التي لا ريب فيها ينبغي أن تصدر عن الله ، ونضيف هنا أنه في كلا الحالين فيها معنى التمام والاكتمال سواء أكانت دعاء خالصا لله أم كانت دعوة صادقة في سبيل الله .

٣ - التلاوة الحقة :

القرآن الكريم يتلوه التالون ، ومنهم من لا تتجاوز الكلمات فيه ،

(١) سورة غافر/جزء من الآية/١٦ .

(٢) سورة الفرقان/٢٦ .

فلا وعى ، ولا فهم ولا إدراك صحيحا ، ولا تقدير لمسئولية القراءة وما تستتبعه من التزام بما تقرأ ، فتخرج الألفاظ من اللسان دون أن تمر على القلب فلا تبلغ من السامعين أكثر من الآذان .

أما التلاوة الصحيحة فلها حق : بأن يتدبر القارئ ، ويتأمل ، ويعى ، ويعقل ، ويفتح للآيات قلبه ، ويمزق ما يقف دونها من أستار الجهل والغفلة ، والتعصب ، والتقليد ، ومثل هذه التلاوة وصف رب العالمين أصحابها فقال فيهم : ﴿ الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَتْلُونَهُ حَقَّ تِلَاوَتِهِ أُولَٰئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِ ﴾ ^(١) .

٤ - الجهاد الحق :

البذل والتضحية على اختلاف درجاتها حق لله سبحانه وتعالى وحده ، وهما ثمرة الإيمان وبرهان صدقه ، وإذا أقدم عليهما المؤمن يدفعه إيمان سليم كان جهاده حينئذ مكتملا ، مستوفيا حقه من التفانى والإخلاص ، جديرا بأن يحقق غايته من الإعزاز والانتصار فى داخل النفس ، وفى محيط المجتمع المسلم ، وفى اللقاء الدامى مع أعداء الله .

يقول الله تبارك وتعالى يدعو إلى هذا النوع من الجهاد : ﴿ وَجَاهِدُوا فِي اللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِ هُوَ اجْتَبَاكُمْ وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ ﴾ ^(٢) .

(١) جزء من الآية/١٢١ سورة البقرة .

(٢) جزء من الآية/٧٨ سورة الحج .

٥ - التقوى الحققة :

والتقوى أرفع درجات الإيمان ، وهى تعنى أن يأخذ المؤمن نفسه بكل أسباب الوقاية من آفات الحياة وأدائها ، مراقبة لله ، وابتغاء رضاه وينبغى لهذا أن تكون مكتملة فى أسبابها ووسائلها ، خالصة لله تعالى ، ولأجلها دعا الله المؤمنين إليها قال : ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تَقَاتِهِ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ﴾^(١) .

٦ - ﴿مَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ﴾ :

وردت هذه الآية فى ثلاث مواضع من كتاب رب العالمين ، وهى فى هذه المواضع الثلاثة تكشف عن سوء فهم المشركين الذى أوقعهم فى جريمة الشرك ، فهم لم يعرفوا قدر الله ، ولم يدركوا حق جلاله وكماله ، تصوره بعيدا فالتمسوا له الوساطة ، وظنوه قاسيا عنيفا جائرا فالتمسوا له الشفاء ، يقول تعالى : ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ ضُرِبَ مَثَلٌ فَاستَمِعُوا لَهُ إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَنْ يَخْلُقُوا ذُبَابًا وَلَوْ اجْتَمَعُوا لَهُ وَإِنْ يَسْلُبْهُمُ الذُّبَابُ شَيْئًا لَا يَسْتَنْقِذُوهُ مِنْهُ ضَعُفَ الطَّالِبُ وَالْمَطْلُوبُ . مَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ﴾^(٢) .

ويقول تعالى : ﴿قُلْ أَغْيَرَ اللَّهُ تَأْمُرُونِى أَعْبُدُ أَيُّهَا الْجَاهِلُونَ﴾ ثم تستمر الآيات فى تحذير النبى ﷺ من الشرك ، وحثه على العبادة الخالصة إلى أن يقول تبارك وتعالى ، كاشفا سر وقوعهم فى الشرك :

(١) سورة آل عمران/ ١٠٣ .

(٢) سورة الحج/ ٧٣ ، ٧٤ .

﴿وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ وَالْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُ يَوْمَ الْقِيَمَةِ
وَالسَّمَوَاتُ مَطْوِيَّاتٌ بِيَمِينِهِ﴾^(١) .

وفهم بعض المشركين خطأ ، وفيهم من أهل الكتاب أن إنكار
الوحي فيه تعظيم لله ، فرد عليهم القرآن الكريم بأنه تعظيم ناقص ؛
إذ قال : ﴿وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ إِذْ قَالُوا مَا أَنْزَلَ اللَّهُ عَلَى بَشَرٍ
مِنْ شَيْءٍ قُلْ مَنْ أَنْزَلَ الْكِتَابَ الَّذِي جَاءَ بِهِ مُوسَى نُورًا وَهُدًى
لِلنَّاسِ تَجْعَلُونَهُ قُرْآنًا يَتَّبِعُونَ قُرَاطِيسَ يُبَدِّلُونَهَا وَيُخَفُّونَ كَثِيرًا وَعَلِمْتُمْ مَا لَمْ تَعْلَمُوا
أَنْتُمْ وَلَا آبَاؤُكُمْ قُلِ اللَّهُ ثُمَّ ذَرْهُمْ فِي خَوْضِهِمْ يَلْعَبُونَ﴾^(٢) .

٧ - الرهبانية وحققها :

جعل الله تعالى في تلامذة عيسى عليه السلام وحواريه رافة ،
ورحمة ، واتجهوا إلى الترهّب والعزوف عن الدنيا إمعانا في الرغبة
فيما عند الله ، وزهدا في مفاصد الحياة وترفها ، وما تحفل به من
صراع وخصومات ، لاسيما على ضوء تجربتهم مع اليهود .
ولم يكتب الله عليهم هذا الترهّب ، وإنما هو من مبتدعاتهم .
أمرهم الله فقط بعبادات تخلص القلب إلى الله ، وتطهره من
رذائل الحياة ، فلم يعرفوا لهذا الترهّب حقه ، ولم يرعوه حق
رعايته ، وذلك بشططهم ، وتحويلهم العبادة إلى سلبية قاتلة ؛ إذ
يغرق المجتمع من حولهم في الضلال ، وهم في عبادتهم التي
استحسنوها مشغولون ، أو أنهم قصروا في أصول العبادة ،

(١) سورة الزمر/٦٤ . ٦٧ .

(٢) سورة الأنعام/٩١ .

فوما ينبغي لها فلم يدركوا ما أمرهم الله بها ، ولم يصلوا إلى ما الزموا به أنفسهم .

يقول ربنا تبارك وعالي : ﴿ ثُمَّ قَفَّيْنَا عَلَىٰ آثَارِهِم ^(١) بِرُسُلِنَا وَقَفَّيْنَا بِعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ وَآتَيْنَاهُ الْإِنْجِيلَ وَجَعَلْنَا فِي قُلُوبِ الَّذِينَ اتَّبَعُوهُ رَافِقَةً وَرَحْمَةً وَرَهْبَانِيَّةً ابْتَدَحْنَاهَا مَا كَتَبْنَاهَا عَلَيْهِمْ إِلَّا ابْتِغَاءَ رِضْوَانِ اللَّهِ فَمَا رَعَوْهَا حَقَّ رِعَايَتِهَا فَآتَيْنَا الَّذِينَ آمَنُوا مِنْهُمْ أَجْرَهُمْ وَكَثِيرٌ مِنْهُمْ فَاسِقُونَ ﴾ ^(٢) .

يقول ابن كثير : (فما رعوها ح رايتها) أى فما قاموا بما التزموه حق القيام ، وهذا ذم لهم من وجهين : أحدهما : الابتداع فى دين الله والثانى : فى عدم قيامهم بما التزموه مما زعموا أنه قرينة تقرهم إلى الله عز وجل ^(٤) .

والرهبانية ليست منها مرضيا فى دين الله ، وإن نجا عن طريقها بعض النصارى قبل البعثة المحمدية ، وقد روى أن رسول الله ﷺ قال : « لكل بنى رهبانية ، ورهبانية هذه الأمة الجهاد فى سبيل الله عز وجل » ^(٥) ولم تكن رهبانية الأنبياء سوى إمعان فى الدعوة ، ونشر الدين الحق .

حقائق فى القرآن :

ومع هذه السياحة التى أوغلنا فيها فى أعماق الكتاب العزيز ،

(١) الضمير هنا يعود على نوح وإبراهيم فى الآية السابقة وهى قوله تعالى : ﴿ ولقد أرسلنا نوحا وإبراهيم ﴾ .

(٢) سورة الحديد/ ٢٧ .

(٣) راجع تفسير ابن كثير ج ٤ ص ٣١٥ .

(٤) رواه الإمام أحمد عن إياس بن مالك .

وطفنا بأحوائه ، وتتبعنا لفظ « الحق » واستخداماته فيه نرى أنفسنا قد عرضنا لكثير من الحقائق التي قدمها القرآن للبشر ، وهى فى الوقت نفسه أصول التكوين العقدى فى الإسلام مما يجعلنا نزداد يقينا بتلاقى طرفى القضية تماما .. الإسلام ... دعوة الحق .

أولها ، وأسماها :

الله هو الحق ، ووجوده الحقيقة التى لا توجد ثمة حقيقة أثبت منها ، بل إن الحق لا يأخذ هذا المسمى إلا إذا كان صادرا عنه ، أو على صلة به .

يتأكد أنه الحق بوحديته ، وتجرده ، وأنه الحى القيوم الذى يمنح الحياة لكل حى ، وباستمرار الكائنات على قوانين محكمة ، وستن لا تتخلف ﴿لَا الشَّمْسُ يَنْبَغِي لَهَا أَنْ تُدْرِكَ الْقَمَرَ وَلَا اللَّيْلُ سَابِقُ النَّهَارِ وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ﴾^(١) .

والرسل حق :

منهم من قص الله خبرهم ، ومنهم من لم يقصص الله علينا سيرهم ، وجاءوا مزودين بآيات الله التى تثبت أمام المعاندين الجاحدين صدقهم ، وأنهم جاءوا بالحق من ربهم ، وليزداد الذين آمنوا إيمانا .

والكتب السماوية حق :

جاء بها الرسل من عند الله تحمل شريعة الله ، وحكمه ، وقد

(١) سورة يس/ ٤٠ .

نزل بها الوحي من عند الله على رسله على إحدى الصور التي عرضتها الآية : ﴿وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَنْ يُكَلِّمَهُ اللَّهُ إِلَّا وَحْيًا أَوْ مِنْ وَرَآئِ حِجَابٍ أَوْ يُرْسِلَ رَسُولًا فَيُوحِيَ بِإِذْنِهِ مَا يَشَاءُ﴾ (١) .

وهذه الكتب التي نزلت تباعا ، يؤيد كل كتاب منها سابقه ، ويصدقها حتى جاء القرآن الكريم الذي اتصف بالحق في نزوله ، وفي أسلوب وصوله ، وفي طريقة تناقله وفي جوهره ، وموضوعه ومحتواه ، فكان مصدقا لما سبقه ، كما كان مهيمنا عليه يكشف الزيف ، وينبئ كل دخیل . وهذا مهمة حدثنا عنها رب العالمين فقال : ﴿إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَقْصُّ عَلَى بَنِي إِسْرَآئِيلَ أَكْثَرَ الَّذِي هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ وَأَنَّهُ لَهْدَىٰ وَرَحْمَةً لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾ (٢) .

واليوم الآخر حق :

وقد عرفنا من بين الحقائق القرآنية التي كشف عنها تتبعنا للفظ الحق في القرآن « اليوم الآخر » وما يتصل به ويقع فيه من مشاهد وأحداث مثل : الموت ، والنفخ في الصور ، والبعث ، والحشر ، والصراف ، والميزان ، والحساب ، والجنة ، والنار ، وقد تأكدت هذه الحقائق كلها في القرآن الكريم ، واقترن الحديث عنها بلفظ « الحق » .

والملائكة حق :

وهم عباد مكرمون . لا يعصون الله ما أمرهم ويفعلون

(١) سورة الشورى/ ٥١ .

(٢) سورة النمل/ ٧٦ . ٧٧ .

ما يؤمرون ، لا تتصور منهم المعصية ، فهم كالقوانين الثابتة ، المنفذة لحكم الله وقضائه ، منهم الروح الأمين الذى ينزل بالوحي على الرسل ، ومنهم ملك الموت الموكل بالوفاة ، ومنهم الحفظة ، وفيهم الكرام الكاتبون .

وهذه هى الصورة الحقة التى عرضها القرآن الكريم للملائكة ، وتناولتها السنة الصحيحة ، والإيمان بهم عنصر من عناصر العقيدة الإسلامية ؛ ولذا يقول تعالى : ﴿وَمَنْ يَكْفُرْ بِاللَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا بَعِيدًا﴾^(١) .

وقد تصور بعض العرب قبل البعثة تصورا خاطئا أن الملائكة بنات الله ، وأنهم يتحركون حسب أهواء البشر ، أو رغبات الرسل ، وإنما تحركهم بقانون ثابت ، ونظام محكم لا يتخلف ، سماه القرآن «الحق» فقال تعالى : ﴿وَقَالُوا يَا أَيُّهَا الَّذِى نَزَّلَ عَلَيْهِ الذِّكْرُ إِنَّكَ لَمَجْنُونٌ . لَوْ مَا تَأْتِينَا بِالْمَلَائِكَةِ إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ . مَا نَنْزِلُ الْمَلَائِكَةَ إِلَّا بِالْحَقِّ وَمَا كَانُوا إِذَا مُنْظَرِينَ﴾^(٢) .

والقدر والقضاء حق :

وهما من الحقائق القرآنية التى ينبغى أن تستقر فى وجدان المؤمن وعقله .

يقول تعالى : ﴿إِنَّا كُلُّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ﴾^(٣) ﴿قَدْ جَعَلَ اللَّهُ

(١) سورة النساء جزء من الآية/١٣٦ .

(٢) سورة الحجر ٦ - ٨ .

(٣) سورة القمر/٤٩ .

لِكُلِّ شَيْءٍ قَدْرًا ﴿١﴾ ﴿وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ قَدَرًا مَقْدُورًا﴾ ﴿٢﴾ ﴿وَقَضَيْنَا إِلَيْهِ ذَلِكَ الْأَمْرَ أَنَّ دَابِرَ هَوْلَاءِ مَقْطُوعٌ مُصْبِحِينَ﴾ ﴿٣﴾ ﴿فَإِذَا جَاءَ أَمْرُ اللَّهِ قُضِيَ بِالْحَقِّ وَخَسِرَ هُنَالِكَ الْمُبْطِلُونَ﴾ ﴿٤﴾ ﴿فَلَمَّا قُضِيَ عَلَيْهِ الْمَوْتُ مَا دَلَّهُمْ عَلَى مَوْتِهِ إِلَّا دَابَّةُ الْأَرْضِ تَأْكُلُ مِنْسَأَتَهُ﴾ ﴿٥﴾ .

والقدر قياس الأمور بدقة وإحكام قبل إنجازها ، ليتحقق منها بعد الإنجاز ما تقتضيه حكمة الحكيم الخبير .

وهذا يؤكد نبي الصدفة ، والعشوائية في هذا الوجود ، وفي حركته نفيا قاطعا .

والقضاء هو إنجاز الله تعالى ، وتنفيذه لما قدره .

والقدر والقضاء كلاهما لله ، ومن هنا كان الإيمان بها واجبا . ويدخل في دائرة القضاء والقدر السنن الكونية ، والأسباب والمسببات ، ونحوهما من القوانين الثابتة التي يدركها الإنسان بحواسه ، أو بعقله ؛ إذ هي حكم الله وحكمته ، والتسليم بها والسير على مقتضاها إيمان لا بد منه .

وقد تتعارض الأقدار كالمرض والدواء ، والصحة والوقاية ، فكل منها قدر ، فإذا قدر الله المرض ، فقد رفعه بقدر آخر ، وهو ضرورة التداوى ، وإذا قدر الله علينا أسباب الداء ، وتفشى الوباء

(١) سورة الطلاق/ ٣ .

(٢) سورة الأحزاب/ ٣٨ .

(٣) سورة الحجر/ ٦٦ .

(٤) سورة غافر/ ٧٨ .

(٥) سورة سبأ/ ١٤ .

فقد رفعه بقدر آخر هو الوقاية كما قال عمر بن الخطاب رضى الله عنه
للسحابى الذى سأله وقد قرر عدم دخول عمواس بعد تفتيش
الطاعون : أتفر من قدر الله ؟ قال : نفر من قدر الله إلى قدر
الله ^(١) .

وما يقضى به الله على الإنسان ، ويقدره له من أحكام وشرائع
فالإنسان ملزم بالإيمان به ، والثقة فى نفعه وفصله ، والإقدام على
تنفيذه .

وأى تخلف فى أى ناحية من هذه النواحي الثلاث يعنى أن
الإيمان غير وثيق .

يقول الله تعالى : ﴿ وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ وَبِالْوَالِدَيْنِ
إِحْسَانًا أَمَّا يَبْلُغَنَّ عِنْدَكَ الْكِبَرَ أَحَدُهُمَا أَوْ كِلَاهُمَا فَلَا تَقُلْ لَهُمَا أُفَ
وَلَا تَنْهَرْهُمَا وَقُلْ لَهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا ۖ ... الْآيَاتِ حَتَّىٰ قَوْلَهُ تَعَالَىٰ :
﴿ كُلُّ ذَلِك كَانَ سَيِّئُهُ عِنْدَ رَبِّكَ مَكْرُوهًا ۖ ﴾ ^(٢) .

وما يقضى به الله على الإنسان ، ويقدره عليه ، مما هو فوق
الأسباب والمسببات ، وخارج عن طاقاتهم ، ومما لا يدركون حكمته
يجب الإذعان له ، والتسليم به بلا مناقشة ؛ لأنه الابتلاء الذى
قدره الله ، وقضى به ، يقول تعالى : ﴿ مَا أَصَابَ مِنْ مُّصِيبَةٍ فِي
الْأَرْضِ وَلَا فِي أَنْفُسِكُمْ إِلَّا فِي كِتَابٍ مِنْ قَبْلِ أَنْ نَبْرَأَهَا إِنَّ ذَلِكْ
عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ . لِكَيْلَا تَأْسَوْا عَلَىٰ مَافَاتِكُمْ وَلَا تَفْرَحُوا بِمَا آتَاكُمْ

(١) جزء من حديث رواه البخارى عن عبد الرحمن بن عوف ، وستأتى تفصيلات
الموضوع فى القضية السادسة .

(٢) سورة الإسراء من ٢٣ - ٣٨ .

وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ ^(١) .
ويقول تعالى : ﴿ مَا أَصَابَ مِنْ مُصِيبَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ وَمَنْ يُؤْمِنْ بِاللَّهِ يَهْدِ اللَّهُ قَلْبَهُ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ^(٢) .
وهذا الابتلاء المحتوم قدر المؤمن في هذه الدنيا ، تمحيصا ليقينه ، واختبارا لثقلته وصدقته ﴿ وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ حَتَّى نَعْلَمَ الْمُجَاهِدِينَ مِنْكُمْ وَالصَّابِرِينَ وَنَبْلُوا أَخْبَارَكُمْ ^(٣) ﴾ . ﴿ أَحْسِبَ النَّاسُ أَنْ يُتْرَكُوا أَنْ يَقُولُوا آمَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ . وَلَقَدْ فَتَنَّا الَّذِينَ مِنْ قَبْلَهُمْ فَلَيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ صَدَقُوا وَلَيَعْلَمَنَّ الْكَاذِبِينَ ^(٤) .
والقضاء والقدر متلازمان ، فما يقدره الله لا بد من نفاذه ، ولا يمكن - وهو الحكيم - أن يقضى إلا بما قدره .
هذا إذا عددناهما لفظين مختلفين .
وإذا تتبعنا الأسلوب القرآني نجد أن لفظ القضاء استخدام بمعنى القدر فيقول تعالى : ﴿ هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ طِينٍ ثُمَّ قَضَى أَجَلًا وَأَجَلٌ مُسَمًّى عِنْدَهُ ^(٥) ﴾ . والمعنى قدر الآجل وحدده ، ويقول تعالى : ﴿ فَيَمْسِكُ الَّتِي قَضَى عَلَيْهَا الْمَوْتَ ^(٦) ﴾ أى قدر الموت عليها .

هذه هي صور القدر والقضاء التي ينبغي أن تكون عنصرا في

(١) سورة الحديد/٢٢ . ٢٣ .

(٢) سورة التغابن/١١ .

(٣) سورة محمد/٣١ .

(٤) سورة العنكبوت/٢ . ٣ .

(٥) سورة الأنعام/٢ .

(٦) جزء من الآية/٤٢ من سورة الزمر .

إيمان المؤمنين .

الأخلاق والقيم ... حقائق قرآنية :

ومن تتبعنا للفظ « الحق » في القرآن الكريم نجد أنه في إطار هذه الكلمة قدم لنا مجموعة من الأنماط الخلقية ، والقيم الثابتة باعتبارها حقائق راسخة لم يختلف البشر في أى عصر من العصور في أصلها ، وإن تباينت وجهات أنظارهم في تفسيرها ، وتطبيقها ، لكنها في البيان القرآنى صريحة ، واضحة ، تهدى ، وترشد ، منها - كما أسلفنا - العدل ، والصدق ، والعلم ، والحكمة ، والحقوق ، والواجبات التى تنظم علاقة الناس بعضهم ببعض .

ولكى ينتفع المجتمع الإنسانى بها لابد أن يسير على نهج القرآن الكريم فى تجسيدها ، وتحديد معالمها ، وأنماط تنفيذها ، وأن نفتدى بالرسول ﷺ فى أخذه بها ، وتحويله إياها إلى نماذج حية ، صالحة للاتباع .

مقاييس الحق في التصور الإسلامى ومن خلال الدراسة القرآنية

ونحن إذ نختتم هذه الجولة القرآنية مع كلمة « الحق » التى تناولنا فيها خلاصة الحقائق التى قدمها رب العالمين لعباده ، ليعرفوها ، ويؤمنوا بها ، ويستمسكوا بها ، فيعزوا ويسودوا فإننا بعد هذا نعود إلى ما تحدثنا عنه من مقاييس الحق .

أيمكننا على ضوء ما سبق أن نضع مقاييس للحق ؟ وإلى أى مدى تختلف أو تتفق مع المقاييس التى وضعها فلاسفة البشر ؟!! وهنا أضع عدة ملاحظ هامة :

أولها : قضية الحق فى الإسلام ترتبط ارتباطا وثيقا بقضية الإيمان ، وأعنى بالإيمان الإيمان الذى لم يلبسه ظلم ، والذى خلص تماما من ظواهر الشرك ، ذلك أن الإنسان إذا آمن بالله صادقا ومخلصا نبتت فى أعماقه بذور الثقة فى خالقه ومولاه الذى آمن به .

وعند ذاك ارتبط الحق عنده بالله ، كما علمه القرآن الكريم ﴿ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ هُوَ الْبَاطِلُ﴾ (١) . وهو فى هذه الحالة فى غير حاجة إلى مقاييس .

فقول الله هو الحق ، وتشريعه هو الحق ، وكتبه حق ، ورسله

(١) سورة الحج/ ٦٢ .

حق ، وكذا تتوالى على يقينه الحقائق التي أسلفناها .
وهذا هو المستوى المطلوب للإيمان بالله بأن يصل المؤمن إلى
يقين بربه ، لا يحتاج معه إلى مقاييس للأشياء التي تحيط به ،
وللأفكار التي تمر بخاطره ، لياخذ منها أو يدع .

وقد حدثنا سورة الأحزاب عن هذا المستوى المطلوب للإيمان
الصحيح ، فيقول تعالى : ﴿ وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَىٰ اللَّهُ
وَرَسُولُهُ أَمْرًا أَنْ يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ ، وَمَنْ يَعْصِ اللَّهَ
وَرَسُولَهُ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا مُّبِينًا ۝ ﴾ (١) .

ولأجل ما يصل إليه قلب المؤمن في ظلال الإيمان احق من
استقامة على نهج الحق في غير انحراف ولا التواء نصحنه النبي عليه
الصلاة والسلام بأن نستفتيه في قضية الحلال والحرام ، فقال
ﷺ : « البر ما اطمأنت إليه النفس واطمأن إليه القلب ، والإثم
ما حاك في الصدر ، وخفت أن يطلع عليه غيرك وإن أفتاك الناس
وأفتوك » (٢) .

كما يحذر - عليه الصلاة والسلام - هذا القلب المستقيم على
الحق من السير على درب الشبهات والريب استبقاء لإيمانه ويقينه ،
وحفاظا على دينه وعرضه ، فيقول : « الحلال بين والحرام بين ،
وبينهما أمور مشتهيات ، فمن اتقى الشبهات فقد استبرأ لدينه
وعرضه ، ومن وقع في الشبهات وقع في الحرام كراع يرعى حول
الحمى يوشك أن بواقعه ألا وإن لكل ملك حمى ، ألا وإن حمى

(١) سورة الأحزاب/ ٣٦ .

(٢) ورد في مسند الإمامين أحمد بن حنبل والدارمي عن وابصة بن معبد .

الله في أرضه محارمه . ألا وإن في الجسد مضغة إذا صلحت صلح الجسد كله ، وإذا فسدت فسد الجسد كله ، ألا وهي القلب» ^(١) .
كما يقول ﷺ : « دَعِ مَا يَرْبِكُ إِلَى مَا لَا يَرْبِكُ » ^(٢) .

ثانيها : الثبات الذي لا ينقض ، والوجوب الذي لا يتخلف ، والمطابقة للواقع المدرك والمشاهد المحس ، والصدق الذي لا يشوبه كذب ، والعدل الذي لا يعرف جورا ، والعلم الذي ينأى بالإنسان عن الجهل ، والخير الذي يعصم من الشر ، والحقوق الملزمة التي يلتزم بها الإنسان في دائرة المجتمع الإنساني .
كل هذه خصائص للحق في الإسلام ، ولن تتحقق قضية الحق بدونها ، أو مادام الإنسان بمعزل عنها .

ثالثها : المعرفة الإنسانية وهي جوهر قضية الحق .
من الفلاسفة من قالوا : إن طريقها الحس ، فالحق عندهم هو الْمُحَسَّ ، المشاهد ، وما وراءه خرافة ، وقد سار على هذا النهج الماديون جميعا من وجوديين ، وطبيين ، وماركسيين ، ومن كانوا يسمون قديما بالدهريين ، الذين وصفهم القرآن الكريم بقوله : ﴿ وَقَالُوا مَا هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَا إِلَّا الدَّهْرُ ﴾ ^(٣) .

ومنهم من ذهب إلى أن طريقها العقل ، فما يدركه العقل ويراها

(١) أخرجه البخاري من حديث النعمان بن بشير رضي الله عنه .

(٢) رواه الترمذي والنسائي ، وقال الترمذي : حسن صحيح عن أبي محمد الحسن ابن علي رضي الله عنهما .

(٣) سورة الجاثية/جزء من الآية/٢٤ .

فهو الحق .

وسار على هذا النهج فلاسفة اليونان مثل سقراط وأفلاطون ،
وأرسطو ، وحذا حذوهم من فلاسفة المسلمين : الكندي ،
والفارابي ، وابن سينا في الشرق ، وفي الغرب (الأندلس)
ابن رشد ، وابن باجه وابن طفيل .

وارتضى هذا المنهج مع شيء من التقويم والاعتدال ، والاهتمام
بالشرع ، أصحاب الفكر الاعتزالي .

وتسميتهم بهذا الاسم لا صلة له بمذهبهم ، وإنما أطلق الاسم
عليهم للملازمة تاريخية معروفة هي اعتزال واصل بن عطاء لمجلس أبي
الحسن الأشعري ، بعد أن اختلف معه في مسائل فاعتزل حلقته في
مسجد البصرة لأجلها ، فقال أبو الحسن حينذاك : اعتزلنا
واصل « فسمى هو وجاعته بالمعتزلة »^(١) .

وذهب آخرون إلى أن طريق المعرفة هو الشرع ... وهذا حق ،
وإن كان فكرهم لم يخلص من التأثير بالفلسفة .

لكن الذي نقوله ونقرره أن طريق المعرفة الصحيح ، والعلم
النافع هو الشرع .

ومن الخلل أن نسوق هذا الاتجاه في مواجهة الاتجاهين
السابقين ؛ لأننا عندما نقول : إن طريق المعرفة هو ما شرعه الله ،
وبذا يصبح كل ما جاء في القرآن الكريم حقا كله لا نغني إلغاء
الحس أو العقل ؛ إذ أن طريق الشرع يستوعب هذه الطرق كلها .

(١) الجانب الإلهي من التفكير الإسلامي ج ١ د . محمد البهي وراجع وفيات الأعيان
لابن خلكان ج ٥ ص ٦١ .

والمعتزلة فى دائرة الإسلام وشريعته غلبوا الطريق العقلى تغليبا تعطلت معه بعض النصوص بل كثرة منها ، فأسرفوا من هذه الناحية ، وبغوا ، ومحنة الإمام أحمد بن حنبل رضى الله عنه دليل على هذا البغى ؛ إذ أرادوا أن يلزموه بقضية عقلية هى القول بأن القرآن مخلوق ، وهذا يصطدم مع كثير من النصوص ، فرفض وعذب فصبر .

ولكنهم - إنصافا للحقيقة - وبرغم بغى بعض الخلفاء الذى أيدوا الاعتزال ، وفتنوا بمناهجه العقلية مثل المأمون فإنهم أدوا دورا فى الدفاع عن الإسلام فى مواجهة الملاحدة ، الذين لا يعرفون إلا المنهج المادى ، وإن كان هذا لا يرد عنهم ما وقعوا فيه من شطط بالغ^(١) ، وجنوح واضح ، عن النهج السوى للعقيدة الإسلامية . فالشرع الإسلامى اهتم بالحواس ، والمدركات الحسية عندما أمرنا بالاتجاه إلى الواقع ، واحترام القضايا البديهية ، المشاهدة فى هذا الوجود ، وعندما أكد لنا أن السمع والبصر سنسأل عنها يوم القيامة .

كما رأينا من بين الحقائق التى أوردها القرآن : الأمر الواقع ، الثابت المشاهد ، ومثل هذا الحق تدركه الحواس ، وكثير من الحقوق تدركها الحواس ، لكن الوقوف عند الحس وحده خطأ كبير ؛ لأن الحواس قد تخطئ ، وقد تُخدع ، ويلتبس عليها الأمر ، وعند ذاك توصل إلى باطل ، وتحول بين الإنسان والحق الواضح .

(١) راجع الكامل للمبرد فى حديثه عن واصل بن عطاء ، وراجع البيان والتبيين للجاحظ ج ١ ص ١٤ وراجع تمهيد لتاريخ الفلسفة للشيخ مصطفى عبد الرزاق .

فلا بد مع الحس من العقل

والعقل في الإسلام له مكانة كبيرة ، فهو مناط التكليف ، وهو أساس تكريم الإنسان ، كما نجد أن الحقائق الكبيرة والعظيمة التي يقدمها القرآن الكريم يحتكم فيها إلى العقل ، ويعرضها عليه ، ويستحثه على إدراكها ، ويؤكد أن إلغاء العقل يودى بصاحبه إلى جهنم ، قال تعالى : ﴿ وَقَالُوا لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِي أَصْحَابِ السَّعِيرِ فَاعْتَرَفُوا بِذَنبِهِمْ فَسُحْقًا لِأَصْحَابِ السَّعِيرِ ﴾ (١) .

وهذه إحصاءات من واقع القرآن الكريم تكشف عن مدى اهتمام الإسلام بالعقل إذ نجد أن كلمة « العقل » بمشتقاتها الكثيرة المتنوعة قد وردت في تسعة وأربعين موضعاً من القرآن الكريم . وأولو الألباب وهم أصحاب العقول تحدث عنهم الكتاب العزيز في ستة عشر موضعاً ، وكلها تتصل بالعقيدة ، وضرورة إخلاصها لله ، وتجريدها من مظاهر الشرك ، وكذا في الأستمساك بشريعة الله ، والعمل بقانونه .

وأولو الأبصار ، وهم العقلاء أيضاً تحدث عنهم القرآن الكريم في سبعة عشر موضعاً (٢) .

والعقل الذي يقول عليه القرآن الكريم هو العقل الواعي ، الذي خلع أردية التعصب والتقليد ، واستضاء بنور الفطرة الهادية ، واكتسب صدق التصور من عقيدة التوحيد ؛ فإن هذا

(١) سورة الملك/ ١١ .

(٢) رجعتنا في هذه الإحصاءات إلى المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم ، ومعجم ألفاظ القرآن الكريم - إصدار مجمع اللغة العربية - القاهرة .

العقل في إخلاصه ، وبعده عن الهوى ، وعن التأثر برأى الآخرين كفيل مع الحس الصادق أن يدرك الحق من عند الله .

فالتماس المعرفة من الشرع ، سعيا وراء الحق ، يفرض علينا استخدام ما وهبنا الله إياه من حسٍّ صادق ، وعقل واع .

وقد أكد الإمام تقي الدين أبو العباس بن تيمية هذه الحقيقة في كتاب « درء تعارض النقل مع العقل » .

وإذا قلنا : الشرع ، فالمعنى بالشرع أمران :

أولهما : كتاب الله ، الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ، ولا من خلفه .

والثاني : السنة الصحيحة التي هي في جوهرها تطبيق للقرآن الكريم ، فالنبي عليه الصلاة والسلام بسنته الشريفة كان قرآنا يمشي على الأرض ، أو على حد عبارة السيدة عائشة رضي الله عنها « كان خلقه القرآن » (١) .

وقد نصحننا ربنا تبارك وتعالى باتباع النبي عليه الصلاة والسلام ، وزكاه وجعل الخير في الاقتداء به ، وبين لنا أن طاعته من طاعة الله ، فقال تعالى : ﴿مَنْ يُطِيعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللَّهَ﴾ (٢)

﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِمَنْ كَانَ يَرْجُوا اللَّهَ

(١) هو قطعة من حديث طويل رواه الإمام أحمد في مسنده ج ٦ ص ٥١ ورواه الحاكم في المستدرک ج ٢ ص ٤٩٩ مختصر وقال هذا حديث صحيح على شرط الشيخين ولم يخرجان انظر زاد المسیر ج ٨ ص ٢٩ .

(٢) سورة النساء الآية / ٨٠ .

وَالْيَوْمَ الْآخِرِ^(١) ﴿وَأَنْ تُطِيعُوهُ تَهْتَدُوا﴾^(٢) ﴿وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا﴾^(٣) .

وما وراء هذين قول بشر ، لا يعد - مهما كان قائله - مقياسا للحق ، فالحق لا يؤخذ مُسَلِّماً من بشر يخطئ ويصيب .
ولا قداسة في الإسلام لرأى إنسان ، أو لفعله ، أو لمؤلفاته ، وإنما كل ذلك يعرض على كتاب الله تعالى وسنة رسوله ﷺ ، فما وافقها فهو الحق ، وما خالفها فليس بحق .
وفى منهج الإسلام : يعرف الرجال بالحق ، ولا يعرف الحق بالرجال .

وبهذا العرض المفصل لقضية المعرفة باعتبارها جوهر الحق نجد أن الإسلام قد هدانا لما هو أسمى وأعظم ، وأدق وأثبت ، وأوسع وأشمل ؛ لأن مقياس الحق يعتمد على الحس والعقل والشرع جميعا في تأخ ، وتوافق ، واتساق .

فالحس يقومه العقل ، ويحميه من الخداع ، والعقل يهتدى بالدين الحق ، حتى لا تشتط به نوزاعه وشطحاته .

ومن هنا ندرك مدى التخطيط الذى وقع فيه من قصرُوا المعرفة على الحس ؛ إذ أنهم بهذا سيعيشون فى مجتمع بلا قيم ثابتة ، ولا قوانين حاكمة .

وكذا تخطط من قصرُوا المعرفة على العقل ، وكانت عقولهم

(١) سورة الأحزاب الآية/٢١ .

(٢) سورة النور الآية/٥٤ .

(٣) سورة الحشر الآية/٧ .

تحكمها الأهواء ، وتسيرها النزوات ، فأثاروا جدلا كبيرا ، ومراء عنيقا ، ولم يصل إلى حلٍّ يرضى في قضايا الكون أو ماوراءه . وجاء الإسلام فهدى العقل الإنسانى ، وقاده إلى الحق وإلى صراط مستقيم .

إن في القرآن الكريم آية عظيمة الشأن أَرَّخَتْ لبواعث الخلاف في المجتمع البشرى ، وحللت دوافعه ، ثم انتهت إلى نتيجة لا ريب فيها هي أن الهداية إلى المعرفة الحقة عن طريق الإيمان الصادق ، الذى يمتحك التصور الصحيح ، ويضع يديك على أسباب العلم النافع ،

وما نشأ الخلاف في مجتمع البشر الذى كان أول الأمر على نمط واحد في التعامل مع الحياة وإن تصارعت أهواؤهم ومطالبهم وشهواتهم ، ثم جاء الرسل بمناهج المعرفة الحقة ، يحددون للإنسانية معالم الطريق الهادية ، ولينقذوهم من اختلافات الأهواء ، الناشئة من تحكيم الحواس ، أو العقل المغلول بالنزعات والنزوات ، فالذين استجابوا للرسل هداهم الله إلى ما ينقذهم من أسباب الخلاف ، ويقودهم إلى الطريق المستقيم .

ولتندبر معا هذه الآية التى تعد دستورا حكيما ، يكشف طبيعة المجتمع الإنسانى .

﴿كَانَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً فَبَعَثَ اللَّهُ النَّبِيِّينَ مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ وَأَنْزَلَ مَعَهُمُ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِيَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ فِي مَا اخْتَلَفُوا فِيهِ وَمَا اخْتَلَفَ فِيهِ إِلَّا الَّذِينَ أُوتُوهُ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمْ الْبَيِّنَاتُ بَغْيًا بَيْنَهُمْ فَهَدَى اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا لِمَا اخْتَلَفُوا فِيهِ مِنَ الْحَقِّ بِإِذْنِهِ وَاللَّهُ يَهْدَى

مَنْ يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴿١﴾ .

فقد كان من النكسات التي واجهت الفكر الإسلامى أن يلتمس الحلول من فلاسفة اليونان الذين لم يصلوا إلى شىء يشفى ، ثم نقلدهم ، ونحمل أنفسنا وديننا شططا فى عملية التوفيق بين هراء هؤلاء الناس ، وحقائق الإسلام .

فهل يتفق الحق والباطل ؟ أو هل يتوافق النور والظلام ؟ وهل من الحق أن نسوى بين قول الرحمن ، ورأى الإنسان !!؟

سبحان ربى . إنه بهتان عظيم .
وهناك أمر لا يصح أن نغفله لما يتضمنه من خطورة على قضية الحق .

ذهب بعض المتصوفة مذهبا غربيا ، يؤكد بُعدَ مناهج المتصوفة - لاسيما فلاسفتهم - عن منهج الإسلام الصحيح .

قالوا : إن طريق المعرفة عندهم هو التذوق .

والتذوق مرحلة يصل إليها المتصوف عندما يسمو إلى مقام الفناء فى الذات الإلهية ، والاندماج فيها ، فيصبح هو هو .

ويقول قائلهم : من ذاق عرف ، وأن العبد إذا وصل ، واتصل بالله انمحت ماهيته ، وفنى فى الله ، وغرق فى بحر الوحدة ، وأنقذ من أوحال التوحيد^(٢) ، فيعرف حقائق كثيرة ، لا تتسنى

(١) سورة البقرة/ ٢١٣ .

(٢) ارجع إلى « دلائل الخيرات » التي يقرؤها المتصوفة فى اجتماعاتهم وفيها صلاة ابن مشيش : يقول فيها : « اللهم أنقذنى من أوحال التوحيد ، وأغرقتنى فى عين بحر الوحده حتى لا أرى إلا أنت » .

لغيره . وقد عبر ابن الفارض عن هذه المنزلة بقوله فى تائيته :
فما زلت إياها ، وإياى لم تزل ولكنها ذاتى لذائقى صلت
لها صلواتى بالمقام أقيمها وأشهد فيها أنها لى صلت
كما يقول :

أنا من أهوى ، ومن أهوى أنا نحن روحان حللنا بدنا
فإذا أبصرتنى أبصرته وإذا أبصرته أبصرتنا
وهذا المنهج فضلا عن أنه غير إسلامى ، وليس له سند صريح
من القرآن الكريم أو السنة الصحيحة ، فلا يؤيده حس ،
ولا عقل ، ولا شرع ، وهو من ناحية أخرى منهج هدام يحول
المجتمع إلى فوضى ، ويبطل شريعة الله ، ويهون من أمرها ، وأقطاب
هذا الاتجاه ، وأذواقهم ، ومواجيدهم معروفة فى كتبهم ، تنطق بما
يحمله هذا المنهج من ضلال ووبال^(١) .

(١) راجع للتعرف على هذه الأفكار الصوفية : ابن عربى فى كتابيه نصوص الحكم ،
والفتوحات المكية ، وراجع تائية ابن الفارض ، وكتاب الفرقان بين أولياء الرحمن
وأولياء الشيطان لابن تيمية وتحذير العباد من أهل العناد لبرهان الدين البقاعى ،
وكتاب هذه هى الصوفية للشيخ عبد الرحمن الوكيل بتحقيقنا وارجع أيضا إلى
الطبقات الكبرى للشعرافى .

قضايا ندرسها في ظلال الحقيقة الخالدة

- ١ - دين الله هو الاسلام ، وهو منهج وتاريخ .
- ٢ - الإسلام والإيمان .
- ٣ - الإسلام وعقيدة التوحيد .
- ٤ - السنة ... المنهج الأمثل لتطبيق القرآن .
- ٥ - الإسلام والشرعة الهادية .
- ٦ - الإسلام والإيمان بالسنن الكونية .

القضية الأولى

دين الله هو الاسلام

والاسلام عقيدة ، ومنهج وتاريخ

﴿مَا كَانَ إِبْرَاهِيمَ يَهُودِيًّا وَلَا نَصْرَانِيًّا وَلَكِنْ كَانَ حَنِيفًا مُسْلِمًا
وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾

(آل عمران/ ٦٧)

الديانات السماوية

من العبارات الشائعة على الألسنة ، والتي تتردد بدون وعى أو تحقيق عبارة : الديانات السماوية .. نقولها في مواجهة الحديث عن الديانات الوثنية ، أو الفكر الإلحادى الذى تورط فيه بعض البشر ، ظنا منهم أن فيه سعادتهم فى الحياة الدنيا ؛ إذ هو - كما تصوروا - دعامة التقدم ، والحافز على الحضارة والرقى .

والمقولة الثانية صحيحة لأن الباطل تتعدد اتجاهاته تبعا لأهواء تابعيه ، فقاعدته الهوى ، وأما المقولة الأولى فخاطئة تماما ؛ لأن الدين السماوى قاعدته الحق ، ومن ثم فهو واحد لا يتغير .

والذى تكشف لنا هنا بعد الدراسة الواعية ، التى أسلفناها عن لفظ الإسلام ومشتقاته فى القرآن الكريم أن عبارة .. الديانات

السماوية .. تم عن فهم خاطيء وتصور غير سديد ، كما نبعد عن الصواب عندما نعتقد أن الديانات السماوية ثلاث : اليهودية والنصرانية ، والإسلام ، وباليهودية أرسل الله موسى ، وبالنصرانية أرسل الله عيسى ، وبالإسلام أرسل الله نبيه محمدا عليهم جميعاً صلوات الله ، وتسليمه .

مع أن الحقيقة التي يسجلها القرآن الكريم أن الله بعث رسله ، وأنبياءه جميعاً بالإسلام ، فهو الدين الحق عنده ، وليس له دين سواه ﴿إِنَّ الدِّينَ عِنْدَ اللَّهِ الْإِسْلَامُ﴾ (آل عمران ١٩) وأى تدين بغير منهج الإسلام الذي جاء به هؤلاء الرسل مردود على صاحبه ، يقول تعالى : ﴿وَمَنْ يَتَّبِعْ غَيْرَ الْإِسْلَامِ دِينًا فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي الْآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ (آل عمران : ٨٥) وأمانا عشرات الشواهد من القرآن تدعم هذه الحقيقة ، وتؤكد أن الإسلام هو الدين المرتضى للبشر جميعاً .

فهو عقيدة ، ومنهج ، وتاريخ
ويمثل ذلك في أمور :

أولها : الإسلام منهج راشد لبنى الإنسان ؟ ولذا دعاهم إليه ، ولفت أنظارهم إلى أصالة الحق فيه ، فقال تعالى : ﴿أَفَعَدَّ دِينَ اللَّهِ يَتَّبِعُونَ وَلَهُ أَسْلَمَ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا وَإِلَيْهِ

(١) تختلف مع المؤلف في اعتراضه على تسمية المسيحية واليهودية ديناً سماوياً ، واعتبار الأديان السماوية ثلاثة بإضافة الإسلام إليها . فالقرآن نفسه يذكر اليهود وديانتهم والنصارى وديانتهم وقصصهم مع أنبيائهم ، وتحريفهم لشرائعهم . ثم إنه لابد للتفريق بينها وبين الأديان البشرية من وصفها بأنها سماويتان (المشرف) .

يُرْجَعُونَ ﴿١﴾ فجوهر الدين الإلهي أن ينقاد البشر جميعاً لوجهه وأن
تعنوا وجوههم له .

وقد حدثنا القرآن الكريم عن الجن ، وأن منهم من آثروا
الإسلام ؛ لأنه منهج راشد ، وخطة سديدة ، فقال تعالى : ﴿وَإِنَّا
مِنَّا الْمُسْلِمُونَ وَمِمَّا الْقَاسِطُونَ فَمَنْ أَسْلَمَ فَأُولَئِكَ تَحَرَّوْا رَشَدًا﴾ (٢)
ثانيها : دعوة الناس جميعاً إلى أن يختموا حياتهم بالإسلام ،
وعلى نهجه القويم وحِرْصُ الرسل في ضراعتهم إلى الله على أن يطلبوا
منه أن يتوفاهم مسلمين .

مثال الأولى قوله تعالى : ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ
تَقَاتِهِ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ﴾ (٣)

تحمل هذه الآية دعوة المؤمنين إلى أن يتقوا الله إتقاء حقاً
يحفزهم على النهوض بالتكليف بقدر ما يملكون من جهد ،
وليحرصوا على أن تنتهى آجالهم على هدى الإسلام وهداه .
وأما الثانية فتدل عليها الشواهد الآتية .

يوسف عليه السلام بعد أن انتهى به الأمر إلى إنعام وإكرام
بعد أن تناوشته أحداث كبار ؛ وأملت به محن جسام لم تشغله النعمة
الكبيرة ، والسلطان العظيم ، والتمكين من خزائن الأرض عن طلب
الحاتمة الكريمة بأن يموت في ظلال الإسلام ، وعلى عبودية خالصة
لله رب العالمين .

(١) سورة آل عمران/ ٨٣ .

(٢) سورة الجن/ ١٤ .

(٣) سورة آل عمران/ ١٠٢ .

يقول تعالى : ﴿رَبِّ قَدْ آتَيْتَنِي مِنَ الْمُلْكِ وَعَلَّمْتَنِي مِنْ تَأْوِيلِ
الْأَحَادِيثِ فَاطِرَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ أَنْتَ وَلَىٰ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ
تَوَفَّنِي مُسْلِمًا وَالْحَقْنِي بِالصَّالِحِينَ﴾^(١)

وقال السحرة في مواجهة بنى فرعون وبطشه ، يردون عليه
نقمته ، ووعيده بيقين ذكى ، وصبر عظيم ﴿وَمَا تَنْقِمُ مِنَّا إِلَّا أَنْ آمَنَّا
بِآيَاتِ رَبِّنَا لَمَّا جَاءَتْنا رَبَّنَا أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا وَتَوَفَّنَا مُسْلِمِينَ﴾^(٢)
ثالثها : فى حديث القرآن الكريم عن رسل الله وأنبيائه ندرك أن
الرسالات السماوية كلها أجمعت على الدعوة إلى الاسلام بمضمونه
وجوهره ، ولفظه أيضاً .

أما دعوتهم إليه بالمضمون
فتمثل فى قوله تعالى : وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولًا أَنْ اعْبُدُوا
اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ﴾^(٣)

وعباداة الله ، واجتناب الطاغوت هما جوهر الإسلام الحق ، كما
أسلفنا .

وفى سورة هود حدثنا رب العالمين عن نوح ، فقال تعالى :
﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِ إِنِّي لَكُمْ نَذِيرٌ مُبِينٌ . أَنْ لَا تَعْبُدُوا
إِلَّا اللَّهَ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ أَلِيمٍ﴾^(٤)

وحدثنا عن هود ، وقد توجه بالدعوة نفسها إلى قومه عاد .
يقول تعالى : ﴿وَالِىٰ عَادِ أَخَاهُمْ هُودًا قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ

(١) سورة يوسف/ ١٠١ .

(٢) سورة الأعراف/ ١٢٦ .

(٣) سورة النحل/ ٣٦ .

(٤) سورة هود/ ٢٦ .

مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ ﴿١﴾

كما حدثنا عن ثمود ، وقد دعاهم نبيهم صالح إلى المنهج ذاته ، فقال تعالى : ﴿وَالَّذِي تَأْتِيهِمْ كِبَرًا جَدًّا وَقَوَمًا أَغْلَتْ عَلَيْهِمْ أَنْفُسُهُمْ فَجَاءَنَّهُمْ شِقَاقَ الْيَوْمِ وَمَا لَهُمْ بِالْيَوْمِ مِنْ عِذْرِ غَيْرٍ﴾ (٢)

وحدثنا عن شعيب في رسالته إلى مدين ، فقال سبحانه : ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا مِنْ أَهْلِ مَدْيَنَ وَاتَّبَعَتْهُمْ ذُرِّيَّتُهُمْ بِإِذْنِ اللَّهِ فَأَجْرُهُمْ أَتَوَتْهُمْ آلَهُمْ مِنْ أَهْلِ مَدْيَنَ فَتَتَّبَعْتَهُمْ وَصَدَّقُوا بِالْبَيْتِ الْمُقَدَّسِ فَأَعْتَدْنَا لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ (٣)

ولا شك أن الاتجاه بالعبودية لله وحده ، والإعراض تماماً عن الآلهة الباطلة هو أقوم مضمون للإسلام ، وهو المحتوى الصحيح ، والصادق له .

كما نرى الرسل الكرام في دعوتهم البشر للدين الحق ، يتحرون الاسم الذي اختاره الله ، وارتضاه وهو الإسلام ، ونجد لذلك شواهد متعددة في الكتاب العزيز .

فنوح عليه السلام يؤكد لقومه أنه أمر بالإسلام ، وجاء يدعوهم إليه ، يقول تعالى : ﴿فَإِنْ تَوَلَّيْتُمْ فَمَا سَأَلْتُكُمْ مِنْ أَجْرٍ أَنْ أَتِيَهُمْ إِلَّا عَلَى اللَّهِ وَأُوتِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ﴾ (٤)

وإبراهيم عليه السلام يصفه القرآن الكريم بأنه كان مسلماً ، وذلك في قوله تعالى : ﴿مَا كَانَ إِبْرَاهِيمُ يَهُودِيًّا وَلَا نَصْرَانِيًّا وَلَكِنْ

(١) سورة هود/٦٥ .

(٢) سورة هود/٦١ .

(٣) سورة هود/٨٤ .

(٤) سورة يونس/٧٢ .

كَانَ حَنِيفًا مُسْلِمًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴿١﴾

وأن الله أمره بالاسلام فاستجاب لأمر ربه ، وأسلم له .
ووصى به أبناءه من بعده ، وكذلك فعل حفيده يعقوب عليه السلام .

يقول تعالى : ﴿وَوَصَّى بِهَا إِبْرَاهِيمُ بَنِيهِ وَيَعْقُوبُ يَا بَنِيَّ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَى لَكُمُ الدِّينَ فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُمْ مُسْلِمُونَ . أَمْ كُنتُمْ شُهَدَاءَ إِذْ حَضَرَ يَعْقُوبَ الْمَوْتَ إِذْ قَالَ لِبَنِيهِ مَا تَعْبُدُونَ مِنْ بَعْدِي قَالُوا نَعْبُدُ إِلَهَكَ وَاللَّهُ أَبَاتُكَ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ إِلَهًُا وَاحِدًا وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ﴾ (٢)

ولا عجب فالاسلام كان أمنية النبي الأمة ، التي هفا إليها قلبه ، وطلبها من الله تعالى ، وهو يقيم أول بيت للإسلام في «مكة» وجاء في دعائه : ﴿رَبَّنَا وَاجْعَلْنَا مُسْلِمِينَ لَكَ وَمِنْ ذُرِّيَّتِنَا أُمَّةٌ مُسْلِمَةً لَكَ وَإِرَانًا مَنَاسِكَنَا وَتُبْ عَلَيْنَا إِنَّكَ أَنْتَ الْكَوَّابُ الرَّحِيمُ﴾ (٣)

والاسلام في عقيدة إبراهيم عليه السلام ، وفي عبادته ، وفي سلوكه ، وفي أسلوب دعوته كان نمطاً فريداً ، وتطبيقاً متميزاً ، ومن أجل ذلك زكى الله ملته ، وسفّه من انحرف عنها فقال تعالى : ﴿وَمَنْ يَرْغَبْ عَنْ مِلَّةِ إِبْرَاهِيمَ إِلَّا مَنْ سَفِهَ نَفْسَهُ﴾ (٤)

(١) سورة آل عمران/ ٦٧ .

(٢) سورة البقرة/ ١٣١ وما بعدها .

(٣) سورة البقرة/ ١٢٨ .

(٤) سورة البقرة/ ١٣٠ .

وعندما تجددت دعوة العرب إلى الاسلام على يد محمد عليه الصلاة والسلام ، كان من الحقائق التي قدمها القرآن الكريم للعرب ؛ ليصحح تصورهم لدعوة الإسلام الجديدة ؛ إذ قالوا : ﴿ مَا سَمِعْنَا بِهَذَا فِي الْمِلَّةِ الْآخِرَةِ ﴾ ^(١) قال رداً عليهم : ﴿ وَجَاهِدُوا فِي اللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِ هُوَ اجْتَبَاكُمْ وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ مِلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَاهِيمَ هُوَ سَمَّاكُمُ الْمُسْلِمِينَ مِنْ قَبْلُ وَفِي هَذَا ﴾ ^(٢) وهذا أكد لهم أن الاسلام الذي جاء به محمد عليه الصلاة والسلام لا يختلف عن الملة الآخرة التي ورثوها عن إبراهيم واسماعيل ، وأن إسم الإسلام ، والتسمية به معروفة من الرسالات السابقة .

وموسى عليه السلام أرسله الله إلى فرعون لإنقاذ بنى إسرائيل من ظلمه ، وليعيدهم إلى الاسلام ، وجاء في دعوته لهم ، وهو يحثهم على مواجهة الأحداث بصبر وثقة في الله أن ذكرهم بالاسلام ، فقال : ﴿ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُوا أَمْرِي ﴾ ^(٣) **مُسْلِمِينَ** .

والدليل على أن رسالته هي الإسلام معرفة فرعون بها ، وإعلانه التوبة إليها برفعه شعار الإسلام : إذ قال كما حدثنا الله

(١) سورة ص/٧ .

(٢) سورة الحج/٧٨ .

(٣) سورة يونس/٨٤ .

تبارك وتعالى : ﴿حَتَّى إِذَا آدَرَكَهُ الْعِرْقُ قَالَ أَمِنْتُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا الَّذِي آمَنْتُ بِهِ بَنُوا إِسْرَائِيلَ وَأَنَا مِنَ الْمُسْلِمِينَ﴾^(١)
 وبهذا المنطق الفرعوني ساعة الخطر يتبين لنا أن موسى عليه السلام كان داعياً للإسلام .

والتوراة التي أنزلها الله على نبيه موسى عليه السلام كانت كتاب إسلام ، وهى بالصورة التي تلقاها موسى عن ربه مصدر نور وهداية ، يقول تعالى : ﴿إِنَّا أَنْزَلْنَا التَّوْرَةَ فِيهَا هُدًى وَنُورٌ يَحْكُمُ بِهَا النَّبِيُّونَ الَّذِينَ أَسْلَمُوا لِلَّذِينَ هَادُوا وَالرَّبَّانِيُّونَ وَالْأَحْبَارُ بِمَا اسْتُحْفِظُوا مِنْ كِتَابِ اللَّهِ وَكَانُوا عَلَيْهِ شُهَدَاءَ﴾^(٢)

والحديث عن الإسلام فى رسالة سليمان عليه السلام تناوله القرآن الكريم فى عدة مواضع ، كلها فى قصته مع ملكة سبأ .
 فى رسالة الدعوة التى دعا فيها أهل سبأ ، وملكهم إلى الله ، قال فى رسالته ، كما جاءت بالنص فى القرآن الكريم : ﴿إِنَّهُ مِنْ سُلَيْمٍ وَإِنَّهُ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ . أَلَا تَعْلَمُوا عَلَىٰ وَاتُونِى مُسْلِمِينَ﴾^(٣)

فهو إذن يدعوهم إلى الإسلام ؛ لأنه الدين الذى أرسل به ، وأرسل به الرسل جميعاً .

ورد أهل سبأ على رسالته بهدية يختبرون بها أهدافه ، أهو ملك طامع أم رسول هاد ؟! فرد الهدية ، وطالب أعوانه الأشداء

(١) سورة يونس/ ٨٤ .

(٢) سورة المائدة/ ٤٤ .

(٣) سورة النمل/ ٣١ .

باستحضار عرشها ، فقال : ﴿إِيَّكُمْ يَأْتِينِ بَعْرُشِهَا قَبْلَ أَنْ يَأْتُونِي مُسْلِمِينَ﴾ (١)

واتضحت جوانب الحقيقة أمام الملكة الكبيرة ، وتبين لها أنها أمام رجل دعوة قبل أن يكون رجل دولة : ﴿قَالَتْ رَبِّ ائْنِي ظَلَمْتُ نَفْسِي وَأَسْلَمْتُ مَعَ سُلَيْمَانَ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ (٢)
فعرفت الملكة أن سليمان كان مسلماً فأسلمت معه .

ورسالة عيسى عليه السلام كانت الإسلام
ويبدو ذلك في قوله تعالى : ﴿وَإِذْ أَوْحَيْتُ إِلَى الْحَوَارِيِّينَ أَنْ آمِنُوا بِي وَبِرَسُولِي قَالُوا آمَنَّا وَأَشْهَدُ بَأَنَّا مُسْلِمُونَ﴾ (٣)
فالحواريون في الآية يعلنون إسلامهم ، ويشهدون على ذلك رسولهم .

وتأتى رسالة النبي محمد عليه الصلاة والسلام
وفيها آخر دعوة للإسلام ، وتحدث أول ما تحدث عن الذين أوتوا الكتاب من قبل القرآن ، ولما جاءهم القرآن آمنوا به ، وظلوا على إسلامهم الذي عرفوه من قبل ، يقول تعالى : ﴿وَلَقَدْ وَصَّلْنَا لَهُمُ الْقَوْلَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ . الَّذِينَ اتَّبَعَهُمُ الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِهِ هُمْ بِهِ يُؤْمِنُونَ وَإِذَا يُتْلَى عَلَيْهِمْ قَالُوا آمَنَّا بِهِ إِنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّنَا إِنَّا كُنَّا مِنْ قَبْلِهِ مُسْلِمِينَ﴾ (٤)

(١) سورة النمل/ ٢٨ .

(٢) سورة النمل/ ٤٤ .

(٣) سورة المائدة/ ١١١ .

(٤) سورة القصص/ ٥٦ . ٥٧ .

وقد حدد القرآن الكريم للنبي محمد عليه الصلاة والسلام حقيقة الدين وأنه الإسلام ، ولا شيء غيره ، وأى اختلاف عنه اسماً أو مضموناً فهو تجاوز مرفوض ، يدفع إليه بغى البشر وأهواؤهم ، ثم ينصح نبيه إذا حاجَّهم ، أو جادلهم أن يعلن إليهم أنه أسلم ، وأن الإسلام هو الكلمة السواء بينه وبينهم .
وجاء ذلك فى موضعين من سورة آل عمران :

الأول : يقول فيه ربنا تبارك وتعالى : ﴿إِنَّ الدِّينَ عِنْدَ اللَّهِ الْإِسْلَامُ وَمَا اخْتَلَفَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ إِلَّا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمْ الْعِلْمُ بَعْيَا بَيْنَهُمْ وَمَنْ يَكْفُرْ بآيَاتِ اللَّهِ فَإِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ . فَإِنْ حَاجُّوكَ فَقُلْ أَسْلَمْتُ وَجْهِيَ لِلَّهِ وَمَنِ اتَّبَعَنِ وَقُلْ لِلَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ وَالْأُمِّيِّينَ أَسْلَمْتُمْ فَإِنْ أَسْلَمُوا فَقَدِ اهْتَدَوْا وَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلَاغُ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ ﴾^(١)

والموضع الآخر : يقول فيه ربنا تبارك وتعالى : ﴿قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَى كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ إِلَّا نَعْبُدَ إِلَّا اللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقُولُوا اشْهَدُوا بِأَنَّا مُسْلِمُونَ ﴾^(٢)

وقد دعا النبي محمد عليه الصلاة والسلام قومه العرب إلى العبودية لله وحده ، وأنها جوهر رسالته ، وأن الإذعان لها هو الإسلام ، يقول تعالى : ﴿قُلْ إِنَّمَا يُوحِي إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَهُكُمُ اللَّهُ وَاحِدٌ

(١) سورة آل عمران/ ١٩ . ٢٠ .

(٢) سورة آل عمران/ ٦٤ .

فَهَلْ أَنْتُمْ مُسْلِمُونَ^(١)

وفي أكثر من آية يؤكد القرآن الكريم على لسان النبي محمد عليه الصلاة والسلام أنه أول المسلمين ، بمعنى القدوة التي تحتذى في عقيدة الإسلام وعبادته وسلوكه .

إن الانتساب للإسلام ، وإعلان الاستمسك به ، والحرص عليه هو منهج التائب المنيب ، الضارع إلى الله تعالى : ﴿حَتَّى إِذَا بَلَغَ أَشُدَّهُ وَبَلَغَ أَرْبَعِينَ سَنَةً قَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِي أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَىٰ وَلَدِيَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَالِحًا تَرْضَاهُ وَأَصْلِحْ لِي فِي ذُرِّيَّتِي إِنِّي تُبْتُ إِلَيْكَ وَإِنِّي مِنَ الْمُسْلِمِينَ^(٢)﴾

بهذا تتأكد القضية ، وينكشف على ضوء البيان القرآني صدقها : الاسلام هو دين الله ، وليس لله دين سواه .

وبقيت كلمة أخرى

إذا ثبت بالدليل اللغوي ، والبياني ، والتشريعي أن القرآن فوق مستوى جهد البشر ، وأن أحداً لا يستطيع الإتيان بمثل سورة منه ، فعليهم - إذن - أن يؤمنوا بهذه الحقيقة ، وأن القرآن من علم الله الذي لا إله غيره ، وأنهم من أجل الفوز والفلاح مطالبون بالاسلام . يقول تعالى : ﴿فَالَمْ يَسْتَجِيبُوا لَكُمْ فَأَعْلَمُوا أَنَّمَا أُنْزِلَ بِعِلْمِ اللَّهِ وَأَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَهَلْ أَنْتُمْ مُسْلِمُونَ^(٣)﴾

(١) سورة الأنبياء/ ١٠٨ .

(٢) سورة الأحقاف/ ١٥ .

(٣) سورة هود/ ١٤ .

على هذا النحو تضافت الأدلة ، وتكاثفت بما لا يدع مجالا للشك لتقرر أن الإسلام رسالة الرسل والأنبياء جميعاً ، وأنه منهاج الخير في الدنيا ، والفلاح في الآخرة .
ويبقى هذا التساؤل !!!

وماذا عن اسمى اليهودية والنصرانية؟؟

سؤال يفرض نفسه عندما نقرر الحقيقة السالفة
وقد أشرنا أن في تصور الجمهرة من الناس أن موسى جاء باليهودية ، وعيسى جاء بالنصرانية ، وقررنا أن هذا التصور خاطيء .
ويبقى أن نتعرف على الأسباب .

إن إسم اليهودية ابتدعه بنو إسرائيل ، وهو مأخوذ من هاد إلى الشيء يَهُودُ إليه هُوداً رجع إليه ، ومنه قوله تعالى : ﴿وَكُتِبَ لَنَا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةٌ وَفِي الْآخِرَةِ إِنَّا هُنَا إِلَيْكَ﴾ والوصف هائد ، ويجمع على هُود (بضم الهاء)

ولعلمهم اختاروا هذا الاسم ؟ لأنهم رأوا في الخروج من مصر مع موسى رجوعاً إلى ما كانوا عليه ، وعودة إلى الله ، وتوبة إليه .
أو أنه نسبة إلى «يهوذا» أحد أبناء يعقوب ، ورأس قبيلة من قبائلهم الاثنتى عشرة .

أيا ما كان أصل النسبة فالدافع إليها هوى بشرى غالب^(١)

(١) راجع كتابنا : بنو إسرائيل في القرآن - دار المعارف/القاهرة .

وكذلك النصرانية

ترجع في نسبتها إلى الناصرة ، بلدة في فلسطين بدأ فيها عيسى عليه السلام دعوته إلى الاسلام .

والمسيحية نسبة إلى المسيح عيسى بن مريم

وفكرة الابتداع في الاسم واضحة ؛ لأن دين الله ، وهو الحق من عنده ، لا ينتسب لمكان ، ولا يدعى لشخص ، وإنما إسم الدين الحق يحمل دائماً المعنى الكبير الذى يقوم عليه جوهره ، وتبنى عقيدته .

وعندما يخترع الإنسان لنفسه نسبة يعتز بها ، ويحرص عليها ، معبرا عن تدينه ، معرضا عن الاسم الذى اختاره الله وارتضاه فإن هذا يعنى بداية ضلالة على درب الهوى ، يتعرض معها لمزالق شتى في العقيدة ، والعبادة والسلوك .

والمأمل في أسلوب القرآن الكريم يدرك أنه يدمغ هاتين التسميتين ؛ إذ يقول تعالى : ﴿لَتَجِدَنَّ أَشَدَّ النَّاسِ عَدَاوَةً لِلَّذِينَ آمَنُوا الْيَهُودَ وَالَّذِينَ أَشْرَكُوا وَلَتَجِدَنَّ أَقْرَبَهُمْ مَوَدَّةً لِلَّذِينَ آمَنُوا الَّذِينَ قَالُوا إِنَّا نَصَارَى ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قِسِيْنَ قَرْهَبَانًا وَأَنَّهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ﴾ (١)

فالقرآن الكريم حين يصف اليهود يصفهم بالعداوة الشرسة للمؤمنين ويجعلهم في خط واحد مع المشركين ، وذلك تحت شعار الاسم الذى ابتكروه ، وهو اليهودية .

(١) سورة المائدة/٨٢ .

وعندما يتحدث عن اتباع عيسى عليه السلام باسم النصارى يذكر ذلك في رقة بالغة ؛ إذ يقول سبحانه : ﴿الَّذِينَ قَالُوا إِنَّا نَصَارَى﴾ وكأنه - سبحانه - بهذا ينفي أنها تسمية إلهية .
كما نلاحظ أن القرآن الكريم إذا تحدث عن مساوئ هؤلاء وأولئك ، ووصف انحرافاتهم في عقيدتهم وسلوكهم الديني يذكر ذلك في إطار هذا التعبير : قالت اليهود كذا ، وقالت النصارى كذا ، وما في مقولاتهم إلا كل بغى وضلال .
أما إذا تحدث عما لهم من محاسن فإنه يذكر ذلك تحت اسم : أهل الكتاب ، أو يكون الموقف موقف تجمل معهم ، ولو لم تكن لهم فيه حسنة (١)

وفي القرآن الكريم شواهد كثيرة لذلك .
يقول الله تعالى : ﴿مَا كَانَ إِبْرَاهِيمُ يَهُودِيًّا وَلَا نَصْرَانِيًّا وَلَكِنْ كَانَ حَنِيفًا مُسْلِمًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ (٢)
ففي اليهودية والنصرانية عن إبراهيم لا يعنى أنها متأخرتان عنه (٣) ولا ينسب المتقدم للمتأخر ، وإنما يعنى شيئاً آخر هو أنها ليستا - بهذا الشعار - من عند الله ، كما يفيد إثبات الإسلام له أنه الدين الذى اختاره الله وارتضاه .
ويقول تعالى : ﴿وَقَالَتِ الْيَهُودُ يَدُ اللَّهِ مَغْلُولَةٌ غُلَّتْ أَيْدِيهِمْ

(١) راجع كتابنا : بنو إسرائيل في القرآن .

(٢) سورة آل عمران/ ٦٧ .

(٣) القرآن صريح في الاحتجاج بنى اليهودية والنصرانية عن سيدنا إبراهيم لأنها متأخرتان عنه بقوله عز وجل في الآية السابقة : ﴿يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تَحْجُونَ فِي إِبْرَاهِيمَ وَمَا نُزِلَتِ التَّوْرَةُ وَالْإِنْجِيلُ إِلَّا مِنْ بَعْدِهِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ المشرف .

وَلْعُنُوا بِمَا قَالُوا»^(١)
ويقول تعالى : ﴿وَقَالَتِ الْيَهُودُ عِزِّيُّ بْنُ اللَّهِ وَقَالَتِ النَّصَارَى
الْمَسِيحُ ابْنُ اللَّهِ﴾^(٢)
ويقول تعالى : ﴿وَقَالُوا لَنْ يَدْخُلَ الْجَنَّةَ إِلَّا مَنْ كَانَ هُودًا
أَوْ نَصَارَى تِلْكَ أَمَانِيُّهُمْ﴾^(٣)
وأما المواضع التي يأتي فيها « أهل الكتاب » فمنها :
قوله تعالى : ﴿مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ أُمَّةٌ قَائِمَةٌ يَتْلُونَ آيَاتِ اللَّهِ آنَاءَ
الَّيْلِ وَهُمْ يَسْجُدُونَ﴾^(٤)
وقوله تعالى : ﴿يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَى كَلِمَةٍ سَوَاءٍ وَغَيْرِ
ذَلِكَ كَثِيرٌ .

والذي يؤكد أن هذين الاسمين مبتدعان من أهواء أصحابها
رفض كل منها لاسم الآخر ، ومنهجه ، يصف ذلك القرآن الكريم
فيقول : ﴿وَقَالَتِ الْيَهُودُ لَيْسَتْ النَّصَارَى عَلَى شَيْءٍ وَقَالَتِ
النَّصَارَى لَيْسَتْ الْيَهُودُ عَلَى شَيْءٍ وَهُمْ يَتْلُونَ الْكِتَابَ﴾^(٥)
ومن هنا ندرك الخطورة البالغة التي تنحدر إليها كثير من الجاهير
المسلمة عندما تفصل نفسها عن اسم الإسلام ، مؤثرة عليه اسم
التصوف بما ينطوي عليه من طرائق متنازعة ، لكل طريقة شيخ ،
ولكل شيخ منهج ، وأحزاب وأوراد ، ويرون في هذا المسلك

(١) سورة المائدة/٦٤ .

(٢) سورة التوبة/٣٠ .

(٣) سورة البقرة/١١ .

(٤) سورة آل عمران/١١٣ .

(٥) سورة البقرة/١١٣ .

أسلوباً أمثل في العبودية ، مع أن الطريق إلى الله واحد ، عبر عنه رب العالمين بقوله الحق : ﴿وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَنْ سَبِيلِهِ﴾^(١)

ولقد سمعت من بعض عشاق التصوف قوله : إن أى مسلم لا يعرف الطرق الصوفية لا يأمن الخطر على إسلامه ، وأنه قرأ القرآن كثيراً ، وأطلع على كتب السنة ، وماذاق لذة العبادة إلا عندما عرف الطريق التيجاني هكذا قال .

ومعنى هذا أن التصوف منهج ضرورى ، ولن يكون للإسلام تأثير ، أو اكتمال بدونه .

إنها العاقبة الوخيمة التى ينتهى إليها كل إنسان يظن أن الإسلام باسمه الاسمى لا يكفيه ، ولا يغنيه . نسأل الله العافية .

(١) سورة الأنعام/ ١٥٣ .

القضية الثانية

الإيمان والاسلام ... مفهوم جديد

﴿قَالَتِ الْأَعْرَابُ آمَنَّا قُلْ لَمْ تُؤْمِنُوا وَلَكِنْ قُولُوا أَسْلَمْنَا وَلَمَّا يَدْخُلِ الْإِيمَانُ فِي قُلُوبِكُمْ وَإِنْ تُطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ لَا يَلِتْكُمْ مِنْ أَعْمَالِكُمْ شَيْئًا﴾

(سورة الحجرات الآية ١٤)

الإيمان والإسلام

من وجهة نظر علماء الكلام

تحدث علماء الكلام وغيرهم من الكاتبيين في العقيدة الإسلامية في إطار المنهج المتأثر بالفكر الاغريقي عن الإسلام والإيمان حديثاً يفهم منه أن الإيمان هو المناط على أساس أنه يعنى الجوهر واللب ؛ لأن معناه الإذعان القلبي ، والتصديق الباطني ، وأن الإسلام يعنى الشكل والمظهر ، وبناء على هذا فالوصف بالإيمان أجل شأنًا ، وأعظم قدراً من الوصف بالإسلام .

يقول الشيخ عبدالجليل عيسى رحمه الله : موجب اللغة أن الإسلام أعم ، والإيمان أخص ، فكل إيمان إسلام ، ولا عكس .

وهذا فهم صحيح من الناحية اللغوية

ثم يتناول العلاقة بينهما حسب الاصطلاح الشرعى ، فيعرض أقوال العلماء والمتكلمين حسب تصورهم لها ، فيقول : ومعناها بحسب إطلاق الشرع ، تارة يطلقان على معنى واحد ، فيكونان مترادفين ، وتارة يطلق كل منهما على معنى يباين الآخر ، فيكونان متباينين ، وتارة يطلق أحدهما على معنى ، ويطلق الآخر على ما يشمل هذا المعنى وغيره ، فيكون بينهما العموم والخصوص

المطلق .. (١)

وهذه صورة للفهم المتأثر بالمنطق الأرسطي وهو فهم يحتاج إلى مناقشة ، علّنا على ضوءها نخلص إلى ما نراه من فهم جديد نابع من البيان القرآني ، والسنة النبوية الصحيحة . ذلك لأن الإسلام على ضوء دراستنا السابقة علم على دين الله ، يندرج تحته كل ما جاء فيه من أبواب الهداية ، والإيمان باب منها ، ولن تكون له قيمة إلّا في إطاره ، وهو بدونه ضلال . والاستعمال القرآني للفظين يؤكد هذا الاستنتاج ، وأن الإيمان الخالص لا ينفك عن الإسلام الصحيح ، يقول تبارك وتعالى : ﴿فَأَخْرَجْنَا مَنْ كَانَ فِيهَا مِنَ الْمُؤْمِنِينَ . فَمَا وَجَدْنَا فِيهَا غَيْرَ بَيْتٍ مِنَ الْمُسْلِمِينَ﴾ (٢)

وإذا تتبعنا لفظ الإسلام ومشتقاته في الكتاب العزيز على النحو الذي أسلفناه يتبين لنا أنه يعنى الباطن ممثلاً في عبودية خالصة لله ، والظاهر ممثلاً في شعائر ، ومناسك يتقرب بها الإنسان إلى الله ، بجانب الالتزام التام بمنهج الرحمن في علاقة الإنسان بالحياة والأحياء .

فالله تعالى يقول : ﴿وَأَنِيبُوا إِلَى رَبِّكُمْ وَأَسْلَمُوا لَهُ﴾ (٣) . وهذا كاف في عودة صادقة إلى الله . وعندما أرسل رسول الله ﷺ بكتبه المتعددة ، يدعو ملوك

(١) صفوة صحيح البخاري ج ١ (كتاب الإيمان) .

(٢) سورة الذاريات/ ٣٥ ، ٣٦ .

(٣) سورة الزمر/ ٥٤ .

العالم ، وذوى الشأن إلى الإسلام ، نرى دعوته الكريمة انحصرت
فى هذه العبارة «أسلم تسلم يؤتك الله أجرک مرتين»^(١)
فإذا أسلم الواحد منهم نفسه لله فقد سلم ، ولا يراد منه غير
هذا ، ولا يطلب المرء لنفسه أكثر من هذا .

بل إن الاستعمال اللغوى ، كما تشهد به معاجم اللغة ،
وقواميسها - وقد أشرنا لذلك آنفا - لا يساند ما اتجه إليه علماء
الكلام ؛ إذ الإيمان على ضوئه يعد جزءا من الإسلام .

ولعل الذى زكى لديهم هذا الفهم هذه الآية فى سورة
الحجرات : ﴿قَالَتِ الْأَعْرَابُ آمَنَّا قُلْ لَمْ تُؤْمِنُوا وَلَكِنْ قُولُوا أَسْلَمْنَا
وَلَمَّا يَدْخُلِ الْإِيمَانُ فِي قُلُوبِكُمْ﴾^(٢) حيث ذكر الإسلام مقابلا
للإيمان ، وكان هؤلاء الأعراب منافقين لهم ظواهر إسلامية ،
وليس لهم يقين صادق ، فمن حقهم أن يرفعوا شعار الإسلام ،
وليس من حقهم أن يرفعوا شعار الإيمان !!

ولهم فى هذا الصدد قاعدة يرددونها ، ومؤداها : أن الإيمان
والإسلام فى القرآن إذا ذكر أحدهما بدون الآخر شمل الاثنين
جميعا ، وإذا ذكرا معا فى آية واحدة اختلف مفهومهما ، وأصبح
الإسلام يعنى الأعمال الظاهرة ، والإيمان يعنى الأعمال الباطنة .
والجزء الأول من هذه القاعدة صحيح .

فإذا تحدث القرآن عن الإيمان الصادق الذى يحقق لصاحبه
القبول والرضا ، ويمنحه المثوبة ، فهو بلا شك لا يتفصل عن

(١) راجع سيرة ابن هشام ج ٤ .

(٢) سورة الحجرات/ ١٤ .

الإسلام .

وإذا تحدث عن الإسلام وحده فبلا ريب يعنى العقيدة الخالصة لله ، التى تدفع صاحبها إلى القول الطيب والعمل الصالح . ولكن الجزء الثانى من القضية هو الذى يتطلب مناقشة فذكر لفظ الإيمان والإسلام فى آية واحدة لا يعنى اختلافا فى مفهوميهما ، ولا يعنى أن الإسلام مقصور على العمل الظاهرى . ولترجع إلى آية الحجرات لتعرضها العرض الذى نراه صحيحا . فهؤلاء الأعراب الذين نافقوا أرادوا الإعلان عن إنتمائهم لمجتمع المسلمين الذى يقوده رسول الله ﷺ ، فرفعوا شعار الإيمان ، وهو تصرف غير سديد ، لأن شعار هذا المجتمع هو الإسلام الذى يعد الإيمان جزءا منه والذى يريد الانتساب للكل لا يرفع شعارا معبرا عن الجزء وحده . على أن هذا الجزء الذى رفعوا شعاره ، لم يصل إليه هؤلاء الأعراب بعد ، ومن المتوقع أن يصلوا إليه ، وكان الأولى لهم أن يرفعوا الشعار الشامل الذى يحقق لهم الفوز والفلاح ، وهو يتمثل فى طاعة الله ورسوله التى هى الإطار العام للالتزام بالمنهج الإسلامى .

والله تعالى ينصح هؤلاء الأعراب الذين يتخبطون فى القول بعد التخبط فى السلوك والاعتقاد بأن يلتزموا بالإسلام كاملاً غير منقوص .

وكان الرسول ﷺ حريصا على أن ينبه أصحابه إلى التمسك بشعار الإسلام دون شعار آخر حتى ولو كان هذا الشعار هو الإيمان .

من ذلك ما رواه البخارى عن سعد بن أبى وقاص رضى الله عنه أنه رأى الرسول عليه الصلاة والسلام يوزع الصدقات ، ويعطى رجالا لا يراهم سعد مستحقين لها لعدم صدق اسلامهم ، ويترك رجالا يراهم سعد أحق بها ، فيقول : يا رسول الله ، مالك عن فلان ، إني لأراه مؤمناً؟! فيقول له الرسول عليه الصلاة والسلام «أومسلما» .

ويواصل النبي عليه الصلاة والسلام عمله في توزيع الصدقات ، ويظل سعد يراجع لما يغلب عليه من معرفته لحال الرجل الذى أعرض عنه رسول الله ﷺ ، والنبي ﷺ في كل مرة يرد عليه قائلا : «أومسلما» ثم يقول : «يا سعد إني لأعطي الرجل ، وغيره أحب إلى منه خشية أن يكبه الله في النار»^(١)

وهنا أقول : إن النبي عليه الصلاة والسلام عندما يقول لسعد : «أومسلما» بمعنى بل قل : إنه مسلم ، ولا تقل : إنه مؤمن على أساس أن الإسلام هو الشعار الذى ينبغى أن يعلن ، وأن يرفع .

وليس المقصود من هذا أن الإيمان من عمل القلب ، ولا يعلم به أحد بينما الإسلام أمره يسير ؛ لأنه أعمال ظاهرة نراها ، ويمكن أن نحكم على صاحبه بمقتضاها !! إذ يترتب على هذا التصور أمر خطير ، هو أن المنافق يمكن أن يسمى «مسلمًا» مع أنه لا إسلام له ؛

(١) كان سعد يتصور أن الأحق بالصدقة من هو أصح إسلاما ، ولأجل هذا بين النبي عليه الصلاة والسلام أن الصدقات في الإسلام قد تكون أسلوبا لمعالجة القلوب المريضة والمرباة ؛ إنقاذها من الريب والشكوك .

لأن الإسلام يعنى إسلام القلب ، والمنافق لا يملكه ؛ ولأن المسلم كما عرفه رسول الله ﷺ : «مَنْ سَلِمَ المسلمون من لسانه ويده»^(١) ، والمنافقون كثيرا ما تمتد أيديهم وألسنتهم بالسوء .
أما كون المنافق مستسلما فى ظاهره لدولة الإسلام التى أقامها رسول الله ﷺ بعد الهجرة فذلك لا يسوغ لنا أن نقول : إنه مسلم ، ولكن نقول : إنه منافق أو مستسلم .
ومن هنا نصل إلى نتيجة .

إسم الاسلام أولى وأعظم ، وأدق وأحكم
ويؤيد ذلك فى تقديرى شواهد عدة .

أولها : اختيار اسم الإسلام علما على الدين الحق الذى اختاره الله لعباده ، وأرسل به رسله ، وقد فصلنا فيما مضى جوانب هذه القضية .

ثانيها : الإيمان الصحيح الصادق ، يمثل جزءاً من الإسلام ، وهو جانب العقيدة ، ولفظ «الإسلام» يوحى بالإيمان ، ويعبر تعبيرا تاما عن العقيدة ؛ إذ ماذا يعنى أن يسلم الإنسان وجهه لله إلا أن تكون عبوديته خالصة له وحده ؟!!^(٢)

ودخول الجانب القلبي وهو العقيدة فى مفهوم الإسلام يؤيده قوله ﷺ : «بنى الإسلام على خمس : شهادة أن لا إله إلا الله ،

(١) متفق عليه من حديث عبد الله بن عمرو بن العاص رضى الله عنها .
(٢) وقد حملت الفرق الإسلامية نفسها منذ قديم عتبا كبيرا فى مناقشة قضايا فرضية مثل : ما حكم من اعتقد بقلبه وآمن وصدق ، ولكنه لم يعمل عملا صالحا ، أو ارتكب كبيرة مثلا ؟! ونحو بينهم خلاف واسع ، ولو أحسنوا التفكير لاستراحوا ، إذ لا يمكن لصادق العقيدة أن يتخلى عن منهج تفرضه عليه عقيدته .

وأن محمدا رسول الله ، وإقام الصلاة وإيتاء الزكاة ، وصوم رمضان ، وحج البيت لمن استطاع إليه سبيلا^(١)

فالإقرار بالعبودية لله وحده ، وبالرسالة لنبيه محمد ﷺ ، وهو مناط الإيمان السديد المقبول عند الله ، بعد الركن الأول في بناء الإسلام .

وكذلك ما رواه أحمد رضي الله : سئل رسول الله ﷺ : أى الأعمال أفضل ؟ قال : الإسلام ، فقيل : أى الإسلام أفضل ؟ فقال : الإيمان ..

وقد فسر النبي ﷺ الإيمان بأن تؤمن بالله وملائكته وكتبه ، ورسله واليوم الآخر ، والإيمان على هذا النحو لا يفيد صاحبه ما لم يكن معه إقرار ، واتجاه بالعبودية لله وحده بأن تكون هذه العقيدة في دائرة الإسلام الحق .

ثالثها : يمكن للإيمان أن يداخله شرك ، ويمكن أن يكون الإنسان مؤمناً وفي الوقت نفسه على ظاهرة من ظواهر الشرك . وما أكثر المؤمنين !! وما أقل العابدين المحلصين الذين سباهم ربنا تبارك وتعالى مسلمين !!

يقول تعالى : ﴿وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُمْ بِاللَّهِ إِلَّا وَهُمْ مُشْرِكُونَ﴾^(٢) ولم يرد مثل هذا التعبير في القرآن بالنسبة للفظ «الإسلام» بل نجد الإسلام معه الفوز ، والفلاح والنجاح .

يقول تعالى : ﴿وَمَنْ يُسْلِمْ وَجْهَهُ إِلَى اللَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَقَدِ

(١) رواه البخارى في كتاب الإيمان من حديث ابن عمر رضي الله عنهما .

(٢) سورة يوسف/ ١٠٦ .

أَسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَىٰ وَالْيَ اللَّهِ عَاقِبَةُ الْأُمُورِ ﴿١﴾ ويقول تعالى :
﴿بَلَىٰ مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَلَهُ أَجْرُهُ عِنْدَ رَبِّهِ وَلَا خَوْفٌ
عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ (٢)

ففي كلتا الآيتين ارتباط بين الإسلام مع الإحسان ، والفوز
والفلاح في الآخرة .

وجاء في سورة الأنعام ما يفيد احتمال تسرب الشرك لعقيدة
المؤمن ؛ إذ يقول تعالى : ﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ
أُولَٰئِكَ لَهُمُ الْأَمْنُ وَهُمْ مُهْتَدُونَ﴾ (٣)

والظلم هنا كما فسرهُ رسول الله ﷺ هو الشرك (٤) ومفهوم الآية
يفيد أن هناك من يؤمن ويقع في الظلم بأن يوجه شيئاً من عبادته لغير
الله ، ومثل هذا لا يوصله إيمانه إلى الأمن الذي يرجوه .

رابعها : الإيمان يدعيه كل الناس لكن الإسلام لا يرفع شعاره
إلاّ المحبون له ، الراغبون فيه ، ومهما خفت حماستهم له ، وضعف
ارتباطهم به ، واستمسكهم بمنهجهم هم حريصون على شعاره ،
والانتساب إليه ، ويمكن بعد فترات الضعف أن يتيسر للمسلمين
من يبعث فيهم الحماسة ، ويعزز الصلة ، ويعيد الرابطة القوية ،

(١) سورة لقمان/ ٢٢ .

(٢) سورة البقرة/ ١١٢ .

(٣) سورة الأنعام/ ٨٢ .

(٤) في الاستعمال القرآني يأتي الظلم بمعنى الشرك في مواضع كثيرة ، ومن ذلك قوله تعالى
في سورة لقمان : ﴿إِنَّ الشَّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾ وقد وصف الله المشركين بالظلم في سورة
البقرة ؛ إذ قال تعالى : ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَنْدَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ
اللَّهِ . وَالَّذِينَ آمَنُوا أَشَدُّ حُبًّا لِلَّهِ وَلَوْ يَرَى الَّذِينَ ظَلَمُوا إِذْ يُرُونَ الْعَذَابَ أَنَّ الْقُوَّةَ لِلَّهِ
جَمِيعًا وَأَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعَذَابِ﴾ .

فيبتدون بهديه ، ويعودون به أعزاء أقوياء .
 لكن دعوى الإيمان ، أى إيمان !! عقيدة بلا رابط ، وحجاسة
 بلا منهج ، وعاطفة بلا ميزان ، ودين بلا هداية .
 فقد ادعاه المنافقون وادعته طوائف شتى ، وفرق متناحرة ،
 ألْبسته أثواب أهوائها ، فأوقعت بليمانها المدعى مجتمع المسلمين فى
 سعي التمزق والشقاق .
 ويدعيه الماديون ، والوجوديون ، والماركسيون ؛ لأن هؤلاء
 جميعاً لكل منهم إله يؤمن به هو الطبيعة ، أو الرياضة ، أو التفسير
 المادى للتاريخ وحركته ، وحتمية الصراع بين الطبقات .
 كل هؤلاء يدعون الإيمان ، ويتحدثون عن فضائله ، ويدعون
 إلى الاستمسك به .
 ومنا من يدعو إليه ليجمع بين متناقضات الطوائف التى ضلت
 طريق الإسلام ، الدين الذى اختاره الله ، وارتضاه .
 وهناك من يملك الإيمان بالله ، ولا يملك الإسلام له .
 فقد كان المشركون قبل مبعث رسول الله ﷺ يعرفون الإيمان ،
 ويملكونه وحدثنا بذلك القرآن الكريم عنهم .
 يقول تعالى : ﴿وَلَمَّا سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ
 لَيَقُولُنَّ خَلَقَهُنَّ الْعَزِيزُ الْعَلِيمُ﴾^(١)
 ويقول تعالى : ﴿قُلْ لِمَنِ الْأَرْضُ وَمَنْ فِيهَا إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ .
 سَيَقُولُونَ لِلَّهِ قُلْ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾^(٢) ؟

(١) سورة الزخرف/٧ .

(٢) سورة المؤمنون/٨٤ ، ٨٥ .

وغير ذلك كثير .

لكنهم لم يسلموا عندما تصوروا أن الله الذى آمنوا به بعيد عنهم ، متجير عليهم ، غير عالم بهم ، فالتمسوا له الشفعاء والوسطاء من الخلق الذين توسموا فيهم صلاحا .

يصف الله تعالى لنا هذه العقيدة التى آمنوا فيها بالرب لكن لم يؤمنوا به معبودا واحدا ، أو قل : لم يسلموا له ، فكان إيمانهم مجرد ادعاء ، كما كانت قلوبهم هواء ، فيقول تعالى : ﴿وَيَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنْفَعُهُمْ وَيَقُولُونَ هَؤُلَاءِ شُفَعَاؤُنَا عِنْدَ اللَّهِ قُلْ أَتَبْتُونَ اللَّهَ بِمَا لَا يَعْلَمُ فِي السَّمَوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾^(١)

وكل إيمان فى غيبة الإسلام وهدية خيال
ماذا ترى فى إيمان يفقد معه الانسان عقله ، فيغرق فى بحار
الجهل والخرافة ؟!

إن هؤلاء الذين يجرون وراء الدجاجة والمشعوذين ، ملكوا
إيمانا ضالا ألغوا معه رشادهم وعقولهم .

لقد انطلقت فى إطار هذا الإيمان الزائف دعوة هادمة : لو
اعتقد أحدكم فى حجر لنفعه ! ! ويراد بلا ريب تقويض بناء
الاسلام الذى أعطانا التصور الصحيح للوجود وخالفه العظيم ،
ورسم لنا المنهج السديد للعلاقات المثلى بين الأحياء .

وإن هذه الدعوى بجانب هذا تعطى تصريحاً بالشرك لعباد

(١) سورة يونس/ ١٨ .

القبور

وماذا ترى فى إيمان يفقد معه الإنسان إرادته ، ويشل فكره ؟^(١)

ذكرت لنا الصحف نبأ مثيراً ، مؤداه أنه وقعت فى مستعمرة «جورج تاون» التابعة لولاية «جويانا» بأمريكا اللاتينية أكبر حركة انتحار جماعية فى التاريخ ، وفى الحقيقة أنها مذبحة ؛ لأنهم انتحروا تحت ضغط مادى ونفسى .

يقيم فى هذه المستعمرة طائفة دينية متطرفة ، يسمون أنفسهم «معبد الشعب» وزعيمهم قس اسمه : الأب جيم جونز . يبدو أن الحكومة الأمريكية أرسلت لجنة لتقصى الحقائق فى هذه المستعمرة ، وكشفت أموراً مريبة ، فقتلوا أكثر أعضاء اللجنة .

ودعاهم الأب إلى الانتحار ، وحببه إليهم ، وزينه فى قلوبهم ، وملأ نفوسهم كراهية للحياة بأساليب نفسية بارعة . ومن مبادئ الطائفة أن يتخلى العضو عن كل ممتلكاته للطائفة ، ويتعرض لصور من غسيل المخ ، والاستهواء الذاتى ، ونحو ذلك .

تقول عضوة سابقة فى الطائفة : إن الأب جيم جونز كثيراً ما يرتقى مذبح الكنيسة فى أيام الآحاد ، ويتساءل : من منكم سوف يتنازل عن حياته من أجل ؟! من منكم سوف يقدم حياة أطفاله

(١) العقيدة فى الإسلام منهج حياة د . الطويل .

من أجلى؟! من منكم سيقدم حياة زوجته؟!
وتقول العضوة «لينا»: كانت الجموع تندافع ، وتقول فى
صباح : «أنا يا أبتاه» .

والصورة التى تم بها الانتحار بالغة العجب : قدمت الأمهات
السم لأطفالهن فى عصير البرتقال ، ورأين الأطفال يتساقطون ، ثم
شرين السم وراءهم فى هذا العصير ، وتبعهم رجال وهكذا .
وحاول البعض أن يفيق ، ويسترد إرادته ، فلا حقه حراس
الطائفة ، وأطلقوا عليهم النار ، وفر آخرون فى الأحرش
والغابات ^(١) .

فما هذا الإيمان الذى يفقد الإرادة ، ويجرد صاحبه من
الإنسانية والرحمة ، ويسلب منه التعقل والأناة ، وينحصر لتأثيرات
قس داهية ، أشد بلاء من الشيطان .
إنه الخبال بعينه .

وكل إيمان يمكن أن يلقي صاحبه هذا المصير ، متى كان بعيداً
عن هدى الإسلام وهده ثم ما رأيك فى إيمان يفقد معه الإنسان
حريته وكرامته؟!

إنه لم يبذله بإخلاص لربه ولو فعل لكان كريماً ، ولكنه بذله
كاملاً لشيخ الطريقة بأمر بأمره ، ولا يعارضه ، ولا يناقشه حتى لا
يطرد من ساحة عطفه ، ولا بد له أن يكون بين يديه كالميت بين

(١) وردت تفصيلات هذه المذبحة التى رددتها وكالات الأنباء فى صحيفتى الأخبار
والأهرام - القاهرة بتاريخ ٢٢ ، ٢٣ من نوفمبر سنة ١٩٧٨ ، وتم الانتحار يوم
١٩٧٨/١١/٢١ .

ويقول تعالى : ﴿ إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا وَجَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أُولَئِكَ هُمْ الصَّادِقُونَ ﴾ (١)

ويقول تعالى : ﴿ قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَاشِعُونَ ... الْآيَاتِ ﴾ (٢)

ويقول تعالى : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجْرَ مَنْ أَحْسَنَ عَمَلًا ﴾ (٣)

هذا التلازم في الأسلوب القرآني بين الإيمان ، وصدق الصلة بالله ، ومناهج الأخلاق والسلوك ، فيه رد بليغ على أدعياء الإيمان بأنهم لا يفيدهم الإيمان إلا إذا كان بالله ، وكان خالصاً له وحده ، يحفز صاحبه إلى كل خير وبر ، ويدفعه إلى كل حسن من القول ، وطيب من الفعل .

ويدعم هذا الارتباط ما تصدر به الأسلوب من أدوات الحصر أو التأكيد .

(١) سورة الحجرات/ ١٥ .

(٢) سورة المؤمنون/ ١ - ١٠ .

(٣) سورة الممتحنة/ ٣٠ .

القضية الثالثة

الإسلام ... وعقيدة التوحيد

﴿فَمَنْ يَكْفُرْ بِالطَّاغُوتِ وَيُؤْمِنْ بِاللَّهِ فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَى
لَا انفِصَامَ لَهَا وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾

(سورة البقرة/ ٢٥٦)

عقيدة التوحيد في لوازم كلمة «الإسلام» :

من خلال ما أسلفناه من درس لغوى لكلمة الإسلام ، ولما تناولناه من موازنة دقيقة ، كاشفة عن حقائق خافية بين كلمتي الإيمان والإسلام ، نستطيع أن نبرز هذه القضية ، وهى : أن لفظ الإسلام يعنى وعيا تاما ، ويحتوى احتواء شاملا معنى التوحيد ، أو الوجدانية لرب هذا الوجود ، الذى نسلم له الوجوه والقلوب . فإسلام الوجه والقلب لله لن يتحقق إلا بتوحيد الألوهية ، أو توحيد العبادة وهو أسمى مظاهر التوحيد ، وأصدقها تعبيراً عن الإيمان القويم .

توحيد الألوهية :

وتوحيد الألوهية ، أو توحيد العبادة يكون بتوجيه العبادة ، ومظاهرها المختلفة لله تعالى وحده ، دون أن نوجه شيئا من مظاهرها لغيره ، وهو ما تعبر عنه فى إيجاز ، وإحكام كلمة « لا إله إلا الله » الكلمة الطيبة ، أفضل ما قاله رسول الله ﷺ ، وما قاله الأنبياء جميعا من قبله .

والعلاقة بين الإسلام وتوحيد العبادة تظهر فى أمور :

أولها : قوله تبارك وتعالى : ﴿وَمَنْ يُسَلِّمْ وَجْهَهُ إِلَى اللَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَقَدْ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَىٰ وَإِلَى اللَّهِ عَاقِبَةُ الْأُمُورِ﴾ (١) .
والاستمسك بالعروة الوثقى الذى جاء فى الآية مرتبا على إسلام

(١) سورة لقمان/٢٢ .

الوجه لله هو بعينه توحيد العبادة الذى يربط المؤمن برباط العبودية الخالصة لله تعالى وحده ، وذلك لأن هذا التوحيد جاء فى آية أخرى معبرا عنه بالعروة الوثقى ؛ إذ يقول ربنا تبارك وتعالى : ﴿فَمَنْ يَكْفُرْ بِالطَّاغُوتِ وَيُؤْمِنْ بِاللَّهِ فَقَدْ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَىٰ لَا انْفِصَامَ لَهَا وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ (١) .

والكفر بالطاغوت ثم الإيمان بالله هو المنهج السديد لغرس توحيد العبودية فى القلوب .

وهذا كله يؤكد أن إسلام الوجه لله مع الإحسان أى الإخلاص يأتى بعد تطهير القلب من عبادة الطاغوت ، وتهيته لعبادة الله تعالى وحده ؛ ولذا كان وصف القرآن الكريم لكليهما بالعروة الوثقى التى لا تنفصم ، والرابطة المحكمة التى لا تحل .

ومادما قد أشرنا إلى منهج القرآن الكريم فى توجيه القلوب إلى عبادة الله تعالى وحده لابد لنا من إلقاء بعض الضوء عليه .

ذلكم أن هذا المنهج يتم على مرحلتين متتابعتين ، ومترابطتين ، كما أشارت إليهما آية سورة البقرة ﴿فَمَنْ يَكْفُرْ بِالطَّاغُوتِ وَيُؤْمِنْ بِاللَّهِ﴾ .

المرحلة الأولى : تطهير القلب من كل عبودية ، وذل ، وخضوع ، واستكانة ، واستلهاج للرشد والتشريع من غير الله تعالى ؛ إذ أن كل من تمنحه شيئا من ذلك من خلق الله ، يعد طاغوتا ، صارفا عن المعبود الحق .

المرحلة الثانية : الإجابة إلى الله ، وشغل القلب بالعبودية

وذلك بأن توجه أقوى ما يملكه قلب البشر من مشاعر وأحاسيس كالحب والخوف والرجاء ، والأمل ، والخشية والذل والضراعة ، وكذلك ما يدفع إليه القلب من قول أو عمل كالحلف والنذر ، وسائر العبادات والقرآن لله سبحانه وتعالى وحده .

وقد أشارت لهذا المنهج بمرحليته هذه الآية من سورة الزمر : ﴿وَالَّذِينَ اجْتَنَبُوا الطَّاغُوتَ أَنْ يَعْبُدُوهَا وَأَنَابُوا إِلَى اللَّهِ﴾^(١) .

وقد وعته في إيجاز بالغ كلمة « لا إله إلا الله » وذلك بما في شطرها الأول من نفي يعني أن نقول : لا لكل ما أُلِّه من دون الله ، وبما في شطرها الثاني من استثناء من عموم النفي يعني أن تقر بالعبودية له وحده .

وهذه آية أخرى تؤكد هذا الارتباط بين الإسلام وتوحيد العبادة .

يقول الله تعالى في سورة الزمر يأمر نبيه محمدا عليه الصلاة والسلام بأن يبلغ حقيقة توحيد لعبادة ، المرادف للإسلام للناس جميعا من حوله : ﴿قُلْ إِنِّي أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ اللَّهَ مُخْلِصًا لَهُ الدِّينَ . وَأُمِرْتُ لِأَنْ أَكُونَ أَوَّلَ الْمُسْلِمِينَ﴾^(٢) .

فالنبي عليه الصلاة والسلام قد أُمر في الآيتين بأمرين : أولهما : العبادة الخالصة لله .

والآخر : أن يكون قدوة للناس بإسلامه لله ، والقدوة في الإسلام لا تتحقق إلا أثرا للعبودية الخالصة .

(١) سورة الزمر جزء من الآية/ ١٧ .

(٢) سورة الزمر/ ١١ ، ١٢ .

وبأنى هذا الارتباط بصورة قريبة من نهج الآية السابقة ، أى الأوامر الإلهية الصادرة لرسول الله ﷺ تدعوه إلى عرض عقيدته القائمة على العبودية الخالصة ، والتي كان بها قدوة ، وصاحب أولية على المسلمين جميعا ، وإن كانت هذه الآية تضيف نسبة عقيدة التوحيد إلى إبراهيم عليه السلام وذلك قوله تعالى فى سورة الأنعام : ﴿قُلْ إِنِّى هَدَىٰ رَبِّى إِلَىٰ صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ . دِينًا قِيَمًا مِّلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ . قُلْ إِنْ صَلَّيْتُ وَنَسَكْتُ وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِى لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ . لَا شَرِيكَ لَهُ وَبِذَلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ﴾ (١) .

ومما نلاحظه أن القرآن الكريم يشيد دائما بعبادة إبراهيم ، وتوحيده ، ويشى على ملته ، وينبى عنه الشرك ، بل إنه يؤكد سفاهة من خالفوا منهجه فى التوحيد الصادق ، والعبودية الخالصة . والتعبير عن عقيدة إبراهيم ومنهجه فى علاقته بالله بلفظ الملة دليل واضح على سمو العقيدة ، وعمق الالتزام .

وعلى ضوء هذا فإننا نستنتج من هذه الآيات البينات أمورا : أولها : التفسير القويم للإسلام يتمثل فى توحيد العبادة ، فما كانت أولية النبى عليه الصلاة والسلام للمسلمين إلا بتأصل معنى العبودية الخالصة فيه .

ثانيها : المظاهر الأساسية للعبادة أربعة ، تتمثل فى الصلاة وهى صلة بالله ، والذبح وهو من أعمق أعمال العبادة تأثيرا فى

(١) سورة الأنعام/١٦١ - ١٦٣ .

النفس ، وتوجيه الحياة بما تحفل به من أعمال وأحداث لله ، والموت والاستعداد له نهاية ينبغي أن يستقبلها الإنسان تحركه بواعث اللقاء بالواحد المعبود .

ثالثها : هناك توازن تام بين هذه المصطلحات الأساسية في الإسلام ، وهي : الصراط المستقيم ، والحنيفية السمحة ملة إبراهيم ، والإسلام ، والتوحيد ؛ إذ تلتقى كلها على مؤدى واحد ، ومضمون لا يختلف .

توحيد الربوبية :

مما تفرد به العلامة السلفى ابن تيمية فى تناوله لعقيدة الإسلام هذه الاصطلاحات الجديدة والدقيقة فى تصوير عقيدة التوحيد ، كما هى ، وكما ينبغي أن تكون ، ولم نجد مثلها فى اصطلاحات علماء الكلام الذين تأثروا فى تفكيرهم بفلسفة اليونان ، وما لها من مصطلحات أصابت ملكة البيان فى العقل العربى المسلم .

من هذه التعبيرات الجيدة لابن تيمية توحيد الألوهية ، وقد أوضحنا معناه وغايته ، وأنه فى مفهومه جوهر الإسلام الحق ، وأسمى مدى تصل إليه العبودية الخالصة لله .

وهو مناط الصلاح والإصلاح ، والسبيل إلى وراثته الأرض ، واستخلاف الإنسان عليها .

يبدو هذا فى قوله تعالى : ﴿وَلَقَدْ كَتَبْنَا فى الزُّبُورِ مِنْ بَعْدِ الذِّكْرِ أَنَّ الْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِى الصَّالِحُونَ . إِنَّ فى هَذَا لَبَلاغاً لِقَوْمٍ

عَابِدِينَ ﴿١١﴾ .

كما نراها واضحا فى سورة النور ؛ إذ ذكر ربنا العبودية ، المنزهة
عن الشرك شرطا للاستخلاف ، والأمن ، وتمكين الدين فقال
تعالى : ﴿وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ
لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ
لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَى لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُمْ مِنْ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا
يَعْبُدُونَنِي لَا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئًا . وَمَنْ كَفَرَ بَعْدَ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ
الْفَاسِقُونَ﴾ (٢) .

ومنها توحيد الربوبية ، وهو ما نحن بصدد الحديث عنه .
وهو يعنى وحده الرب ، أى المربى ، الذى ربى الوجود بنعمه ،
وشمله برعايته ، وفضله بأن تؤمن بالله خالقا ، رازقا ، مدبرا للأمر
كله ، بيده الخير والشر والنفع والضر ، وتقدير الأمور ، وتصريفها .
وهذا القدر من الإيمان يعرفه البشر جميعا إلا من أخلدوا ،
فآمنوا بالחס وكفروا بالغيب ، وعبدوا المادة ، وقالوا إن هى
إلا حياتنا الدنيا نموت ونحيا ، وما يهلكنا إلا الدهر .

حتى هؤلاء الذين تنكروا للإيمان بالرب إنما كان ذلك ناشئا من
طغيان تورط الإنسان فيه ، فجحد الفطرة الكامنة فى أعماقه ، والتي
تلزمه بإيمان حتمى برب هذا الوجود ، مغالطا وجدانه البشرى ،
بدليل أن فطرته التى جحدها قد تغلبه أحيانا فيقول : يارب ،
بنفس اللسان الذى نطق بالبهتان والبغى .

(١) سورة الأنبياء/ ١٠٥ ، ١٠٦ .

(٢) سورة النور/ ٥٥ .

ودعنا من هؤلاء فليس لهم في حساب الحق ميزان ، شأن من
يحدد الشمس مشرقة ليس دونها حجاب ، وكل ما يحتاجون إليه
أن تفيق عقولهم من ركام المادة الطاغية ، فيستبين الحق لهم .
لكن جمهرة البشر يؤمنون بالربوبية ، ويقرون بها .

وعلى سبيل المثال العرب قبل الإسلام ما كان يعوزهم الإيمان ،
إذ كانوا مؤمنين ، وقد شهد لهم القرآن الكريم بذلك ، فقال
تعالى : ﴿ قُلْ لِمَنِ الْأَرْضُ وَمَنْ فِيهَا إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ . سَيَقُولُونَ لِلَّهِ
قُلْ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ . قُلْ مَنْ رَبُّ السَّمَوَاتِ السَّبْعِ وَرَبُّ الْعَرْشِ
الْعَظِيمِ . سَيَقُولُونَ لِلَّهِ قُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ . قُلْ مَنْ يَدِّ يَدِهِ مَلَكُوتُ كُلِّ
شَيْءٍ وَهُوَ يُجِيرُ وَلَا يُجَارُ عَلَيْهِ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ . سَيَقُولُونَ لِلَّهِ قُلْ
فَإِنِّي تُسْحَرُونَ ۝ (١) .

ومشكلة الأمم التي أرسل فيها الرسل لم تكن هي الإيمان ، وإنما
كانت في إخلاص العبادة لله ، أى في توحيد الألوهية ؛ ولذا رأينا
الرسل جميعا بدءوا لسيرة الدعوة بداية واحدة ﴿ أَنْ اعْبُدُوا اللَّهَ
مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ ۝ .

وكانت رسالة النبي محمد عليه الصلاة والسلام : ﴿ إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ
إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ فَاعْبُدِ اللَّهَ مُخْلِصًا لَهُ الدِّينَ . الْأَلِلَّةُ الدِّينُ
الْخَالِصُ ۝ (٢) .

وقد سجل القرآن الكريم حقيقة إيمان الجمهرة بالله ربا ،
وضلالهم عنه معبودا واحدا بالتورط في بعض المظاهر الشركية التي

(١) سورة المؤمنون/٨٤ - ٩٠ .

(٢) سورة الزمر/٣ ، ٤ .

يقعون فيها ، مستهينين بها ، متصورين أنها لا تضر بقضية الإيمان عندهم ، يقول تعالى : ﴿وَيَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنْصُرُهُمْ وَلَا يَنْفَعُهُمْ يَقُولُونَ هَؤُلَاءِ شُفَعَاؤُنَا عِنْدَ اللَّهِ﴾ (١) .

ويقول تعالى : ﴿وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُمْ بِاللَّهِ إِلَّا وَهُمْ مُشْرِكُونَ﴾ (٢) .

وبهذا البيان تبدو لنا أهمية توحيد العبادة ، وأنه المناط في صحة العقيدة ، واستقامة الإيمان ، وسلامة القلب .

توحيد الأسماء والصفات :

لله تبارك وتعالى أسماء سمي بها نفسه ، وصفات اتصف بها سبحانه ، تتجه كلها نحو السمو والكمال ، وتتعالى عن الشبه والنظير ، وهاتان حقيقتان سجلهما الكتاب العزيز ، أما الأولى فنجدها في قوله تعالى : ﴿وَلِلَّهِ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ فَادْعُوهُ بِهَا﴾ (٣) وأما الثانية فترشدنا إليها هذه الآية ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾ (٤) وبحسن فهم المؤمن للذات الإلهية ، ويصح تصويره لها طالما يستمد معرفته من القرآن الكريم بمنأى عما قاله فلاسفة اليونان ، ومن بعدهم فلاسفة المسلمين الذين ذهبوا بفكرهم البشري مذاهب شتى ، وأوغلوا في متاهات ضاله .

(١) سورة يونس/ ١٨ .

(٢) سورة يوسف/ ١٠٦ .

(٣) سورة الإسراء/ ١١٠ .

(٤) سورة الشورى/ ١١ .

وحسب المسلم أن يدعم يقينه بما يقرأ من آيات التمجيد والثناء والحمد ، وبما يرشد إليه القرآن الكريم من آثار القدرة ، ومظاهر العلم والحكمة ، وروائع الآيات الموجودة في السموات والأرض ، وسائر المخلوقات ، وفي الإنسان نفسه ، مما يجعل ذا العقل الصريح واللب الواعي يثق بما لا يدع مجالاً للشك بوجود الخالق العظيم ؛ إذ من المحال أن المصادفة تبدع لو سلمنا القول بأنها تخلق !!

من أمثلة ذلك قوله تعالى : ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَالْفَلَكَ الَّتِي تَجْرِي فِي الْبَحْرِ مِمَّا يَنْفَعُ النَّاسَ وَمَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنَ السَّمَاءِ مِنْ مَاءٍ فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِنْ كُلِّ دَابَّةٍ وَتَصْرِيفِ الرِّيَّاحِ وَالسَّحَابِ الْمُسَخَّرِينَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ لآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ (١).

فقدمت الآيات سبعة من روائع الخلق ، وأسندت أمر إدراكها ، وفهم المغزى الكبير من ورائها لمن يعقلون وحدهم ، أى يفكرون متجردين من أى تبعية لعرف أو تقليد ، أو دين موروث ، أو فكر فلسفى خاذع .

ومتى تجاوز المسلم هذه المرحلة فلن تُعَيِّه قضية الأسماء والصفات ، ولن تكون عقبة في طريق الإيمان ، ولن تكون خطراً على اليقين ؛ إذ سيكفيه - كما أسلفت - ما يقرأ من آيات تصف إبداع الخلق ، وعظمة الخالق ، وسيجد فيها ما يصرفه عن البحث في الذات وكنهها ، وحقيقة جوهرها .

(١) سورة البقرة/ ١٦٤ .

ومثل هذا المؤمن بمجرد أن يقرأ هذه الآية وأمثالها لن يكون منه إلا الإذعان والكف عن الكلام ، وهى قوله تعالى : ﴿اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ لَا تَأْخُذُهُ سِنَّةٌ وَلَا نَوْمٌ لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ مَنْ ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِنْدَهُ إِلَّا بِإِذْنِهِ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِنْ عِلْمِهِ إِلَّا بِمَا شَاءَ وَسِعَ كُرْسِيُّهُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَلَا يَئُودُهُ حِفْظُهُمَا وَهُوَ الْعَلِيُّ الْعَظِيمُ ﴾ (١) .

وقد كان على هذا النهج رسول الله ﷺ وأصحابه ، يقرءون القرآن ، فيزدادون إيماناً مع إيمانهم ، ويقوى تصورهم لكمال الله ، وتنزيهه .

ولم تستوقفهم آية تجعلهم يرتابون فى قضية التنزيه ، أو توقع فى تصورهم القول بالتشبيه ، حتى الآيات التى قد توهم المشابهة للبشر ، والتى قد جاءت فى الكتاب العزيز ؛ لتقرب الفهم للإنسان ، أو تسهم فى الأداء البلاغى للآية ، بحيث يبدو الكمال الإلهى قريباً من تصور العقل البشرى .. لم تُثر جدلاً بينهم ، فكانوا يقرءون : ﴿الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى﴾ (٢) ﴿يَدُ اللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ﴾ (٣) ﴿وَلَتُصْنَعَ عَلَى عَيْنِي﴾ (٤) ﴿كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ﴾ (٥) فاقع فى ذهنهم معنى التشبيه ، ولا سألوا رسول الله ﷺ فى معنى أى لفظ من هذه الألفاظ ؛ لأن من ملك العلم

(١) سورة البقرة/٢٥٥ .

(٢) سورة طه/٥ .

(٣) سورة الفتح/١٠ .

(٤) سورة طه/٣٩ .

(٥) سورة القصص/٨٨ .

الصحيح ، والإيمان الحق ، والعقل الجر الورع ، سيقول ما علمه الله إياه : ﴿وَالرَّسَخُونَ فِي الْعِلْمِ يَقُولُونَ آمَنَّا بِهِ كُلٌّ مِّنْ عِندِ رَبِّنَا وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّا أُولُو الْأَلْبَابِ﴾^(١)

لقد شغلهم الاستجابة لأوامر الله ، والوقوف عند حدوده عما أضاع فيه غيرهم وقتهم ، وتفكيرهم ولذلك قابلوا كل متشابه منها بالإيمان به ، وإثباته لله ، مفوضين الأمر في معناه إلى الله ، مسجلين تنزيه الله عن المشابهة بسواه .

أتى الإمام مالك رضى الله عنه رجل يسأله عن معنى الاستواء ، فقال له هذه الإجابة الواعية : الاستواء معلوم ، والكيف مجهول ، والإيمان به واجب ، والسؤال عنه بدعة ، ثم قال للسائل : وأظنك رجل سوء !!!

هكذا حسم القضية ، وكشف عن سلامة الوجهة التي اتجه إليها السلف في موقفهم من آيات الصفات .

والذى جعل من آيات الصفات قضية أثيرت حولها مشكلات هو تأثر المتكلمين المسلمين بمناهج الفلسفة ، وسماحهم للعقل البشرى أن يتجاوز حده ، ويبحث في حقيقة الذات^(٢) .

وبناء على هذا الخطأ في مسيرة التفكير الإسلامى ، وجدنا في مجال الفرق الكلامية هذه الأسماء : المعطلة ، والمشبّهة .

وتطلق الكلمة الأولى على المعتزلة ، أصحاب واصل ابن عطاء ، الذى اعتزل مجلس الحسن البصرى عندما اختلف معه

(١) سورة آل عمران/٧ .

(٢) راجع الجانب الإلهي من التفكير الإسلامى ج ١ د . محمد البهى .

فى شأن مرتكب الكبيرة ، وكان الحسن يراه مسلما عاصيا ، بينما يراه واصل بن عطاء فى منزلة بين منزلتي الكفر والإيمان . وذهب الخوارج إلى القول بكفره .

وكان المعتزلة يسمون أنفسهم أهل التوحيد ؛ لأنهم غالوا فى فهم التوحيد ، حتى تصوروا أن وحدانية الله تستلزم نقي الصفات الزائدة عن الذات ، على أساس أن الصفة شيء زائد عن الذات ، فيلزم التعدد .

وأما القدرة والإرادة والعلم ، ونحوها فيرونها شيئا لازما للذات الإلهية ، وليست بزائدة عليها ، وأما الصفات التي وردت فى القرآن الكريم من اليد ، والوجه ، والاستواء ونحوها فيتجهون إلى تأويلها بما يتمشى مع التنزيه .

وأما المشبهة فهم الذين أثبتوا كل صفة وردت فى نص صحيح ، على أساس مفهومها البشرى ، دون أن يضعوا فى اعتبارهم التنزيه الإلهي .

ومنهج التشبيه واضح فى الفكر اليهودي عندما يتناول الجانب الإلهي ؛ ولذلك تجد فى أسفار التوراة وشروحها عجبا عندما يتحدثون عن رب العالمين ، ومصارعته ليعقوب ، ونحو هذا من شطحات الفكر البشرى ، أوقل من طغيانه .

وكان من عيوب التأثير بالفلسفة أننا وجدنا علماء الكلام كالأشاعرة والماتريدية الذين حملوا اسم أهل السنة يصفون الله تعالى بصفات استمدوها من الفكر الفلسفي وتركوا صفات أسمى منها فى التعبير ، وأدخل فى باب التنزيه والكمال ، وهى التي وصف بها ربنا

نفسه في كتابه (١) .

فهم يصفون الله تعالى بصفتي : القدم والبقاء وفي القرآن الكريم ﴿هُوَ الْأَوَّلُ وَالْآخِرُ وَالظَّاهِرُ وَالْبَاطِنُ﴾ (٢) .

ويصفونه بصفة القيام بالنفس ، وفي القرآن الكريم ﴿اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ﴾ .

وأما الاتجاه السلفي الذي سار عليه النبي عليه الصلاة والسلام وأصحابه فهو إثبات الصفات بلا تأويل مع يقين تام بالتنزيه عن معناها البشرية ، أو على حد قولهم : آمنا بما جاء عن الله على مراد الله ، وبما جاء عن رسول الله ﷺ على مراد رسول الله . وهذا منطوق حق وحكمة ، فلنترك معناها لمن وصف نفسه بها وهو العليم الحكيم .

والعقل المسلم غير مطالب بالتماس تفسيرات لها تحت شعار التنزيه فيفتات على علم الله ، وقد يخرج بتأويلاته عن مراد ربه فيعرض نفسه لبلاء لا يطيقه .

وسيزل الاتجاه السلفي دليلا على صدق الإيمان ، وعمق اليقين ، كما سيزل منهجا للسلامة ، باعثا على الاستقامة ، مجنبا صاحبه العثرات ، آية على حكمة العقل ، وسداد الفكر وصدق رب العالمين إذ ختم آية الآيات المتشابهات بقوله : ﴿فَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَابَهَ مِنْهُ ابْتِغَاءَ الْفِتْنَةِ وَابْتِغَاءَ تَأْوِيلِهِ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلَّا اللَّهُ وَالْكَرَاسِيُّونَ فِي الْعِلْمِ يَقُولُونَ آمَنَّا بِهِ كُلٌّ مِنْ عِنْدِ رَبِّنَا

(١) راجع شرح العقيدة الطحاوية ص ١٦٨ وما بعدها .

(٢) سورة الحديد/٢ ، وراجع شرح العقيدة الطحاوية ص ٥٤ .

وَمَا يَذْكُرُ إِلَّا أُولُوا الْأَلْبَابِ ﴿٧﴾ آل عمران/ ٧ .

توحيد الذات :

الذات الإلهية واحدة ، والتعدد مرفوض .

وهذه الوجدانية هي جوهر عقيدة التوحيد في الإسلام الذي جاء به الرسل والأنبياء جميعا وهذه الأنواع السابقة من التوحيد ، وهي : توحيد العبادة ، وتوحيد الربوبية وتوحيد الأسماء والصفات قائمة على هذا الأساس .

وقد قدمت هذه الأنواع لأهميتها في مواجهة الظواهر الشركية في داخل المجتمع المؤمن .

وتوحيد الذات إنما نواجه به الزيف والانحراف في العقائد الوثنية التي تقول : بتعدد الآلهة .

وقد أشرت إلى أن المعتزلة أسرفوا على أنفسهم ؛ إذ عطلوا بعض الصفات من أجل أن يتحقق توحيد الذات ، وكأنهم رأوا - غير موفقين - في الصفات زيادة تتنافى مع توحيد الذات .
وأمامنا المنهج القرآني :

نراه يقدم قضايا حاسمة وقاطعة يؤكد فيها وحدانية الذات .
كما يقدم حوارا رائعا ، وعميقا ، وملزما يبطل القول بالتعدد .
أما عن الجانب الأول من المنهج ، فيقول فيه ربنا تبارك وتعالى : ﴿وَالْهُكُمُ لِلَّهِ وَاحِدٌ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ﴾^(١)

(١) سورة البقرة/ ١٦٣ .

﴿وَقَالَ اللَّهُ لَا تَتَّخِذُوا إِلَهَيْنِ اثْنَيْنِ إِنَّمَا هُوَ إِلَهُ وَاحِدٌ﴾ ^(١) ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ﴾ ^(٢) .

والتعبير بأحد ينفي التعدد بصورة لا تقبل الشك ؛ إذ أن «أحد» ليس له تال في العدد ، وهو الثاني والثالث إلخ .
وأما الجانب الثاني من هذا المنهج ، وهو جانب الحوار ، فقد ورد في مواطن شتى من الكتاب العزيز .

يقول الله تعالى : ﴿أَمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَأَنْزَلَ لَكُمْ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَنْبَتْنَا بِهِ حَدَائِقَ ذَاتَ بَهْجَةٍ مَا كَانَ لَكُمْ أَنْ تُنْبِتُوا شَجَرَهَا ۗ إِنَّهُ مَعَ اللَّهِ بَلْ هُمْ قَوْمٌ يَعْدِلُونَ﴾ ^(٣) .

ففي هذا التساؤل : أإله مع الله ؟ نفي قاطع ، وملزم ، أو قل : مبلس يرد على القائلين بالتعدد ، وأنه يتنافى مع ما في واقع حياتنا من خلق مبدع .

وتسوق الآيات التالية لهذه الآية ألوانا من نعم الله ، وبديع صنعه ، ثم يأتي هذا الاستفهام الإنكارى مثيرا للعقل الإنساني المتورط في عقيدة تعدد الآلهة .

وتختتم هذه الآيات بما يفيد نفي العدالة والعلم والتذكر عن القائلين بالتعدد ، كما تحمل وصفهم بالسذاجة ؛ إذ يقبلون أمرا يرفضه كل برهان .

ويقول تعالى : ﴿أَمْ اتَّخَذُوا آلِهَةً مِنَ الْأَرْضِ هُمْ يُنشِرُونَ . لَوْ

(١) جزء من الآية ٥١/ سورة النحل .

(٢) سورة الإخلاص/ ١ .

(٣) سورة النحل/ ٦٠ .

كَانَ فِيهَا آلِهَةٌ إِلَّا اللَّهُ لَفَسَدَتَا . فسبحان الله رَبِّ الْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿١﴾ .

وفي هذه الآيات رد على القول بالتعدد بأنه لو كان لما استقام أمر الحياة ، ولما صلح أمر الوجود ، ولفسدت السموات والأرض .

وبعد هذه الآية بآية واحدة حوار آخر ، فيه رد على قضية التعدد ، بمخالفتها لدين الله الحق ، كما حملته رسالات الرسل التي تلقى تقديرا عند العرب في جاهليتهم يقول تعالى : ﴿أَمْ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ آلِهَةً ، قُلْ : هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ ، هَذَا ذِكْرٌ مِنْ مَعِيَ ، وَذِكْرٌ مِنْ قَبْلِي !! بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ الْحَقَّ فَهُمْ مُعْرِضُونَ ﴾ (٢) .

وبهذا تقرر الآية أن اتخاذ الأصنام شفعاء يتناقض مع قضية توحيد الذات أيضا .

وفي سورة «المؤمنون» آية تتحدث عن كيفية الفساد الذي يتسرب إلى الوجود في حالة التعدد ، فيقول تعالى : ﴿مَا اتَّخَذَ اللَّهُ مِنْ وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُ مِنْ إِلَهٍ إِذَا لَدَّهَبَ كُلُّ إِلَهٍ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلَّ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يُصِفُونَ ﴾ (٣) .

لقد قدم القرآن الكريم ثلاثة أنماط من البراهين ، تدحض القول بالتعدد .

أولها : دليل الاتساق والإبداع في الكون .

(١) سورة الأنبياء/٢١ - ٢٢ .

(٢) سورة الأنبياء/٢٤ .

(٣) سورة المؤمنون/٩١ .

ثانيها : دليل العقل والمنطق الذى يحتم الفساد حالة التعدد .
ثالثها : دليل التاريخ الدينى ، وأن دين السماء ما جاء
إلا بالوحدانية .

وهكذا تظاهرت البراهين على قضية التوحيد ، بكل صوره
واتجاهاته ، بحيث إذا توافرت هذه الأنواع المختلفة والمتسقة من
التوحيد السليم تقوم العقيدة الصادقة فى الإسلام .

القضية الرابعة

السنة النبوية

المنهج الأمثل لتطبيق القرآن الكريم

﴿قُلْ أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا عَلَيْهِ مَا حُمِّلَ وَعَلَيْكُمْ مَا حُمِّلْتُمْ وَإِنْ تُطِيعُوهُ تَهْتَدُوا وَمَا عَلَى الرَّسُولِ إِلَّا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ﴾

(سورة النور/ ٥٤)

السنة النبوية :

تجسيد للدعوة الإسلامية .. دعوة الحق .
وهي المنهج الأقوم والأمثل لتطبيق القرآن الكريم .
هذه هي القضية الرابعة التي نتحدث عنها في ظلال الحقيقة
الكبيرة التي أبرزنا عظمتها ورسوخها في الفصل الأول من هذا
الكتاب : الإسلام .. دعوة الحق .

والسنة النبوية الكريمة التي أمرنا باتباعها ، والتماس القدوة منها
مَعْلَم من معالم الحق في هذا الدين القويم ... الإسلام .
إن من القواعد المقررة في شريعة الإسلام الهادية أن الله تبارك
وتعالى اصطفى نبيه محمدا عليه الصلاة والسلام لأمر ثلاثه .
أولها : أن يتلقى القرآن الكريم ؛ إذ يقول تعالى : ﴿وَأَنَّكَ لَتَلَقَّى
الْقُرْآنَ مِنْ لَدُنْ حَكِيمٍ عَلِيمٍ﴾^(١) .

وكان تلقى الرسول عليه الصلاة والسلام للكتاب العزيز بصورة
تمحق شبه المرتابين والمتشككين ، إذ يقول تعالى : ﴿نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ
الْأَمِينُ . عَلَى قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنْذِرِينَ . بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ
مُبِينٍ﴾^(٢) ؛ إذ النزول على القلب يدفع شبهة النسيان أو التزبد .
ثانيها : أن يبلغه للناس كما أنزل ، قال تعالى : ﴿يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ
بَلِّغْ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ وَإِنْ لَمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُ﴾^(٣) .
ثالثها : أن يتجسد القرآن الكريم في سلوكه عقيدة ، وعبادة ،

(١) سورة النحل/٦ .

(٢) سورة الشعراء/١٩٣ - ١٩٥ .

(٣) سورة المائدة/٦٧ .

وأخلاقاً ، فيقدم للناس الصورة الصحيحة والقويمة لتطبيق القرآن الكريم والعمل به ، وقد سئلت السيدة عائشة رضي الله عنها عن رسول الله ﷺ ، فقالت : « كان خلقه القرآن » (١) .

ومن هذه المهمة الثالثة تستبين لنا حقيقة ، بالغة الخطورة هي القيمة العظيمة والكبيرة للسنة النبوية المطهرة ، ومزلتها في التشريع الإسلامي .

وقد أمرنا الله تعالى في القرآن الكريم إذا كنا نرجو رضوانه ، ونرجو النجاة من عذابه وعقابه أن نتلمس القدوة في العمل الإسلامي من رسول الله ﷺ فقال جل شأنه : ﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُوا اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيرًا﴾ (٢) .

والقدوة وهي تحويل التشريع إلى واقع مُحَسَّس يهتدى به الآخرون ضرورة لإبراز محاسن الشريعة ، وحفز الآخرين على العمل بها ؛ إذ التشريع بدون القدوة مجرد سطور مكتوبة ، والقرآن الكريم بدون عمل به ، وتقديم الصورة الطبيعية لتطبيقه لا يمكن أن يؤدي رسالته في الهداية والإصلاح .

وهذه مهمة السنة النبوية أنها تبين للمسلمين في كل زمان ومكان كيف يتم بنجاح تحول القرآن الكريم إلى واقع حي مؤثر أجمل الأثر وأبلغه في واقع المجتمعات الإنسانية في الجزيرة العربية وفيما حولها .

(١) سبق تخريجه .

(٢) سورة الأحزاب/٢١ .

ومن هنا عندما عرف القرآن الكريم البر لم يعرفه تعريفا نظريا ، وإنما عرفه تعريفا عمليا من خلال تجسده في إنسان ملتزم بمعامله وحدوده تتجلى لنا هذه الحقيقة في قوله تعالى : ﴿وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ... الْآيَةِ﴾ ^(١) وقوله سبحانه بعد ذلك بآيات : ﴿وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنْ اتَّقَى﴾ ^(٢) . فلم يقل البر هو الإيمان والتقوى ؛ لأن الإيمان والتقوى كمعان مثالية موجودة وباقية ، وإنما الذى تحتاجه أمتنا من أجل رقيها وسعادتها هو الإنسان المؤمن ، والإنسان التقي .

وحتى نلتزم بسنة النبي ﷺ ، ولا نحيد عنها قيد شعرة نجد أن الله تبارك وتعالى أمرنا بالتماس القدوة من نبيه ﷺ ، وحشنا على طاعته ، وجعلها مرتبطة بطاعته سبحانه ، بل جعل الهداية والرشد في هذه الطاعة .

فقال سبحانه : ﴿مَنْ يُطِعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللَّهَ﴾ ^(٣) . وقال جل شأنه : ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ رَسُولٍ إِلَّا لِيُطَاعَ بِإِذْنِ اللَّهِ﴾ ^(٤) .

وقال عز من قائل : ﴿وَمَا إِلَيْكُمْ الرَّسُولُ فخذوه وما نهايكم عنه فانتهوا﴾ ^(٥) .

كما قال : ﴿وَأَنْ تُطِيعُوهُ تَهْتَدُوا وَمَا عَلَى الرَّسُولِ إِلَّا الْبَلَاغُ

(١) سورة البقرة/ ١٧٧ .

(٢) سورة البقرة/ ١٨٩ .

(٣) سورة النساء/ ٨ .

(٤) سورة النساء/ ٦٤ .

(٥) سورة الحشر/ ٧ .

الْمُؤْمِنِينَ ﴿١﴾ .

وقول الرسول عليه الصلاة والسلام : « أوتيت القرآن ومثله معه » ^(٢) مهما تردد فيه من تردد فإنه حق لا ريب فيه ؛ لأن المثل الذي أوتيته رسول الله ﷺ هو السنة ، وهى حق القدوة وتقديم التطبيق .

والأحكام الجديدة التى نراها فى السنة ، ولا نراها فى الكتاب قد يتصور بعض الواهين الذين ضعف اجتهادهم ، أوقصرت بهم أدواته أن لا يؤخذ بها ، وهذا خطأ فاحش لأن من التطبيق تتجسد أمور قد لا تدرك من أول وهلة فى نصوص الدستور ، لكن يكشف عنها التطبيق الرشيد .

فالنبي عليه الصلاة والسلام حين نهى عن الجمع بين المرأة وعمتها ، أو بين المرأة وخالتها كان يطبق القرآن تطبيقاً سديداً ، وكذلك عندما نهى عن أكل ذى ناب من السباع ، وكل ذى مخلب من الطير ، وكذلك عندما قال : « أحل لكم ميتتان ودمان » وكذلك عندما أمر بضرب شارب الخمر ، أو جلده كان فى ذلك كله مع القرآن الكريم لم يخالفه ، ولم يزد عليه ، وحاشاه أن يفعل ذلك ، بل هو تصرف فى التطبيق لتحقيق حكمة الشريعة على الوجه الأكمل .

وهذا حق أعطاه الله تعالى لنبيه ، ندركه من هذه الصفة التى وصفه بها سبحانه ؛ إذ قال : ﴿وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ

(١) سورة النور/ ٥٤ .

(٢) جزء من حديث شريف رواه البخارى .

الْحَبَّاثُ ﴿١﴾ وأسند الفعلين (يحل ويحرم) لرسول الله ﷺ .
فالذين تصوروا القرآن الكريم معزولا عن السنة يكفيهم ، عليهم
أن يعرفوا أنهم سيغرقون في بحار التطبيق ، المتلاطمة الأمواج ،
وستتفرق بهم الأهواء ، وسنرى صورا شتى للامتنال للأمر القرآني ،
كما نرى صورا شتى للابتعاد عن النهي القرآني .

ومن هنا اقتضت وحدة الأمة ، وحكمة المشرع ، وعظمة
التشريع أن يُزكى القائم بالتشريع ، كما زكى التشريع ، وأن يختار
القدوة في التطبيق ، كما اختار الدستور الحكيم وجعل الإيمان مرتبطا
بقبول حكم النبي ﷺ ، وحكومته ، فقال تعالى : ﴿فَلَا وَرَبِّكَ
لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّى يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنْفُسِهِمْ
حَرَجًا مِمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا﴾ (٢) .

وبناء على هذا فالقول بأن القرآن الكريم وحده هو مصدر
الشرعة ، ولسنا في حاجة إلى الحديث النبوي ، أو السنة برمتها ،
وأن في القرآن الكريم ما يغني ، وأن الله ما فرط في الكتاب من شيء
هذا قول مرفوض شكلا وموضوعا ؛ لأنه بعيد عن الحق ، وبعيد
عن القرآن ، وبعيد عن العلم ، وبعيد عن العقل ، والقائلون به
متورطون في ضلال عظيم ؛ لأن منهج الحق يؤكد أن من تلقى القرآن
هو وحده الذي يملك التطبيق الصحيح . والقرآن يؤكد ضرورة
طاعة النبي ﷺ ، والاقتداء به ؛ لأن هذا - وحده - طريق
الهداية .

(١) سورة الأعراف/ ١٥٧ .

(٢) سورة النساء/ ٦٥ .

والمنهج العلمى يؤكد أن عظمة الدستور فى تطبيقه .
والعقل يحتم علينا أن التصور الرشيد ماثل فى فهم علاقة السنة
الصحيحة بالقرآن علاقة وثيقة غير منفكة حتى يكون القرآن الكريم
كما وصفه الله ﴿تبياناً لكل شىء﴾ ؛ لأنه عند التطبيق تتوقف
التصورات المختلفة ، والظنون المتباينة حول النص القرآنى .
والحديث النبوى الشريف يمثل جانبا هاما من السنة ، وهى
السنة القولية .

ولا تجد أمة من الأمم توفرت على الآثار القولية لرسولها مثلما
فعلت الأمة الإسلامية ؛ إذ اتخذت منها طيبا فى التوثيق هو منهج
الإسناد بتتبع أحوال الرواة العقلية والخُلُقِيَّة ، والحكم على مروياتهم
من واقع ما عرف عنهم ، وقد يكون وراء الجهود العلمية المكثفة
دوافع قوية على رأسها حركة الغزو الفكرى الذى استهدف المجتمع
المسلم بعد أن غربت شمس الدولة الأموية ، بجانب حركة التزييف
المتعمدة ، والمخطط لها لإفساد الحقائق العلمية الناصعة ، والتى
ظهرت باسم الاسرائيليات .

وكان من نتيجة جهود العلماء عدد من العلوم النافعة التى
تهدف إلى تمييز الصحيح من غيره ، مثل : علم الرجال ، والجرح
والتعديل ، ومصطلح الحديث .

وقد خدمت هذه العلوم الحقيقة العلمية خدمة كبيرة ؛ إذ على
ضوء جهدهم نستطيع أن نميز الصحيح من غيره ، وأن نقوم كتب
الحديث على ضوء مناهجها ، وعلى ضوء الشروط التى وضعها
أصحابها فى قبول الحديث وتصحيحه ، كما فعلوا فى تقديم الكتب

السنة على غيرها ، وقدموا البخارى لدقة شروطه التى وضعها فى قبول الحديث ، ودقته فى الجمع والتحصيل ، والتوثيق .
فنحن نقبل باطمئنان ما أسفرت عنه جهود العلماء .

فإذا صادفك حديث لم يستوعبه عقلك سلم الأمر فيه لله تعالى ، غير متهم للرواة ولا للمحدث الذى أخرجه ، مادام مستوفيا شروط الصحة ، وأنت بهذا الموقف لم تخرج عن ولائك للسنة النبوية ، والمرفوض رد الحديث مشككا فيه . والصحابه رضوان الله عليهم كانوا يتوقفون أمام بعض المرويات ، وأئمة المذاهب فى الفقه الإسلامى أخذ بعضهم ببعض الأحاديث ولم يأخذ الآخرون بها ، ولم يكن هذا منهم تشكيكا فى السنة ، ولا انصرافا عن العمل بها . ومن الظواهر المعروفة فى علم الجرح والتعديل أن من علمائه من يقبل حديثا ، ومنهم من لا يقبله ^(١) .

لكن كل هذا لا بد أن يتم على ضوء المنهج العلمى ، وفى ظلال القواعد الراسخة التى وضعها العلماء .

إن المتشككين فى السنة هم المستشرقون ومن والاهم من بعض المسلمين الذين خدعوا ببريق أوهام المستشرقين .

ومثل هؤلاء فى الضلال من يجرون وراء الأحاديث الموضوعية ، والواهية والشاذة التى وردت فى كتب الموضوعات وما شابهها ؛ ليدفعوا المسلمين إلى سلوك فى الدين لم يأذن به الله .

(١) راجع فى هذه القضية شيخ الإسلام ابن تيمية فى كتابه : رفع الملام عن الأئمة الاعلام .

إن السنة النبوية الصحيحة بخير ، وهى فوق الشك والشبهة ، والإيمان بها لا ريب فيه ، ولكن الذى يضر بالقضايا العلمية أن يتدخل فيها الأدعياء ، فتتحول إلى يد غير العالمين بها ، والذين لا يعرفون عنها أكثر من الحراسة والعاطفة فيظنون أن الدفاع عن السنة يكون فى اتهام الناس بالباطل ، والحكم بالهوى ، وممارسة الأحقاد الباغية .

ونتيجة لهذا وجد من غير أهل العلم من رد بالمثل ، فأثار الشكوك بدون بينة أو دليل ، وسنة النبي ﷺ أكبر من هؤلاء ، وأولئك ، وهى حق لا يمكن أن ينال منه أى مشكك .
وثمة قضية هامة .

لقد توفرت أمتنا منذ زمن قديم على الحفاظ على تراثها اللغوى ، والأدبى ، والإخبارى ، واحتفت برواية الشعر ، ونصوص الأدب منذ العصر الجاهلى وسجلت أخبار القراء والخطباء ، ودونت الحكم والأمثال ، وما حدث فى أيامها وحروبها ، وكان لها من ذلك موروث عظيم ، وابتعت فى هذا كله منهج الإسناد والعنونة . أفما كان من الأجدر بها - وقد فعلت - أن تحتفى احتفاء بالغاً بحديث رسول الله ﷺ ، وهو بمنهجه الفريد فى التوثيق فوق كل شكوك .
ويصبح لزما علينا وجديرا بنا أن ننظر لعملهم بإعجاب وإكبار باحثين عن مدى توافر شروط الصحة فيما نقل إلينا من أقوال الرسول الكريم عليه الصلاة والتسليم .

وكما أكد الله سبحانه حفظه لكتابه فقد حفظ سنة نبيه محمد

ﷺ أيضا ؛ إذ قبض لهذه الأمة رجالا علماء حفاظا ، ثقة نقلوا هذه السنة بأمانة وثبتت ، وكشفوا الزيف ، وفضحوا الدخيل ، ومن هؤلاء الأئمة الستة وفي مقدمتهم : البخارى ومسلم ، وأئمة الجرح والتعديل .

كما يسر الله حفظها عن طريق أخصب حركة تشريعية فى تاريخ أمة من الأمم وهى حركة الفقه الإسلامى بمذاهبه المتعددة واتجاهاته المختلفة التى كانت فى جوهرها حركة اجتهادية واسعة فى إطار الكتاب والسنة ، وظهرت آلاف الكتب تسجل هذه الاجتهادات .

والدراسات اللغوية والبيانىة اتجهت إلى الحديث الشريف بالبحث والدرس فكانت وسيلة ثالثة من وسائل الحفاظ عليه . وأستطيع أن أقول فى نهاية هذا البحث ، ختاماً لهذه القضية الهامة : إن الأمة تجاوزت مرحلة الاستدلال على حجية السنة ، ومن نافلة القول أن نثيرة ، أو أن نعيد القول فيه ، فقط علينا الآن أن نكشف الستار عن السنة الصحيحة ، وننبه إلى الزيف والدخيل ، وأن نعيدها إلى واقع المسلمين ليتخذوا منها القدوة والأسوة ؛ إذ هى أعظم موروث لأكرم مورث ، شهد له وزكاه رب العالمين .

إن أمة الإسلام بخير مادام كتاب الله دستوراً ، وسنة نبيه محمد ﷺ منهجاً وقيدها ، وتراث أسلافها الصالحين وعلومهم معالم تهديها إلى الصراط المستقيم ، صراط الله الذى له ما فى السموات والأرض ، وإلى الله تصير الأمور .

القضية الخامسة

الإسلام والشرعة الهادية

﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَىٰ اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْرًا أَنْ يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ وَمَنْ يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا مُّبِينًا﴾

(سورة الأحزاب/ ٣٦)

والقضية الخامسة ..

... نقدمها من خلال دراستنا للحقيقة الكبيرة: الإسلام ..
دعوة الحق: هي أن الإسلام الشريعة الهادية للبشر ، التي تقودهم إلى
خير الدنيا والآخرة ، وأن الالتزام به شريعة تنظم الحياة والسلوك
لا يقل خطرا عن الالتزام به عقيدة توجه العقل ، وتقوم الفكر .
والارتباط بين الإسلام العقيدة ، والإسلام الشريعة جد وثيق .
فهؤلاء الذين التمسوا التشريع من الأحرار والرهبان ، معرضين
عما لله من شريعة ونظام أخطأوا في حق عقيدتهم ، كما أخطأوا شريعة
الله ، ولأجل هذا قال ربنا تبارك وتعالى في حق هذا النفر من أهل
الكتاب : ﴿ اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهَبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ
وَالْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا إِلَهًا وَاحِدًا لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ
سُبْحَانَهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴾ ^(١) وما كان اتخاذهم لهم أربابا إلا باتخاذهم
مشرعين لهم .

دخل عدى بن حاتم عند مقدمة المدينة على رسول الله ﷺ ،
وفى عنق عدى صليب من فضة ، وسمع رسول الله ﷺ يقرأ هذه
الآية ، قال - والكلام هنا لعدى - فقلت : إنهم لم يعبدوهم ،
فقال : « بلى إنهم حرّموا عليهم الحلال ، وأحلوا لهم الحرام
فاتبعوهم ، فذلك عبادتهم إياهم » ^(٢) .

والإسلام دعوة الله تعالى ودينه الذي جاء به على امتداد التاريخ

(١) سورة التوبة/ ٣١ .

(٢) رواه الإمام أحمد ، والترمذى وابن جرير من طرق عن عدى بن حاتم رضى الله
عنه ، وراجع تفسير المنار ج ١ .

رسله كان يحمل بين الحين والحين شريعة للأحياء ، ومنهجاً للحياة .
وما كان كل رسول يحمل شريعة .

بل منهم من حمل رسالة الدين لتجديد العقيدة ، وتقويم
ما أصابها من انحراف ، مع الالتزام بشريعة سابقة جاء بها رسول
قبله .

وأول شريعة جاء بها نوح عليه السلام .
ومن بعدها جاءت شريعة إبراهيم .
ثم شريعة موسى عليه السلام سار عليها من بعده عيسى
ابن مريم عليه السلام .

وخاتمة الشرائع شريعة النبي محمد ﷺ .
وهذه الشرائع في جوهرها وأصولها التشريعية مترابطة متآخية ،
وإن اختلفت بعض أحكامها الفرعية فتلك سنة العليم الحكيم
ليواكب شرعه ما أَرَادَهُ سبحانه من حركة التطور البشرى (٣) .

وأصولها التي تلتقي عندها تتمثل فيما يأتي :

الطيب حلال والخبيث حرام .

حماية الجسم ، والعقل ، والمال ، والعرض ، والعقيدة .
حقوق على الإنسان أساسها رابطة الدم ، وأخرى أساسها
رابطة العقيدة ، وثالثة ترجع إلى روابط إنسانية سامية كالحوار

(١) نذكر القارى بقول الله تبارك وتعالى : ﴿ شرع لكم من الدين ما وصى به نوحا ،
والذى أوحينا إليك وما وصىنا به إبراهيم وموسى وعيسى أن أقيموا الدين ،
ولا تتفرقوا فيه ، كبر على المشركين ما تدعوهم إليه ، الله يجنئ إليه من يشاء ويهدى
إليه من ينيب ﴾ سورة الشورى/ ١٣ .

والزوجية ونحوهما .

لا ضرر ، ولا ضرار .

الأخذ بأخف الضررين بأن نقبل ضررا أقل من أجل رفع ضررا أكبر .

ما يوصل إلى الحرام نتوقف عنده ولا نقره (سد الذرائع)
دفع المفسد مقدم على جلب المصالح .
الضرورات تبيح المحظورات .

دع ما يريبك إلى ما لا يريبك - لا يكلف الله نفسا إلا وسعها .
كل صلح جائز بين المسلمين إلا صلحا أحل حراما ، وحرم حلالا .

وهناك قواعد أخرى حفلت بها كتب الفقه وأصوله تبين إلى أى مدى اتسمت هذه الشريعة الهادية بالمرونة ، والعطاء المستمر للإنسان ليرشد ويهتدى ، ويسعد في دنياه وفي أخراه ، وليتحقق له الأمن في سره ، والمعافة في بدنه ، والحب والود في مجتمعه .
وقد انفردت شريعة موسى عليه السلام بتحليل وتحريم على غير الأسس السابقة وسبب ذلك ما عرف به مجتمع بني إسرائيل من التمرد والشراسة ، والتحايل على شريعة الله ، ومن أجل هذا حرم الله عليه بعض الأشياء ، لا لأنها خبيثة ، ولكن تأديبا لهم وتقويما لسلوكهم المعوج في علاقاتهم بالله وبالناس ، وهذه الأمور التي حرمت على بني إسرائيل عقوبة أشارت إليها الآية الكريمة : ﴿وَعَلَى الَّذِينَ هَادُوا حَرَّمْنَا كُلَّ ذِي ظُفُرٍ وَمِنَ الْبَقَرِ وَالْغَنَمِ حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ شُحُومَهُمَا إِلَّا مَا حَمَلَتْ ظُهُورُهُمَا أَوِ الْحَوَايَا أَوْ مَا اخْتَلَطَ بِعَظْمٍ ،

ذَلِكَ جَزَاءُهمُ بِبِعْثِهِمْ وَأَنَا لَصَادِقُونَ ﴿١﴾ .

وقد أشار الله تعالى إلى هذه المحرمات تأديبا في آية أخرى فقال :
﴿وَعَلَى الَّذِينَ هَادُوا حَرَّمْنَا مَا قَصَصْنَا عَلَيْكَ مِنْ قَبْلُ وَمَا ظَلَمْنَاهُمْ
وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ (٢) .

كما قال تعالى : ﴿فَبِظُلْمٍ مِنَ الَّذِينَ هَادُوا حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ طَيِّبَاتٍ
أُحِلَّتْ لَهُمْ...﴾ (٣) .

وهذه المحرمات هي المعروفة بالأصار والأغلال والخرج ، وقد
أشارت إليها آية الدعاء التي ختمت بها سورة البقرة : ﴿لَا يُكَلِّفُ
اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا لَهَا مَا كَسَبَتْ ، وَعَلَيْهَا مَا اكْتَسَبَتْ رَبَّنَا
لَا تُؤَاخِذْنَا إِنْ نَسِينَا أَوْ أَخْطَأْنَا ، رَبَّنَا وَلَا تَحْمِلْ عَلَيْنَا إَصْرًا كَمَا
حَمَلْتَهُ عَلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلُنَا ، رَبَّنَا وَلَا تُحَمِّلْنَا مَا لَا طَاقَةَ لَنَا بِهِ وَاعْفُ
عَنَّا وَاعْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا ، أَنْتَ مَوْلَانَا فَانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ
الْكَافِرِينَ﴾ (٤) .

النصوص التي تسند إليها هذه الأصول .

هذه الأصول التي أثبتنا جانبها منها ، وقلنا إنها تتلاقى عندها
شرائع الله على اختلافها لا نجد مشقة في التماس النصوص التي
نبعت منها ، وقامت عليها ، وهي لا تخرج عن دائرة الكتاب
العزیز ، أو السنة الصحيحة .

(١) سورة الأنعام/١٤٦ .

(٢) سورة النحل/١١٨ .

(٣) سورة النساء/١٦٠ .

(٤) سورة البقرة/٢٨٦ .

وسأقدم طرفاً من هذه النصوص التي تعد سنداً لهذه الأصول .

من ذلك قوله تعالى :

﴿يَسْأَلُونَكَ مَاذَا أَحَلَّ لَهُمْ قُلْ أَحَلَّ لَكُمْ الطَّيِّبَاتُ ..﴾ ^(١) .

﴿الْيَوْمَ أَحَلَّ لَكُمْ الطَّيِّبَاتُ ..﴾ .

﴿وَيُحَلِّ لَّهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَائِثَ﴾ ^(٢) .

﴿يُرِيدُ اللَّهُ بِكُمْ الْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمْ الْعُسْرَ﴾ ^(٣) .

﴿مَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيَجْعَلَ عَلَيْكُمْ مِنْ حَرَجٍ﴾ ^(٤) .

﴿فَمَنْ اضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ﴾ ^(٥) .

﴿فَمَنْ يَكْفُرْ بِالطَّاغُوتِ وَيُؤْمِنْ بِاللَّهِ فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ
الْوُثْقَى لَا انْفِصَامَ لَهَا﴾ ^(٦) .

﴿وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا﴾ إلى

قوله : ﴿كُلُّ ذَلِكَ كَانَ سَيِّئُهُ عِنْدَ رَبِّكَ مَكْرُوهًا﴾ ^(٧) .

« الحلال بين والحرام بين وبينهما أمور متشابهات » ^(٨) .

ومن الأصول التي ذكرت ما هو نصوص لأحاديث صحيحة

ومتفق عليها .

كيف التقت شرائع الله على هذه الأصول ؟

(١) سورة المائدة/٤ . ٥ .

(٢) سورة الأعراف/١٥٧ .

(٣) سورة البقرة/١٨٥ .

(٤) سورة المائدة/٦ .

(٥) سورة البقرة/١٧٣ .

(٦) سورة البقرة/٢٥٦ .

(٧) سورة الإسراء من ٢٣ - ٣٨ .

(٨) رواه البخاري عن الثعلبي بن بشير .

أما التقاء شرائع الله على هذه الأصول ، مع الاستثناء الذي ذكرناه ، وبيننا مغزاه فهذا الالتقاء تؤكد هذه الآيات البينات ، المتتبعات ، يقول جل ذكره :

﴿إِنَّا أَنْزَلْنَا التَّوْرَةَ فِيهَا هُدًى وَنُورٌ يَحْكُمُ بِهَا النَّبِيُّونَ الَّذِينَ أَسْلَمُوا لِلَّذِينَ هَادُوا وَالرَّبَّانِيُّونَ وَالْأَحْبَارُ بِمَا اسْتُحْفِظُوا مِنْ كِتَابِ اللَّهِ وَكَانُوا عَلَيْهِ شُهَدَاءَ ، فَلَا تَخْشَوُا النَّاسَ وَاخْشَوُا اللَّهَ فَأُولَئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ . وَكُتِبَ عَلَيْهِمْ فِيهَا أَنْ تُقْسَمَ بِالْإِنْسِ وَالْعَيْنِ وَالْأَنْفِ بِالْأَنْفِ وَالْأُذُنُ بِالْأُذُنِ وَالسِّنُّ بِالسِّنِّ وَالْجُرُوحُ قِصَاصٌ فَمَنْ تَصَدَّقَ بِهِ فَهُوَ كَفَّارَةٌ لَهُ وَمَنْ لَمْ يَحْكَمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ وَقَفَّيْنَا عَلَى آثَارِهِم بِعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ التَّوْرَةِ وَآتَيْنَاهُ الْإِنْجِيلَ فِيهِ هُدًى وَنُورٌ وَمُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ التَّوْرَةِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةً لِلْمُتَّقِينَ . وَلَيَحْكُمُ أَهْلُ الْإِنْجِيلِ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فِيهِ وَمَنْ لَمْ يَحْكَمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ . وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ الْكِتَابِ وَمُهَيِّمًا عَلَيْهِ فَاحْكُم بَيْنَهُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ عَمَّا جَاءَكَ مِنَ الْحَقِّ لِكُلِّ جَعَلْنَا مِنْكُمْ شُرْعَةً وَمِنْهَاجًا وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَكِنْ لِيَبْلُوَكُمْ فِي مَا آتَيْكُمْ فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ إِلَى اللَّهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ﴾^(١) .

بجانب ما تكشف عنه هذه الآيات من التقاء شرائع الله على

(١) سورة المائدة من الآية ٤٤ - ٤٨ .

منهج الهداية والنور ، والموعظة الحكيمة ، والإرشاد القويم ،
وبجانب ما تدفع به هذه الآيات كل محاصم لحكم الله وشرعه
بصفات الكفر والظلم والفسق فإنها تقدم لنا عددا من الحقائق
الناصة .

● تعدد شرائع الله لاختلاف الظروف التي مرت بها الإنسانية
عبر تاريخها الطويل (لكل جعلنا منكم شرعة ومنهاجا) .

● كان يمكن أن يكون البشر على سمت واحد في الظروف
البيئية : زمانية ومكانية ، وفي الخصائص النفسية ، ولكن اقتضت
حكمة الله أن يختلفوا في ذلك كله ؛ ليتحقق معنى الابتلاء في الحياة
الذي هو إحدى مهام الإنسان في الدنيا .

● الشريعة التي جاء بها النبي محمد ﷺ هي خاتمة الشرائع .
ومن أجل ذلك أعطيت حق الهيمنة .

والهيمنة بمعنى الإشراف الدقيق على الكتب السماوية السابقة
التي أمرنا بالإيمان بها ، مع الاحتواء لها ، وضبط ما شرع فيها .
وهذا الإشراف يقتضي كشف الزيف ، وبيان الدخيل ، ورفع
الغطاء عن التدليس ، والتلبيس الذي تورط فيها أهل الكتاب
عندما دونوا التوراة ، وجمعوا أسفارهم ، وعندما جمعوا
الأنجيل ، وكتبوها مروية عن الحواريين تلامذة المسيح عليه
السلام .

لقد اختلطت شروحهم ، وتعليقاتهم بالنصوص الأصلية التي لم
تسلم هي الأخرى بحكم تقادم العهد من التزيد .

وظهر هذا التزيد والتمويه واضحا في مجال القصص

والأخبار^(١) .

ومن هنا برزت هذه المهمة الكبيرة للقرآن الكريم في كشف هذا كله ، والتي تعد إحدى صور الهيمنة ، يقول تبارك وتعالى : ﴿إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَفْصُّ عَلَى بَنِي إِسْرَآئِيلَ أَكْثَرَ الَّذِي هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾^(٢) .

وهناك صورة أخرى للهيمنة ، تظهر فيما يعرف « بالنسخ » . ومن القواعد التي قررها الفقهاء : شريعة من قبلنا شريعة لنا ما لم تنسخ بكتاب .

والنسخ استبدال أحكام جديدة بأحكام سابقة ؛ لأن الأولى تواكب المجتمع الإنساني الذي أعد في أرض جزيرة العرب لتلقى الرسالة الخاتمة الباقية .

فلا بد أن تنتهى التشريعات التي فرضت على السابقين لتكون عقابا لهم ، لا لتكون نظاما مستمرا في الحياة ، كما قال ربنا : ﴿وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ﴾ باعتبار هذا أحد أهداف الشريعة التي جاء بها محمد عليه الصلاة والسلام .

وتغيرت بعض هيئات العبادات وأشكالها للغاية السابقة نفسها .

وتغيرت بعض تشريعات العلاقات الإنسانية للسبب نفسه . لكن الأصول والأهداف التشريعية التي وراءها والتي ترمى إلى رعاية الإيمان ، وصيانة العقيدة ، وتحقيق السمو الإنساني إلى

(١) راجع كتابنا : بنو إسرائيل في القرآن .

(٢) سورة النمل/٧٦ .

أقصى غاية ممكنة لم تتغير.

ولكى يقوم القرآن الكريم بهذه المهمة ، وهى الهيمنة على الكتب السماوية السابقة ، والإمساك بزمام التوجيه على درب الإنسانية حتى تقوم الساعة ، اختصه الله تعالى بهذه الأمور .

أولها : فى أسلوب نزوله ، وتلقى النبى عليه الصلاة والسلام له بقلبه ، وتبليغه لصحبه ، ثم تدوينه ، وتنفيذه فور نزول ما يقطع شك كل مرتاب ، ومن هنا أكد القرآن الكريم فى أكثر من موطن أنه لا ريب فيه ، وأنه نزل بالحق ، وقد عالجنا هذه القضايا معالجة شاملة عند حديثنا عن كلمة « الحق » فى القرآن .

وبهذا اكتسب منذ نزول آياته الأولى تواترا بعيد المدى يدحض الشُّبهة والشكوك ويتصدى أبوبكر رضى الله عنه لجمع آياته فى مصحف واحد عن طريق الحفاظ الذين سمعوا رسول الله ﷺ ، وسمع منهم مع ما تجمع لديهم من الرقاع المكتوبة ^(١) .

وبأتى عثمان عليه السلام ، فيخبره حذيفة بن اليمان الذى جاء من خط المواجهة فى أرمينية باختلاف الناس فى القراءة اختلافا يخشى منه على الكتاب العزيز ، فأمر عثمان جماعة من الصحابة على رأسهم زيد بن ثابت أن ينسخوا من مصحف أبى بكر عدة مصاحف يقرها هؤلاء الصحابة القراء بإجماع ، وتوزع على الأمصار الإسلامية ، وأمر يحرق ما عداها من المصاحف ، وأن يرسل مع كل مصحف صحابى قارئ ليكون مرجعا للناس فى المصر الذى هو

(١) راجع الفهرست لابن النديم ص ٣٧ . دار المعرفة بيروت .

فيه ، فلا يختلف الناس بعد هذا في شيء من كتاب ربهم .
وأصبح مصحف عثمان رضى الله عنه إلى الآن إماما لكل
مصحف ، بل إنه أصبح شرط قبول القراءة أن تكون موافقة لرسم
المصحف العثماني (١) .

ومرت أربعة عشر قرنا أو يزيد ولا تجد شذوذا ، ولا انحرافا ،
ولا تغييرا ، برغم هذا المدى الطويل ، وأى محاولة للتغير يفتضح
أمرها ، ويكشف سترها ، وهذه عناية إلهية اختص بها رب العزة
كتابه الحق الذى يحمل بين دفتيه شريعته الباقية ﴿إنا نحن نزلنا الذكر
وإنا له لحافظون﴾ (٢) .

ثانيها : احتفاؤه بالقواعد العامة ، المحكمة ، الضابطة ، أكثر
من القوالب الجزئية المحدودة التى تحد من اجتهاد المؤمنين الصادقين .
وعلى سبيل المثال : الحلال والحرام فى قضية الطعام والشراب .
لقد حرم الله بعض الطعام والشراب ، وأحل بعضه على أساس
أن الأول خبيث ، والثانى طيب ولا يباح من الخبيث شيء إلا عند
الضرورة ، والضرورة تقدر بقدرها .

وبجانب هذا يعطى قاعدة محكمة ، يترك تطبيقها للمؤمن ،
يرعاه ويحرسه عند التطبيق إيمانه وتقواه وإحسانه ، فيقول تعالى :
﴿لَيْسَ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جُنَاحٌ فِيمَا طَعِمُوا إِذَا
مَا اتَّقَوْا وَآمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ ثُمَّ اتَّقَوْا وَآمَنُوا ثُمَّ اتَّقَوْا وَأَحْسَنُوا

(١) النشر فى القراءات العشر لابن الجزرى ج ١ .

(٢) سورة الحجج/٩ .

وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ ﴿١﴾ .

فهذا الاجتهاد - بما يمنحه للبشر المتفعين بالتشريع فى إطار القواعد العامة - يكسب التشريع خصوصية ، ومرونة ، وسدادا ، وقدرة على علاج ما يواجه الإنسان من مشكلات .

ثالثها : الاهتمام بحكمة التشريع التى تمنح الناس ثقة فى شريعة ربهم ، وهى تدور حول إصلاح الإنسان ، وصالح المجتمع ، والاتجاه بهما نحو الاستقامة والرشد .

﴿إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ﴾ (٢) .

﴿إِنَّمَا يُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَنْ يُوقِعَ بَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ فِي الْحَرَمِ
وَالْمَيْسَرِ وَيُضِلَّكُمْ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ وَعَنِ الصَّلَاةِ فَهَلْ أَنْتُمْ
مُنْتَهُونَ﴾ (٣) ؟

رابعها : شمولها لكل ما يحتاج إليه الإنسان فى علاقته بأسرته وبمجتمعه ، وبولاة أمره ، كما تشمل كل العلاقات التى تربط المجتمع المسلم بغيره ، وبذلك غطى كل ما للإنسان وللمجتمع الإسلامى من حاجات ومطالب يصح بها شأنه ، ويستقيم بها أمره .

الخصائص العامة للشريعة الهادية :

وإذا كانت شريعة الله فى القرآن الكريم ، والتى حولها رسول الله

(١) سورة المائدة/٩٣ .

(٢) سورة الإسراء/٩ .

(٣) سورة المائدة/٩١ .

ﷺ في سنته الراشده الهادية إلى واقع وعمل وتطبيق حتى كان كما وصفته السيدة عائشة رضي الله عنها « كان خلقه القرآن » قد اكتسبت هذه الخصائص السالفة التي أعطتها حق الهيمنة ، وجعلتها وحدها أولى بالاتباع من كل مقتصد منصف فإنها مع هذا قد وعت الخصائص التي تتميز بها الشريعة الإلهية بعامه على اختلاف الرسائل التي حملتها .

وفي مقدمة هذه الخصائص .

● ارتباط الأحكام بالعقيدة .

فشريعة الله إذا أمرت ، أو نهت ، أو أحلت ، أو حرمت ، توجه الدعوة للمؤمنين ، وتذكر بها المتقين والمحسين ، وبهذا تكتسب أحكام الله ضمانا قويا للتنفيذ ، وحراسة صارمة من داخل الفرد للمؤمن تمنعه من التحايل والتلاعب .

وبجانب هذا التحذير من عواقب التضييع في الدنيا والآخرة . لكن الأولى هي الأساس .

وهذا أمر لا يتوافر في الشرائع الوضعية التي تجعل ضمان التنفيذ هو مجرد العقوبة المادية مما يسهل الحيلة لكل محتال .

● العدالة المطلقة .

وذلك لأن المشرع الحكيم هو الله ، المعبود بحق ، رب هذا الوجود ، فهو فوق الأهواء والميول والتزعجات ، ونحوها من الآفات التي تصيب البشر .

كما أنه فوق خصائص الزمان ، وفوارق المكان ، ومن هنا كانت شريعته سبحانه صالحة لكل زمان ومكان .

● الإنسان جزء من هذا الكون الكبير .

ولذلك شرع الله له كل ما هو في حاجة إليه .

على أساس أنه إنسان كرمه الله على كثير من خلق ، وحمله مهمة كبيرة ؛ ولأجلها سخر له ما في السموات ، وما في الأرض ، وحمله في البر والبحر ، ورزقه من الطيبات .

وأنه بإيمانه لله وحده تكتمل كرامته وسيادته .

ولابد له أن يعرف طبيعة العلاقة بينه وبين الأمم الحية التي تعيش

معه .

قال تعالى : ﴿وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا طَائِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلَّا أُمَمٌ أَمْثَلُكُمْ مَا فَرَقْنَاهُ فِي الْكِتَابِ مِنْ شَيْءٍ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّهِمْ يُحْشَرُونَ . وَالَّذِينَ كَذَبُوا بآيَاتِنَا صُمٌّ وَبِكُمْ فِي الظُّلُمَاتِ مَنْ يَشَاءُ اللَّهُ يُضْلِلْهُ وَمَنْ يَشَأْ يُجْعَلْهُ عَلَىٰ صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ۝﴾ (١) .

وهذه الآية تشير بوضوح إلى مدى ضلال الإنسان وتخطئه عندما يجهل طبيعة العلاقة بينه ، وبين الكائنات من حوله ، وحسبه هذا الوصف (صم وبكم في الظلمات) .

ولأجل هذا كله أعنى الخصائص العامة لشرعة الله ، والخصائص الخاصة بالشرعة الخاتمة المهمة كان الالتزام بها ، والوقوف عند حدودها واجبا ، يفرضه الإسلام ، ويلزم به الإيمان . لأن من أبرز صفات الإيمان المسلم ، أو الإسلام المؤمن الثقة

(١) سورة الأنعام/ ٣٨ . ٣٩ .

التامة فيمن آمنت به ، وأسلمت له وجهك وعبادتك بأن ينشأ في أعماقك يقين قاطع بأن أمر الله هو الحق ، وحكمه هو العدل ، وشرعته هي الهدى .

وأن سعادة البشر في الاستمسك بها ، وخسرانهم في التخلي عنها .

﴿وَالَّذِينَ يُمَسِّكُونَ بِالْكِتَابِ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ إِنَّا لَا نَضِيعُ أَجْرَ الْمُضِلِّينَ﴾ ^(١) .

والعمل بشريعة الله أمانة في عناق كل مسلم ، بل إن أمر الإيمان الصادق متوقف عليها ، ولا يتم في غيبتها ﴿فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّى يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنْفُسِهِمْ حَرَجًا مِمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا﴾ ^(٢) .

فلا يكفي - لكي تكون مؤمنا صادقا - أن تحكم الرسول القائم على تنفيذ الشريعة صلوات الله عليه .

بل لابد أن ينتفى من نفسك تماما الإحساس بأى ريبة في عدالة هذا الحكم والتسليم المطلق الذى لا مراجعة معه .

وأمام قانون الإنسان لك المراجعة ، وبيدك الخيار .

حتى ما ينتهى إليه اجتهاد المؤمنين الصادقين يؤخذ منه ويرد .

وإزاء شريعة الله الذى آمنت به لا مراجعة ولا اختيار .

حتى كان من أصول أهل الفقه : لا اجتهاد مع النص .

يقول تعالى : ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مِؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللَّهُ وَرَسُولُهُ

(١) سورة الأعراف/ ١٧٠ .

(٢) سورة النساء/ ٦٥ .

أَمْرًا أَنْ يَكُونَ لَهُمُ الْخَيْرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ وَمَنْ يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ
صَلَ ضَلَالًا مُبِينًا ﴿١﴾ .

ومن الجاهلية الطاغية أن تستبدل بشريعة الله شرع غيره .
بل إنها في الوقت نفسه حماقة غالبة إذ نستبدل الذي هو أدنى
بالذي هو خير ﴿أَفَحُكْمَ الْجَاهِلِيَّةِ يَبْغُونَ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنْ اللَّهِ حُكْمًا
لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ﴾ (٢) ؟

ولا يرفض شريعة الله إلا منافق .
﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا إِلَى مَا أَنْزَلَ اللَّهُ وَإِلَى الرَّسُولِ رَأَيْتَ
الْمُنَافِقِينَ يَصُدُّونَ عَنْكَ صُدُودًا﴾ (٣) .

وبعد هذا العرض تتضح جوانب القضية .
الإسلام بعقيدته القويمة الراسخة يحتم العمل بشريعته الهادية .

(١) سورة الأحزاب/ ٣٦ .

(٢) سورة المائدة/ ٥٠ .

(٣) سورة النساء/ ٦١ .

القضية السادسة

الإسلام والإيمان بالسنن الكونية

﴿قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِكُمْ سُنَنٌ فَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكْذِبِينَ﴾

(آل عمران الآية ١٣٧)

أقام الله تبارك وتعالى الكون العظيم على قوانين ثابتة لا تتخلف .
وثبات هذه القوانين التي تحكم مسيرة الكون وما فيه ومن فيه
قضية أكدها القرآن الكريم في أكثر من موضع .
فمن القوانين التي تحكم مسيرة الكون وحركة الكائنات هذه
الآيات الكونية التي ذكرها القرآن الكريم ، وأشار إلى اثباتها
واستمرارها برهاناً على عظمة الخالق ، وبديع صنعه يقول تعالى :
﴿وَايَةٌ لَهُمُ اللَّيْلُ نَسْلَخُ مِنْهُ النَّهَارَ فَإِذَا هُمْ مُظْلِمُونَ . وَالشَّمْسُ
تَجْرِي لِمُسْتَقَرٍّ لَهَا ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ . وَالْقَمَرَ قَدَرْنَا مَنَازِلَ
حَتَّىٰ عَادَ كَالْعُرْجُونِ الْقَدِيمِ . لَا الشَّمْسُ يَنْبَغِي لَهَا أَنْ تُدْرِكَ الْقَمَرَ
وَلَا اللَّيْلُ سَابِقُ النَّهَارِ وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ﴾^(١)
ويقول سبحانه : ﴿إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ﴾^(٢)
وكل ما في القرآن من حديث عن الكون ، وآثار قدره الله فيه
يؤكد قيمة هذه السنن الكونية وثباتها ورسوخها .
كما أشار القرآن الكريم إلى سنن الله الكونية في الانسان وعلاقته
بأخيه الإنسان وبالحياة والأحياء من حوله .
ومنها ضرورة العقبات والمصاعب التي تواجه الرسل في طريق
الدعوة .

وقد ذكر بها رب العالمين نبيه محمد عليه الصلاة والسلام بها
فقال : ﴿وَإِنْ كَادُوا لَيَسْتَفْرِزُونَكَ مِنَ الْأَرْضِ لِيُخْرِجُوكَ مِنْهَا وَإِذَا
لَا يَلْبَثُونَ خِلافَكَ إِلَّا قَلِيلًا . سُنَّةٌ مِّنْ قَدْ أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِنْ رُّسُلِنَا

(١) سورة يس/٣٧ - ٤٠ .

(٢) سورة القمر/٤٩ .

وَلَا تَجِدُ لِسُنَّتِنَا تَحْوِيلًا ﴿١﴾

كما قال له وقد أحس حرجا في تنفيذ أمر من أوامره ، وهو
زواجه بزینب ابنة عمته ﴿مَا كَانَ عَلَى النَّبِيِّ مِنْ حَرَجٍ فِيمَا فَرَضَ
اللَّهُ لَهُ سُنَّةَ اللَّهِ فِي الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلُ وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ قَدَرًا
مَقْدُورًا﴾ (٢)

فهذا قانون إلهي كوني يحكم سياسة الرسالات ، وأن الحرج لا
يمنع الرسول من تنفيذ تشريع لا بد أن يكون فيه قدوة .

ومن سنن الله وقوع اللعنة على الكافر والمنافق ، وحلول عذاب
الدنيا والآخرة عليهما ؛ إذ يقول تعالى : ﴿مَلْعُونَيْنِ أَيْنَ مَا تُثْقِفُوا
أُخِذُوا وَقُتِلُوا قَتِيلًا سُنَّةَ اللَّهِ فِي الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلُ وَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّةِ
اللَّهِ تَبْدِيلًا﴾ (٣)

كما يقول تعالى : ﴿سُنَّتَ اللَّهِ الَّتِي قَدْ خَلَتْ فِي عِبَادِهِ وَخَسِرَ
هَٰئِلِكَ الْكَافِرُونَ﴾ (٤)

ولقد بين رب العالمين أن سننه في الكون ، وقوانينه التي تحكم
مسيرته ستظل وسائل تذكير وتحذير ، تنبيه للغافل ، وإرشادا
للضال حتى يتعرف على الحق ، فيؤمن ويهتدى أو يصير على غفلته
وجاهلته فيضل على ضلاله وانحرافه .

فقال تعالى : ﴿وَقُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ سِيرِكُمْ آيَاتِهِ فَتَعْرِفُونَهَا

(١) سورة الإسراء/ ٧٦ . ٧٧ .

(٢) سورة الأحزاب/ ٣٨ .

(٣) سورة الأحزاب/ ٦٣ . ٦٤ .

(٤) سورة غافر/ ٨٥ .

وَمَارِثُكَ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿١﴾

كما يقول سبحانه : ﴿سُرِّيهِمْ آيَاتِنَا فِي الْأَفَاقِ وَفِي أَنْفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ﴾ (٢)

هذه القوانين والسنن الكونية التي أكد القرآن الكريم ثباتها ، وأنه من غير المستطاع تبديلها وتحويلها نشير هنا إلى أن الإيمان بها ضرورة محتومة .

ومن عظمة الإسلام الدين الحق أنه طالب بالإيمان بها ، لأن الإيمان بها جزء لا يتجزأ من إيمانك برب هذا الوجود ومدير أمره ، فسنته في الكون ، ومنهجه في الدين سواء وقد أشارت الآية الأخيرة إلى أن معرفتها طريق إلى استبانة الحق .

والإيمان بهذه السنن ، واحترام حركتها وثباتها أعظم ما يقوم السلوك الديني للإنسان ، ويشته على الجادة ، ومن الخطأ البين الفصل بينها .

ولأجل هذا عندما اشتد حزن النبي الكريم لإعراض قومه وتكذيبهم ، قال له رب العالمين مبيناً له سته ليكون على علم بها على نحو ما رأينا في آية الإسراء ، وكما جاء في قوله تعالى : ﴿وَلَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِنْ قَبْلِكَ فَصَبَرُوا عَلَىٰ مَا كُذِّبُوا وَأَوْدُوا حَتَّىٰ أَنَّهُمْ نَصَرْنَا وَلَا مَبْدَلَ لِكَلِمَاتِ اللَّهِ وَلَقَدْ جَاءَكَ مِنْ نَبَائِ الْمُرْسَلِينَ . وَإِنْ كَانَ كَبُرَ عَلَيْنَا مِغْرَاضُهُمْ فَإِنْ أُسْطِغَتْ أَنْ تَبْغَىٰ نَفَقًا فِي الْأَرْضِ أَوْ سُلْمًا فِي

(١) سورة النمل/٩٣ .

(٢) سورة فصلت/٥٣ .

السَّمَاءِ فَتَاتِيَهُمْ بِآيَةٍ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَمَعَهُمْ عَلَى الْهُدَى فَلَا تَكُونَنَّ
مِنَ الْجَاهِلِينَ ﴿١١﴾

إن في هاتين الآيتين درساً عظيم الشأن في السنن الكونية
فكلمات الله التي لا تتبدل هي قوانينه التي تحكم هذا الوجود .
ثم تواجه الآيات رسول الله ﷺ مواجهة شديدة إن ضيع وقته
في الحزن على أمر لا يملك تغييره ، وهو من سنة ربه التي لا
تتبدل ، فتقول له الآيات : تصرف أنت في تغيير السنين إن
استطعت حتى ينقضي قومك إلى الرشد الذي ترجوه لهم .

ومن أجل هذا ، نتيجة لهذه الدروس الإلهية الحكيمة التي أخذ
بها رب العالمين رسوله إتجه النبي عليه الصلاة والسلام إلى أمته
يعلمها متى واثته الفرصة احترام هذا القوانين ليفوزوا ويسعدوا .
جاءه مرة أعرابي حديث عهد بإسلام ، وأراد النبي ﷺ أن
يعطيه درساً مفيداً يعلمه فيه بُعداً هاماً من أبعاد الدين الحق ،
فسأله : أين تركت ناقثك ؟ فقال : تركتها بباب المسجد وتوكلت
على الله ، فقال له : أعقلها وتوكل . (٢)

فبين النبي عليه الصلاة والسلام أن الأخذ بالأسباب لا يتنافى
مع التوكل على الله .

دعا النبي عليه الصلاة والسلام أصحابه إلى العمل والسعي ،
وحذرهم من البطالة والكسل وسؤال الناس ، وقال لهم : «لأن
يحمل أحدكم حبله فيحتطب فيبيع بدرهم أو درهمين خير له من أن

(١) سورة الأنعام/ ٣٤ ، ٣٥ .

(٢) أخرجه الترمذی - كتاب القيامة - باب ٦٠ .

يسأل الناس أعطوه أو منعوه»^(١)

دعاهم إلى التماس الدواء من المرض ، وعرفهم أن الله سبحانه خلق الداء وقال : «يا عباد الله تداووا فإن الله خلق الداء والدواء»^(٢) .

ودعا إلى الأخذ بأسباب الوقاية ، والبعد عن مسببات الأمراض ، أو ما يسمى في العصر الحديث «بالحجر الصحي» فقال^(٣) : «إذا ظهر الطاعون في بلد وأنتم فيها فلا تخرجوا منها ، وإن ظهر وأنتم خارجها فلا تدخلوا فيها» .

ويروى ابن عباس ما حدث من عمر بن الخطاب عندما كان متجهاً للشام ، وتوقف عند سرغ^(٤) لما علم بوجود الطاعون ، واستشار المهاجرين والأنصار واختلفوا في الأمر ، واستشار من كان موجوداً من مشيخة قريش من مهاجرة الفتح فأشاروا بالرجوع ، فأمر بالرحيل صباحاً ، فقال له أبو عبيدة : فراراً من قدر الله ، فقال عمر رضي الله عنه : لو غيرك قالها يا أبا عبيدة ، وكان يكره خلافه : نعم نفر من قدر الله إلى قدر الله أ رأيت لو كان لك إبل فهبطت وادياها عدوتان : إحداهما خصبة والأخرى جدبة ، أليس إن رعت الخصبة رعتها بقدر الله ، وإن رعت الجدبة رعتها بقدر

(١) متفق عليه من حديث أبي هريرة .

(٢) أخرجه الترمذي وأبو داود وابن ماجه - باب الطب وفي مسند الإمام أحمد ج ٣ ص ١٥٦ .

(٣) متفق عليه من حديث عبد الرحمن بن عوف ، ومتفق عليه أيضاً من حديث أسامة ابن زيد .

(٤) سرغ مكان على بعد ثلاثة عشرة مرحلة من المدينة على طريق الشام .

الله ؟!!!! ثم جاء عبدالرحمن بن عوف وكان متغيباً وذكر الحديث المشار إليه ، فحمد الله تعالى عمر وانصرف^(١)
وحسبنا في هذا المجال توجيه رب العالمين : ﴿وَلَا تَلْقُوا بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ وَأَحْسِنُوا إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ﴾^(٢) إذ نرى في الآية درساً في الايمان بالسنن وأخذ الأسباب .

وعلى طريق تربية المسلمين على الايمان بالسنن الكونية نرى الرسول عليه الصلاة والسلام يتصدى لحرب الأوهام والدجل والحرافات التي تعيق حركة الناس ، وتحلدهم بهم إلى القعود والكسل ، والاستقامة إلى الشعوذة .

يقول عليه الصلاة والسلام : «لا عدوى ، ولا طيرة ، ولا هامة ، ولا صفروفر من المجذوم كما تفر من الأسد» (رواه البخارى)
يحذر النبي عليه الصلاة والسلام من الايمان بتأثير العدوى بذاتها ، وليس في هذا أنه يهون من الوقاية بدليل أنه في آخر الحديث أمر بالفرار من المصاب بمرض الجذام كما يحذر من التطير ، وهو نوع من التشاؤم .

كما بين خرافة الهامة ؛ إذ كان العرب يظنون أن القتل يخرج له طائر يسمى الهامة تلف حول قبره ، ولا تهدأ حتى يؤخذ بثأره وتشرب من دم قاتله قال ذو الأصبع القدواني
يا عمرو الا تدع ذمي ومنقصتي اقتلك حتى تقول الهامة اسقوني فذكر النبي ﷺ أن ذلك خرافة ولا أصل له .

(١) متفق عليه ، وراجع رياض الصالحين ص ٨٧٥ .

(٢) سورة البقرة/ ١٩٥ .

وكانوا يتشاءمون من دخول شهر صفر فيين لهم النبي ﷺ أن ذلك خرافة أيضاً .

وعن أنس رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ « لا عدوى ولا طيرة ويعجبني الفأل ، وقالوا . وما الفأل ؟ قال : كلمة طيبة »^(١)

وعن قبيصة بن المخارق رضى الله عنه قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : « العيافة »^(٢) والطيرة والطرق^(٣) من الجبت »^(٤) (رواه أبو داود بإسناد حسن)

كما روى أن رسول الله ﷺ قال : « من أتى عرافاً فسأله عن شيء ، فصدقه لم تقبل له صلاة أربعين يوماً »^(٥)

وهكذا سد رسول الله ﷺ كل منافذ الجهل والخرافة حتى لا يخلص منها شيء إلى أمة الحق والعلم والهداية والبصيرة .

وقد كان النبي ﷺ يؤمن إيماناً عميقاً بالسنة الكونية وظهر ذلك في سلوكه أمام كبار الأحداث وفي المعارك التي خاضها ضد جيوش الباطل .

من ذلك مثلاً ما فعله في الهجرة من إخفاء خبرها ، ومبيت على على فراشه ، والتخفي في الغار لمدة ثلاثة أيام ، والاتجاه جنوباً مع

(١) هذا الحديث متفق عليه والمقصود « بلا عدوى » يعنى أنها غير مؤثرة بذاتها .

(٢) العيافة الخط ، وهو لون من التكهن والرجم بالغيب .

(٣) والطرق : أى زجر الطير فإن طار يمينا يمتن به ، وإن طار يساراً تشاءم .

(٤) الجبت : قال الجوهرى فى الصحاح : الجبت كلمة تقع على الساحر والكاهن والصنم .

(٥) رواه مسلم من حديث صفية بنت أبى عبيد عن بعض أزواج النبي ﷺ .

أن الطريق إلى يثرب شمالاً ، واعداد الرواحل واختيار الدليل الأمين
العارف بالطريق . (١)

ولأجل هذا نجحت الهجرة تماماً وبطل كيد قريش .
وكان إذا خرج إلى غزوة ورَّى بغيرها .
وفي غزوة بدر أخذ بكل الأسباب المؤدية للنصر ، جمع كل ما
يملك من عدة وعتاد وجنود ، واختبر إيمان أصحابه المهاجرين
والأنصار بالمعركة ، ومدى اقتناعهم بها ، ثم استشارهم في كل
شيء وغير مكان الجيش بعد مشورة حازمة من الحباب بن المنذر .
وجمع كل ما يمكن جمعه من أخبار عن جيش قريش .
ثم صف الصفوف بنفسه ورتبها ترتيباً عسكرياً محكماً ، لم تعرف
العرب مثله من قبل .

وبعد هذا كله رفع يديه إلى السماء وقال : اللهم إن تهلك هذه
العصابة لا تعبد في الأرض ، اللهم أنجز ما وعدت .. (٢)
لقد أخذ بالأسباب ، ثم توكل على الله فكان النصر .
وسيطل قانون النصر لهذه الأمة رهنا بهذين الأمرين .
وقد تلقى المسلمون دروساً مؤثرة ، وبالغة الصعوبة على طريق
الإيمان بالسنة الكونية .

ففي غزوة أحد نسوا سنة كونية من شأنها أن تسهم في تحقيق
النصر ، وهي ضرورة الالتزام بطاعة القائد في المعركة .

لقد أمر رسول الله ﷺ الرماة أن يركبوا ظهر الجبل ، ولا
(١) راجع سيرة ابن هشام ج ١ .
(٢) راجع اتحاف الوري بأخبار أم القرى ، ج ١ ، وسبيل الالهدى والرشاد ج ١ .

يبرحوه ولو هزم المسلمون عن آخرهم .

وبدأت المعركة ، ولاحت تباشير النصر ، فנסوا الأمر ، ونزلوا يجمعون الغنائم ، فرآها خالد بن الوليد وكان إذ ذاك مع قومه - فرصة سانحة فركب مع جماعة من الفرسان ظهر الجبل ، ووقع المسلمون بين نارين ، وتغير الميزان لصالح المشركين ، وسقط من المسلمين سبعون شهيداً ، وجرح رسول الله ﷺ (١) .

ونزلت ستون آية من القرآن الكريم تعاتب المسلمين في أمور كثيرة ، ومنها نسيان السنن الكونية ، إذ قال تعالى : ﴿ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِكُمْ سُنَنٌ فَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكْذِبِينَ . هَذَا بَيَانٌ لِلنَّاسِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةٌ لِّلْمُتَّقِينَ ﴾ (٢)

كما ذكرتهم بسنة أخرى هي منهج الحياة وتقلب ألوانها ، وأنها دول فقال سبحانه : ﴿ إِنْ يَمْسَسْكُمْ قَرْحٌ فَقَدْ مَسَّ الْقَوْمَ قَرْحٌ مِّثْلُهُ وَتِلْكَ الْأَيَّامُ نَدَاؤُهَا بَيْنَ النَّاسِ وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَيَتَّخِذَ مِنْكُمْ شُهَدَاءَ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ ﴾ (٣)

وأيضاً الابتلاء سنة أخرى من سنن الله لا بد أن يوطن المؤمنون أنفسهم عليها : ﴿ وَلِيُمَحِّصَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَيَمْحَقَ الْكَافِرِينَ ﴾ (٤)

كما عاتبت الآيات من ألقوا السلاح منهم عندما سمعوا أن رسول

(١) راجع مختصر سيرة ابن هشام - عبد السلام هارون .

(٢) سورة آل عمران/ ١٣٧ .

(٣) سورة آل عمران/ ١٤٠ .

(٤) سورة آل عمران/ ١٤١ .

الله ﷻ قد قتل ، وقالوا : لم نقاتل إذن ؟ فقال لهم رب العالمين ﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ أَفَإِنْ مَاتَ أَوْ قُتِلَ انْقَلَبْتُمْ عَلَى أَعْقَابِكُمْ وَمَنْ يَنْقَلِبْ عَلَى عَقْبِهِ فَلَنْ يَضُرَّ اللَّهَ شَيْئًا وَسَيَجْزِي اللَّهُ الشَّاكِرِينَ﴾^(١)

أما في حنين فكان للمسلمين درس آخر
لقد كانوا كثرة في العدد والعدة حتى قال بعضهم : لن نغلب
اليوم عن قلة !!

وكانت النتيجة أنهم وهم في الطريق إلى ثقيف انقض عليهم
بالسهام بعض الرماة من أطراف الجبال فولوا الأدبار .
ثم نادى فيهم الرسول عليه الصلاة والسلام فاجتمعوا مرة
أخرى ، وتحقق لهم النصر ، لكن الله عاتبهم ، وذكرهم بالدرس .
وكان في هذا المرة يدور حول قانون آخر هو أن النصر من عند
الله ، ولا ينبغي للمجاهد أن يغتر بكثرة العدد أو العدة ؛ لأن هناك
أمرا هاما لا تغنى عنه العدة ولا العدد ، وهو التوكل على الله ،
وطلب النصر منه ؛ إذ لا بد أن يتعاقب الإيمان القويم بالله مع الإيمان
لسننه في الكون والحياة فقال تعالى : ﴿لَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ فِي مَوَاطِنَ
كَثِيرَةٍ وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنْكُمْ شَيْئًا وَضَاقَتْ
عَلَيْكُمْ الْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ ثُمَّ وَلَّيْتُمْ مُدْبِرِينَ . ثُمَّ أَنْزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ
عَلَى رَسُولِهِ وَعَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَأَنْزَلَ جُنُودًا لَمْ تَرَوْهَا وَعَذَّبَ الَّذِينَ
كَفَرُوا وَذَلِكَ جَزَاءُ الْكَافِرِينَ﴾^(٢)

(١) سورة آل عمران/ ١٤٤ .

(٢) سورة التوبة/ ٢٥ وراجع سيرة ابن هشام ج ٤ .

ولقد سار الصحابة الأبرار على منهج الإيمان بالسنة الكونية ،
فأخذوا بأسباب القوة كما أمر الله ﴿وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ
وَمِنْ رِبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ وَآخَرِينَ مِنْ دُونِهِمْ
لَا تَعْلَمُونَهُمُ اللَّهُ يَعْلَمُهُمْ﴾ (١)

كما أخذوا بأسباب الجِد والعمل والسعى ، فحاول أبوبكر
عندما يبيع بالخلافة أن يستمر في تجارته ، لكن منعه أصحاب النبي
ﷺ ليتوفر على أمور المسلمين ، وجعلوا له عطاء في بيت مال
المسلمين .

كما مهر المسلمون في التجارة ، وبرزوا في ميادينها بصدقهم
وأمانتهم ، كما برزوا في أعمال أخرى قاموا بها طلباً للرزق ، وتنفيذاً
لأمر الله تعالى : ﴿فَامْشُوا فِي مَنَاكِبِهَا وَكُلُوا مِنْ رِزْقِهِ وَإِلَيْهِ
الْمُشُورُ﴾ (٢)

وكان عمر رضى الله عنه يقول : لا يقعد أحدكم عن طلب
الرزق ، وهو يقول : اللهم أرزقني وقد علم أن السماء لا تمطر ذهباً
ولا فضة .

ثم أخذ المسلمون بأسباب العلم والمعرفة ، ودونوا علوماً تضبط
لسانهم العربى ، كما تحوى معارفهم الاسلامية .

واستفادوا من الثقافات الأخرى النافعة ، وبرزوا في علوم
الكون من الرياضيات ، والكيمياء ، والفيزياء وقطعوا شوطاً بعيد
المدى في الطب والهندسة وافلك ، فآل إليهم زمام العلم ، وقصدهم

(١) سورة الأنفال/ ٦٠ .

(٢) سورة الملك/ ١٥ .

طلابه من المشارق والمغارب ولا تزال أوروبا تذكر جامعات المسلمين في الأندلس التي تتلمذوا عليها ، وأخرجتهم من الظلمات إلى النور ، وفتحت لهم الطريق إلى الحضارة الحديثة .^(٢)

كل هذا حدث على امتداد التاريخ الإسلامى المشرق وإذا سألت عن السبب فستجد إجابة واحدة لن تختلف إنهم آمنوا بالله ، فقوى بالإيمان بقينهم ، واستنارت بصيرتهم وصدق تصورهم ، وآمنوا بسنن الله فى الكون والحياة ، واحترموها ، وأخذوا بالأسباب فانكشف لهم الخفى من قوانين رب العالمين ، ودانت لهم الحياة .

ثم سلموا الزمام لغيرهم ، وناموا ، ولدعة الغفلة استناموا ، وخدعوا بمثل قول هذا الأحق من الشعراء من نتاج عصور الضعف والتخلف :

جرى قلم القضاء بما يكون فسيان التحرك والسكون
جنون منك أن تسعى لرزق ويرزق فى غشاوته الجنين
إنه ضلال الغفلة ، وتفكير المتخلف ، وعزيمة القاعد الواهن ، ولم يكن ولن يكون هذا سميت المسلم أبدا أو سمته .
ولو وجد فى عهد عمر وقال مقالته الآئمة لأوجعه بدرته .
وهكذا ينكشف آخر معلّم من معالم الدين الحق ، وهو أنه دين الإيمان بالسُنن والقوانين الإلهية التى تكسب العزة والقوة والكرامة .

(١) راجع تاريخ الحضارة العربية لجوستاف لوبون .

أليس بعد هذا من حقنا أن نقول : إن الاسلام هو دعوة الحق ..

والله من وراء القصد وهو حسبنا ونعم الوكيل ...

الخاتمة

﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتِمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيْتُ لَكُمُ
الْإِسْلَامَ دِينًا﴾

(سورة المائدة/جزء من الآية الثالثة)

الخاتمة

وماذا بعد ؟

هذه الرحلة التي طوفت فيها في رحاب الكتاب العزيز بجانب ما تيسر لي من مراجع ومصادر من تراثنا العريق ، استهدفت فيها الكشف عن جوانب حقيقة ، عظيمة الشأن :

« الإسلام ... دعوة الحق »

فهل بلغت ما أردت ؟ !

قد تكون الإجابة من حق القارئ الذي يقع هذا الكتاب بين يديه فهو يملك التقويم والحكم بقدر ما أتيح له من إدراك صحيح ، وفهم واع لدينه الحق .

لكن الذي عاش الرحلة ، وواجه صعابها ، وخاض التجربة من حقه أن يقول شيئاً عما انتهى إليه بحته .

إن هذا البحث اعتمد على القرآن الكريم اعتماداً يكاد يكون تاماً بجانب الأحاديث الصحيحة الكاشفة لكثير من أهداف الكتاب ، وما كانت المراجع الأخرى المتعددة إلا من أجل تقديم معارف مساعدة لتجلية الحقيقة العظيمة .

ونحن نعرف أن كل علم وضعت أصوله ، وكل كتاب دون إنما كان من أجل القرآن الكريم ، وفي رحابه ، ولخدمة أهدافه .

وهذا في تقديرى يكسب العمل قيمة .
فإدام مصدرنا الأوثق هو الكتاب الحق ، فلن يوصلنا لغير الحق .

ولقد استبان لنا من دراسة كلمتى : الإسلام والحق فى القرآن الكريم أنهما تلاقيا فى حقائق لا تختلف ، وتطابقا واقعا ، وتطبيقا ، ونتيجة بالرغم من اختلاف مدلولهما اللغوى .
لقد التقيا حول حقائق الدنيا والآخرة .

كما التقيا حول مطالب الدين ومطالب الحياة التى لا تنتهى .
إن كل حق تتصوره العقول الراشدة ، وتعمل له ، وتسعى إليه موجود فى رحاب الإسلام وفى ظلال تشريعاته .
وكل توجيه إسلامى للفرد ، أو للأسرة ، أو للمجتمع للحاكم أو للشعب .

فى علاقتك بالله ، أو بالكون ، أو بالناس .
يصيب كبد الحقيقة ، فلا يتجاوزها ، ولا تغفل الحقيقة منه ولأجل هذا قال رب العالمين ﴿إِنَّ الدِّينَ عِنْدَ اللَّهِ الْإِسْلَامُ﴾ .
كما قال سبحانه : ﴿وَمَنْ يَبْتَغِ غَيْرَ الْإِسْلَامِ دِينًا فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي الْآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ .

ومن هنا صح لى بعد الرحلة الطيبة أن أقول :
الإسلام ... دعوة الحق .
ولا أظن أنى خالفت عن الحق فى شىء .
ربنا لا ترغ قلوبنا بعد إذ هديتنا ، وهب لنا من لدنك رحمة
إنك أنت الوهاب .

ربنا آمنا بما أنزلت واتبعنا الرسول فاكتبنا مع الشاهدين .
وصلّى الله على سيدنا محمد النبي الأمي وعلى آله وصحبه وسلم
وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين

المعتز بالله وحده

د . السيد رزق الطويل

أهم مراجع البحث ومصادره

- أولاً : القرآن الكريم .
- ثانياً : كتب التفسير وعلوم القرآن .
- تفسير ابن جرير الطبري .
- تفسير القرطبي .
- تفسير الكشاف - الزمخشري .
- تفسير المنار - السيد رشيد رضا .
- النشر في القراءات العشر - لابن الجزري .
- في علوم القراءات - مدخل ودراسة وتقييم - د . السيد رزق الطويل .
- ثالثاً : بنو إسرائيل في القرآن - د . السيد رزق الطويل .
- كتب السنة .
- صحيح البخاري .
- صحيح مسلم .
- صفوة صحيح البخاري - الشيخ عبد الجليل عيسى .
- الموطأ للإمام مالك .
- سنن ابن ماجه .
- سنن الترمذي .
- سنن أبي داود .
- مسند الإمام أحمد بن حنبل .
- رياض الصالحين - للنووي .

رابعاً : معجم ألفاظ القرآن الكريم - مجمع اللغة العربية - القاهرة .
المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم - محمد فؤاد عبد الباقي .
الفهرست لابن النديم .

خامساً : معاجم لغوية .
معجم مقاييس اللغة لابن فارس .
الصحاح للجوهري .
أساس البلاغة للزمخشري .
القاموس المحيط للفيروزبادي

سادساً : كتب في العقيدة .
شرح العقيدة الطحاوية - علي بن أبي العز الدمشقي .
تمهيد في تاريخ الفلسفة - الشيخ مصطفى عبد الرازق .
عقيدة الإسلام منهج حياة - د . السيد رزق الطويل .
الجانب الإلهي في التفكير الإسلامي - د . محمد البهي .
الفرقان بين أولياء الرحمن وأولياء الشيطان - ابن تيمية .
رفع الملام عن الأئمة الأعلام - ابن تيمية .

سابعاً : مراجع تاريخية وأدبية .
وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان - لابن خلكان .
الكامل - للمبرد .

البيان والتبيين - للجاحظ .
سيرة ابن هشام
تحاف الوري بأخبار أم القرى - لابن فهد .
تاريخ الحضارة العربية - لجوستاف لوبون .
أسواق الذهب - أحمد شوقي .
ثامناً : من كتب التصوف .

- نصوص الحكم - لابن عرى .
تأثية ابن الفارض .
تاسعا : دوريات .
الأهرام - القاهرة .
الأخبار - القاهرة .
مجلة التوعية فى الحج - مكة .

فهرس الموضوعات

الموضوع	الصفحة
تمهيد - هذا الكتاب	٧
الإسلام والحق - وجهان لحقيقة واحدة	١٣
الإسلام الطرف الأول من القضية	١٥
لفظ الإسلام في القرآن	١٨
الصيغة الأولى	١٨
الصيغة الثانية	٢٢
التعبير الفعلي	٢٢
التعبير الاسمي	٢٨
آخر المطاف	٣٠
الطرف الثاني للقضية ... الحق	٣٢
تحليل لغوي	٣٢
كلمة الحق في القرآن	٣٤
مادة الحق في القرآن	٣٦
في صورة الفعل	٣٦
في صورة المصدر	٣٧
لفظ « الحق » في القرآن	٣٨
الله هو الحق	٣٩
كتاب الله حق	٤٢

٤٧	ارتباط القرآن بالحق في نزوله
٥١	القرآن الحق في مواجهة المعاندين
٥٤	القيامة حق
٥٥	من حقائق يوم القيامة
٥٦	العدالة المطلقة
٥٩	الجزاء حق
٦١	الحق أمر واقع
٦٣	فرعون والسحرة أمام موسى
٦٤	انتصار الحق في قصة يوسف
٦٥	في غزوة بدر
٦٥	المنافقون في تبوك
٦٥	رسل الله إلى إبراهيم
٦٧	دعوة الحق
٦٩	الحقوق المتبادلة
٧٠	الله أحق بالخشية
٧١	الله أحق أن يرضوه
٧٥	من صاحب الحق في الولاية ؟
٧٦	المؤمنون أحق بالتقوى
٧٩	المؤمنون المخلصون أحق بالأمن
٨٣	حق الزروع على أصحابها
٨٤	حق القرى
٨٧	العدل ... حق
٩٦	القول الصادق .. حق
١٠٢	الحكمة ... حق

١٠٧ بنو إسرائيل وقتل الأنبياء
١١٢ الحق .. التام الكامل
١١٦ الرهبانية وحققها
١١٨ الله حق - الرسل حق - الكتب السماوية حق
١٢٠ والقدر والقضاء حق
١٢٤ الأخلاق والقيم .. حقائق قرآنية
١٢٥ مقاييس الحق في التصور الإسلامي
١٣٧ قضايا ندرسها في ظلال الحقيقة الخالدة

القضية الأولى

١٣٩ دين الله هو الإسلام
١٤٠ الإسلام عقيدة ومنهج
١٥٠ ماذا عن أسمى اليهودية والنصرانية ؟

القضية الثانية

١٥٥ الإيمان والإسلام ... مفهوم جديد
١٦٩ مواجهة القرآن لأدعياء الإيمان

القضية الثالثة

١٧١ الإسلام وعقيدة التوحيد
١٧٣ توحيد الألوهية
١٧٧ توحيد الربوبية
١٨٠ توحيد الأسماء والصفات
١٨٦ توحيد الذات

القضية الرابعة

١٩١ السنة النبوية ... تطبيق للقرآن الكريم
-----	---

جهود العلماء في الحفاظ على السنة ١٩٨

القضية الخامسة

الإسلام والشرعة الهادية ٢٠٣
أصول تلتقى عليها الشرائع ٢٠٩
بجانب ما تميزت به الشرائع السماوية الأخرى من سمات عامة ٢١٥
لا يتم الإيمان عملاً إلا بالتحاكم إلى شرعة الله -

القضية السادسة

الإسلام والإيمان بالسنن الكونية ٢٢١
دروس للمسلمين من أجل السنن الكونية ٢٢٩
انتصر المسلمون لإيمانهم بسنن الله تعالى ٢٣١
الخاتمة ٢٣٧
المراجع ٢٤٣
الفهارس التفصيلية

كتب للمؤلف

كتب إسلامية

- ١ - بنو إسرائيل في القرآن .
- ٢ - العقيدة في الإسلام منهج حياة .
- ٣ - الدعوة إلى الإسلام عقيدة ومنهج .
- ٤ - بحوث في القرآن نشرت في دورية المركز الثقافي للمقاولون العرب .
- ٥ - القرآن واللغة العربية .
- ٦ - القرآن والتفكير .
- ٧ - القرآن وأهل البيت .
- ٨ - في علوم القراءات مدخل ودراسة وتحقيق .

كتب لغوية

- ٩ - النحو الوسيط - صدر منه الجزء الأول .
- ١٠ - أبنية الأفعال في اللسان العربي .
- ١١ - الخلاف بين النحويين - تاريخ وتحليل وتقوم .
- ١٢ - بحوث نحوية بعنوان : من قضايا اللسان العربي .

تحت الطبع

- ١ - أساليب الشمول والاستغراق في الدراسة النحوية .
- ٢ - اللسان العربي والإسلام معا في معركة المواجهة .
- ٣ - الجزء الثاني من النحو الوسيط .

صدر من هذه السلسلة

الكتاب

المؤلف

- ١ - تأملات في سورة الفاتحة ————— [الدكتور حسن باجودة]
- ٢ - الجهاد في الإسلام مراتبه ومطالبه ————— [الأستاذ أحمد محمد جمال]
- ٣ - الرسول ﷺ في كتابات المستشرقين ————— [الأستاذ نذير حمدان]
- ٤ - الإسلام الفاتح ————— [الدكتور حسين مؤنس]
- ٥ - وسائل مقاومة الغزو الفكري ————— [الدكتور حسان محمد حسان]
- ٦ - السيرة النبوية في القرآن الكريم ————— [الدكتور عبد الصبور مرزوق]
- ٧ - التخطيط للدعوة الإسلامية ————— [الدكتور علي محمد جريشة]
- ٨ - صناعة الكتابة وتطورها في العصور الإسلامية ————— [الدكتور أحمد السيد دراج]
- ٩ - النوعية الشاملة في الحج ————— [الأستاذ عبد الله بوقفس]
- ١٠ - الفقه الإسلامي آفاته وتطوره ————— [الدكتور عباس حسن محمد]
- ١١ - لمحات نفسية في القرآن الكريم ————— [د. عبد الحميد محمد الهاشمي]
- ١٢ - السنة في مواجهة الأباطيل ————— [الأستاذ محمد طاهر حكيم]
- ١٣ - مولود على الفطرة ————— [الأستاذ حسين أحمد حسون]
- ١٤ - دور المسجد في الإسلام ————— [الأستاذ علي محمد مختار]
- ١٥ - تاريخ القرآن الكريم ————— [الدكتور محمد سالم محسن]
- ١٦ - البيئة الإدارية في الجاهلية وصدر الإسلام ————— [الأستاذ محمد محمود فرغلي]
- ١٧ - حقوق المرأة في الإسلام ————— [الدكتور محمد الصادق عفيفي]
- ١٨ - القرآن الكريم كتاب أحكمت آياته [١] ————— [الأستاذ أحمد محمد جمال]
- ١٩ - القراءات أحكامها ومصادرها ————— [الدكتور شعبان محمد اسماعيل]
- ٢٠ - المعاملات في الشريعة الإسلامية ————— [الدكتور عبد الستار السعيد]
- ٢١ - الزكاة فلسفتها وأحكامها ————— [الدكتور علي محمد العماري]
- ٢٢ - حقيقة الإنسان بين القرآن وتصور العلوم ————— [الدكتور أبو اليزيد العجمي]
- ٢٣ - الأقليات المسلمة في أستراليا ————— [الأستاذ سيد عبد المجيد بكر]

الكتاب

المؤلف

- ٢٤ - الاستشراق والمستشرقون وجهة نظر — [الدكتور عدنان محمد وزان]
 ٢٥ - الإسلام والحركات الهدامة — [معالي عبد الحميد حموده]
 ٢٦ - تربية النشء في ظل الإسلام — [الدكتور محمد محمود عمارة]
 ٢٧ - مفهوم ومنهج الاقتصاد الإسلامى — [الدكتور محمد شوقي الفنجرى]
 ٢٨ - وحى الله — [الدكتور حسن ضياء الدين عتر]
 ٢٩ - حقوق الإنسان وواجباته فى القرآن — [حسن أحمد عبد الرحمن عابدين]
 ٣٠ - المنهج الإسلامى فى تعلم العلوم الطبيعية — [الأستاذ محمد عمر القصار]
 ٣١ - القرآن كتاب أحكمت آياته [٢] — [الأستاذ أحمد محمد جمال]
 ٣٢ - الدعوة فى الإسلام عقيدة ومنهج — [الدكتور السيد رزق الطويل]
 ٣٣ - الاعلام فى المجتمع الإسلامى — [الأستاذ حامد عبد الواحد]
 ٣٤ - الالتزام الدينى منهج وسط — [عبد الرحمن حسن حنكة الميدانى]
 ٣٥ - التربية النفسية فى المنهج الإسلامى — [الدكتور حسن الشرقاوى]
 ٣٦ - الإسلام والعلاقات الدولية — [الدكتور محمد الصادق عفيفى]
 ٣٧ - العسكرية الإسلامية ونهضتنا الحضارية — [اللواء الركن محمد جبال الدين محفوظ]
 ٣٨ - معانى الأخوة فى الإسلام ومقاصدها — [الدكتور محمود محمد بابلى]
 ٣٩ - النهج الحديث فى مختصر علوم الحديث — [الدكتور على محمد نصر]
 ٤٠ - من التراث الاقتصادى للمسلمين — [الدكتور محمد رفعت العوضى]
 ٤١ - المفاهيم الاقتصادية فى الإسلام — [د. عبد العليم عبد الرحمن خضر]
 ٤٢ - الأقليات المسلمة فى أفريقيا — [الأستاذ سيد عبد المجيد بكر]
 ٤٣ - الأقليات المسلمة فى أوروبا — [الأستاذ سيد عبد المجيد بكر]
 ٤٤ - الأقليات المسلمة فى الأمريكتين — [الأستاذ سيد عبد المجيد بكر]
 ٤٥ - الطريق إلى النصر — [الأستاذ محمد عبد الله فودة]
 ٤٦ - الإسلام دعوة حق — [الدكتور السيد رزق الطويل]

طبع بمطابع رابططة العالم الإسلامى - مكة المكرمة

حياة المؤلف - فسطاط

- الدكتور السيد رزق الطويل
- ولد في قرية نكلا - الجيزة بمصر عام ١٩٣٢م .
- حفظ القرآن الكريم في كتاب القرية ، والتحق بالأزهر الشريف ، ومنه تلقى
- تعليم الابتدائي والثانوي ، والجامعي ، ونال الاجازة العالية في اللغة العربية
- والتربية عام ١٩٥٩ .
- حصل على درجة الماجستير في اللغويات عام ١٩٦٧ ، والدكتوراه مع مرتبة
- الشرف الأولى عام ١٩٧٤ .
- اشتغل بالتدريس في التعليم الإعدادي بمصر ، ثم الثانوي ، ثم انتقل للتدريس
- بجامعة الأزهر ، وهو الآن معار لجامعة أم القرى أستاذا مشاركا بقسم
- الدراسات العليا العربية .
- اشتغل بالدعوة الإسلامية منذ أكثر من ثلاثين عاما ، وأسس بمصر جماعة دعوة
- الحق الإسلامية ، وأعاد للصدور مجلة الهدى النبوي وهو الآن رئيس تحريرها .
- من مؤلفاته الإسلامية : بنو إسرائيل في القرآن - العقيدة في الإسلام منهج
- الحياة - الدعوة في الإسلام عقيدة ومنهج - وله البحوث الآتية : القرآن الكريم
- واللغة العربية - القرآن الكريم والتفكير - القرآن الكريم وأهل البيت .
- وفي الدراسات القرآنية واللغوية : في علوم القراءات - مدخل ودراسة
- وتحقيق .
- وفي البحوث النحوية واللغوية : اختلاف النحويين : دراسة وتحليل وتقوم -
- وأبنية الأفعال واللسان العربي - النحو الوسيط ط ، الجزء الثاني تحت الطبع -
- واللسان العربي يتحدى - تحت الطبع .
- وله مئات المقالات في الصحف والمجلات العربية .